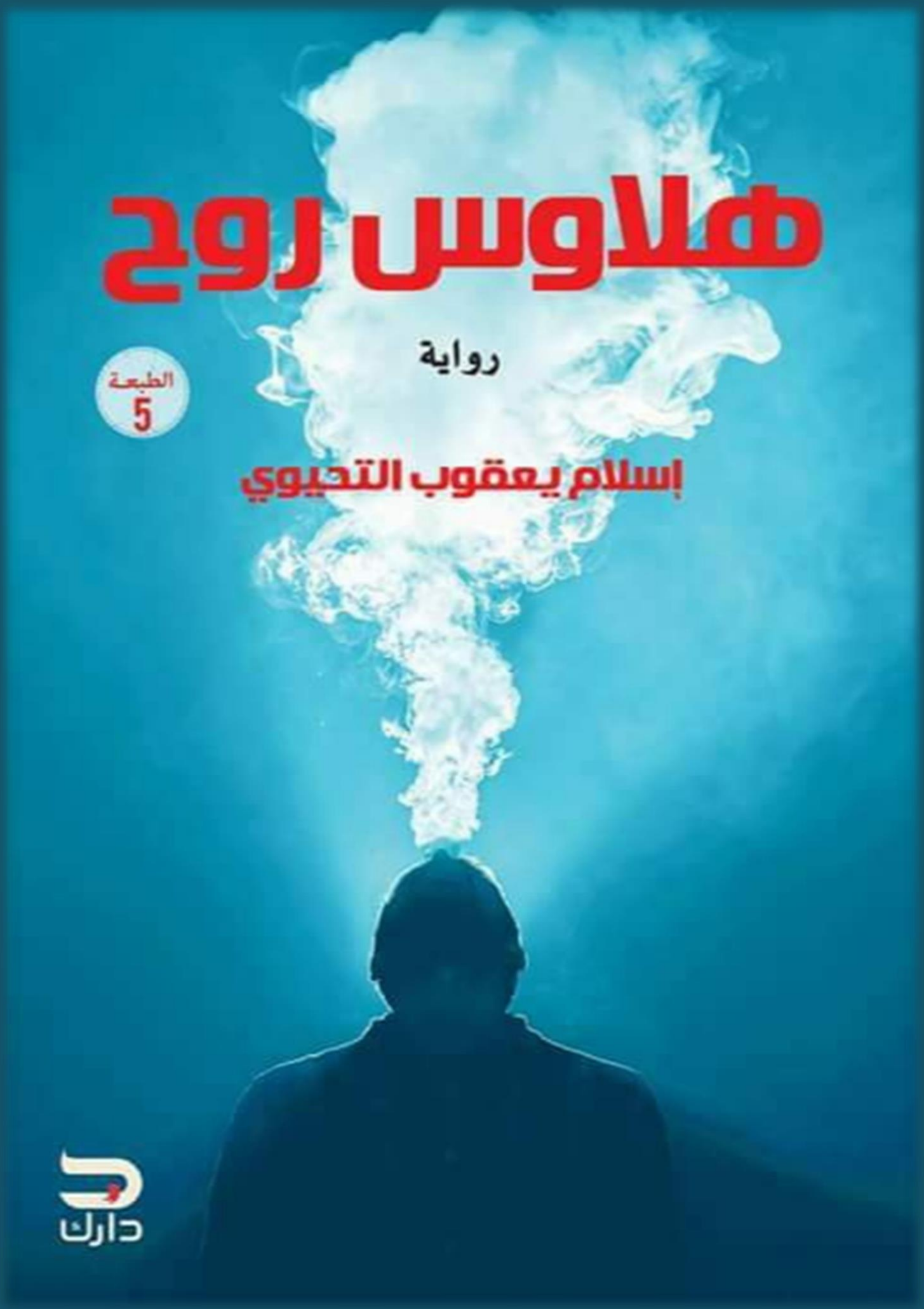
هلاوس روح
رواية
الطبعة 5
إسلام يعقوب التحيوي
دارك

إسلام يعقوب التحيوي

هلاوس روح

رواية

دارك
للنشر والتوزيع

info@darak-eg.com
02 24832669-010 27251915
51 ب شارع النزهة – من امتداد رمسيس – القاهرة.
جميع حقوق الطبع والتوزيع محفوظة للناشر.

هلاوس روح
إسلام يعقوب التحيوي
تصميم الغلاف: أسامة علام
تدقيق لغـوي- تنسيق داخلي:
www.sekoon.com

رقم الإيداع: 2017/27135
الترقيم الدولي: 978-977-6634-06-0
الطبعة الأولى: 2018

هو إهداء عمليًا بعض الشيء

أستاذ «حسن أبوسيدو».. رجل الأعمال الأردني الناجح الذي وضع الإنسانية في أبنائه فأنتج «روان أبوسيدو» ابنته التي تجهتد دائمًا لمساعدة أهلها السوريين على الحدود.. وسوريا أنتجت «مروة الإسلامبولي» من قلب دمشق لتقدم رمزًا لنجاح المرأة العربية تحت ظروف الحرب.. وللنجاح طرق مختلفة وأهمها طريقة «هبة قنديل» حيث تكافح بعملها في الإمارات بينما تجاهد في مصر بتقديم كل ما لديها للمشردين في الشوارع.. ومن شوارع الدار البيضاء في المملكة المغربية هناك «أيوب» الذي يجاهد لنشر الفكر والثقافة دون أي مقابل.. وللفكر هناك «علي عزيز» الفلسطيني المقيم بغزة وهو المتمسك بأن لحرية أرض فلسطين يومًا ويجب أن يأتي.

يحيى الشربيني.. الطفل صاحب الشعر الطويل «المنعكش».. أستنشق الأمل والمستقبل من ضحكاته.. وتزداد الضحكات جمالًا كلما زادت خصلات شعره «المنعكش» طولًا.. ربنا يخليه ويحفظه لبابا شربيني وماما نفين.

لكل منكم نمط حياة أو موقف أو قرار أو شخصية أو ابتسامة.. تجعله شريكًا أصيلًا في تلك الرواية.

لا أستطيع أن أهدي أي شيء لوالديَّ.. فأعظم ما سأصنعه في حياتي هو أقل بكثير من عطائهم لي ولإخوتي الأعزاء.

أبي هو من زرع فينا البذرة الطيبة القوية.. و كان السبب في عشقي للقراءة والكتابة بالرغم من كوني كنت طفلًا لا يبدو عليه سوى الهمجية و «الشقاوة» فقط.. الله يرحمه ويجعلني ذرية صالحة ترسل له الحسنات في قبره.

أمي هي المرأة التي تخلت عن كونها سيدة بعد موت زوجها لتتحول إلى الرجل القوي المصابر المعافر / عفاف عبد الونيس شحاتة. كانت مثالًا للأم المشرِّفة.. لتصبح رمزًا للأب المشرف.. الله يطول في عمرها المفيد لكل أبنائها.. ويرزقها الصحة والعافية.

هلاوس روح

هلاوس روح
رواية
إسلام يعقوب التحيوي
دارك

(1)

جسدٌ قد ملَّ من انتظار مَن يدفنه.. قطعة القماش البيضاء التي تلتف حول الوجه لتمنع الفك من السقوط تحوَّل لونها من الأبيض إلى الأصفر، حيث مرت أيام بدون بتغييرها.. تحول لون الوجه من الأسمر إلى الأبيض العاكس للّون الأزرق كأنه قطعة ثلج مهمَلة أمام بائع التمر في شهر رمضان.. ذبلت الجفون وبدأت العين في التحلل.

سألت نفسي: لماذا أتأمل هذه الجثة دون غيرها؟ وحينها، أفزعتني الإجابة.. فهذه الجثة هي جثتي! نعم هي جثتي.. سريعًا ما أعقبت إجابة سؤالي أسئلة أخرى: كيف أتحرك وأنا بلا جسدي؟ كيف أرى جسدي بدون عينيَّ؟ كيف أسمع صوت موتور ثلاجة الموتى بدون أذُني؟ كيف أشم رائحة جسدي بدون أنفي؟ وكيف أسأل نفسي كلَّ هذه الأسئلة وأفكر فيها وأنا بدون عقل؟

ذهبت أسئلتي بتفكيري إلى راحة بعض الشيء.. فليس هناك أي تفسيرٍ لما يحدث سوى أني ميت.. نعم أنا ميت.. وما يؤكد هذا هو أني عِشت طيلة عمري متدينًا ملتزمًا بديني.. فقد كنت أحاول دومًا التقرب إلى الله والبُعد عن شهوات الدنيا وما فيها.. وما يحدث الآن يؤكد أنني ميت ولن أُعذَّب في حياتي الأبدية.

يجب عليَّ الآن الاستمتاع بالسعادة التي أشعر بها.. سعادة العلم بأن ربي رحمني بفضله من عذاب الآخرة وسيدخلني إلى جنته.. حقًّا إنها سعادة لم أكن أتوقع وجودها من الأساس.. فكم تحملت في

حياتي من عناء لأبعد عن الشهوات المحرمة.. كم قسوت على نفسي لأبعد عن أطماع الدنيا.. وها أنا الآن في لحظة الفوز بما حققته من إنجازٍ كان من الصعب تحقيقه وأنا أعيش بينكم يا سُكَّان هذا العصر.. الآن أصبحت المتدين الذي استطاع أن يكون من المباركين برضا ربهم عنهم.. الآن فقط انتهت حروبي مع الشيطان الذي لم يكن يكفّ عن الإلحاح عليَّ لأفعل أي شيء يغضب ربي مني ويزيد من كافة سيئاتي في (اليسار) تبًّا لك أيها الشيطان.. تبًّا لخفة حركتك وسرعة أدائك وحُسن مراوغتك.. فقد استخدمتهم بقدرتك علي التخفي بين الناس والتحدث من خلالهم لتأتيني في كل مكانٍ وكل وقتٍ.

أنا الآن أمام بوابة الحياة الأبدية.. سوف أرتدي كفني ساطع البياض، سوف أدخل الخشبة حتى يحملني أحياء الدنيا على الأكتاف فيحتفلون بآخر رحلة لي على الأرض قبل أن يُدفَن جسدي فيها وتحلِّق روحي في السموات العليا قبل العروج لآخر حدود الكون.. يا لها من متعة حين أسمع وأنا بداخل الصندوق الخشبي أصواتًا تصيح بصوتٍ عالٍ: "الله يا دايم هو الدايم ولا دايم غير الله".. فهذا الصوت سيكون احتفالًا بقربي لمثواي الأخير في قبري.. ومن قبري تصبح المحطة الأخيرة حتى يوم القيامة.. ومنها إلى جنة الخلد.

لكن! أين سكرات الموت؟! لماذا لم أشعر بها؟! فمن الطبيعي أن أكون قد نجوت من عذاب تلك السكرات التي كثيرًا ما ارتعبت منها.. كثيرًا ماتخبط جسدي لدى سماعي عنها.. ولكني لم أمرّ بحلو هذه السكرات كما كنت أسعى طوال حياتي.. أين سكرات موتي؟! وجسدي! لماذا لم يدفن جسدي حتى الآن؟.. وأبنائي! لماذا لم يأتِ أيٌّ منهم حتى الآن؟ لماذا تركوني كل هذه المدة؟!.. لماذا لم أرَهم

واقفين خلف باب غرفة ثلاجة الموتى وحزن الفراق يملأ قلوبهم.. لماذا لم يدخل أحدهم من الباب حاملًا كفني ليلتف حول هذا الجسد المهمَل استعدادًا لدخول الخشبة؟.. وصفية.. صفية كان يجب أن تكون بجانبي الآن ليدور بيننا الحوار الأخير.. كان يجب أن تقبِّل جبهتي قبل تغطية رأسي بالكفن لتقول: مع السلامة يا حبيبي.. وأتوعدها أنا بأني سأزهد عن حوريات الجنة ولن آخذ منهم شركاء لها في قلبي.

سريعًا ما فقدت شعوري بالسعادة وقررت تأجيله.. فيجب عليّ ترك غرفة ثلاجة الموتى التي تأوي جثتي لأذهب بحثًا عن أولادي.. سأنطلق إليهم متعجبًا مما أفعله.. فكيف أؤجل سعادتي بفوزي بالجنة لأبحث عن أبنائي؟ وكيف يحركني الفضول البشري في تعداد الأموات؟!

سليمان، وشعيب، وسمية. أبنائي الذين أعطيت لهم حياتي.. كل ما أردته منهم فقط هو نبرات أصواتهم وهم يتلون آيات القرآن الكريم من أجلي.. أسمع دعاءهم لي في آخرتي.. أشعر بهم يُسكِنونني مثواي الأخير لأكون في ذمة الله، أن ينالوا شرف الطواف حول بيت الله الحرام.. هذا الشرف الذي لم أنَله لأوفِّر لهم حياتهم.. كي أصنع لهم مستقبلًا باهرًا يرضي عنه الرب ليلحقوا بي لآخرة خالية من جهنم. إنها رحلة العطاء من حياتي.. والآن رحلة العطاء لهم في حياتي بدأت رحلة عطاء أخرى من أجلهم، ولكن هذه المرة سأعطيهم أهم فترات مماتي.

وبدأت الرحلة حيث إحساسي بانقسامي لثلاثة! ثلاثة أملكهم جميعًا ولكن لكلٍّ منهم مصيره الخاص وشعوره المختلف..

جسدي أتركه في غرفة الموتى المظلمة

روحي تسمو خارج حدود الدنيا الملوثة

وأخيرًا نفسي وهي تتجه نحو الباب.. كانت سرعتي بطيئة.. والغريب أني عبرت الباب دون أن ألمسه، والأغرب أنه بمجرد عبوري الباب لم أرَ شيئًا على الإطلاق سوى ألوانٍ مبهجة تتحدث إليَّ بصوت جميلتي صفية لتخبرني بأني ذاهب حيث يتواجد أبنائي.. تركتها وانطلقت للدنيا بعدما تأقلمت بعض الشيء على أن أقوم بأشياء تحتاج روحًا وجسدًا.. وأنا بدونهما.

"الآن فقط أعرف حقيقة الدنيا.. بعدما دخلت عالم الموت"

❊ ❊ ❊

(2)

بعد خروجي من غرفة ثلاجة الموتى، وبعد قراري بالاستسلام لأي شيءٍ غريبٍ يحدث.. رأيت ألوانًا متداخلة.. لا أدري هل أنا مَن أقترب منها أم أنها هي التي تفعل.. ولكننا اقتربنا حتى أصبحت تحيط بي من كل اتجاه ولا أرى غيرها.. هو خليطٌ من كل الألوان التي رأيتها في حياتي ومعها ألوان أخرى لم أرَها من قبل.. ليس فيها لون واحد يسيطر على باقي الألوان، باستثناء الأبيض الساطع والأسود الكاحل! ولكن مالي أنا ومال كل هذا! فيجب أن أنفذ استسلامي لأي شيء غريب كما قررت؟.. أغمضت عيني حتى أنتظر الوصول لأحد أبنائي.. ولكني بقيت أرى تلك الألوان حتى بعدما أغمضتها.. فمن الواضح أن عدم وجود عينٍ لدي من الأساس، يجعلني لا أستطيع التحكم فيما أراه.

دارت الألوان وكأنها تتعارك.. ورأيت حياتي تظهر لي من داخلها بوضوح.. وبالرغم من أن السبب في كل هذا هم أبنائي إلا أني رأيت حياتي قبل إنجابهم، بل إني رأيت حياتي قبل أن تبدأ من الأساس حيث سنوات كثيرة سبقت مجيئي إلى الدنيا كنت لا أعلم عنها شيئًا إلا من حكايات كانت تُروى لي عن أصلي وفصلي.

أنا العبد لله الذي ما فعل شيئًا إلا لطاعته "روح الله ألماس عبد الحي" كان يلقبني أهل الدنيا بـ "روح". أما عن كلمة "ألماس" فقد كانت تغضب أبي كثيرًا حين كنت أكتبها "الماس" بدون وضع الهمزة

على حرف الألف.. وكنت أفعل هذا سهوًا منّي ولكن الأمر كان يعني لأبي الكثير.. فأبي وأمي أبناء عم.. ولما أراد جدي عبد الحي الزواج من بنت عمه (جدتي) لقي القبول وكان خبرًا سارًا للعائلة.. وكانت المشكلة البسيطة هي أن جدي "عبد الحي" استنفد كل ما يملك من أموال لبناء غرفة من الطين بجوار الغرفة التي يعيشون فيها.. فاشترى لجدتي عقدًا من الفضة ليكون (شبكة) الجواز.. رضي والد جدتي بالعقد وكان إعطاء ابنته لابن أخيه الذي يحبه أهم من أي شيء.. أما جدتي فكانت سعادتها بالغة حين لمس العقد صدرها في يوم الزفاف.. وبهذا لم يمنع ذلك العقد الفضة زغاريد نساء العائلة والجيران والمعارف.. فهم أناس بسطاء، كما أن ثمن ذلك العُقد الفضة لم يكن هينًا بالنسبة لهم.

عبد الحي وحده من أطلقت نيران القهر داخله بسبب فشله في شراء شيء ذهبيّ لبنت عمه وفتاة أحلامه، ومَن أخمد تلك النيران قليلًا هذا اليوم هي جدتي التي شعرت بأوجاع فتى أحلامها لتقول له: مسيرك تعوَّضني بشبكة من ألماس. وكان "عبد الحي" لا يعرف أي شيءٍ عن الماس سوى أنه حجر غالٍ وباهظ الثمن.. مثله مثل كل الأحجار الكريمة التي يسمع عنها.. ولكنه فرح جدًّا بفكرة محبوبته وبدأ منذ صباح اليوم التالي الأجتهاد في عمله طامحًا في شراء عقدٍ من الماس.

وبعد سنة تقريبًا حصل جدي على حقيقة سذاجته من "محمود" الطالب الجامعي الذي يذهب للقاهرة للدراسة ولا يعود إلا في إجازته.

– إلا هو الماس ده بكام يا محمود.. الجرام بتاعه بكام يعني؟

– ماس إيه يا "عبد الحي"؟

– هو إيه اللي ماس إيه! هي الدنيا فيها كام ماس؟ الماس بتاع المرمر والياقوت واللؤلؤ والمرجان؟

– آاااه قصدك الألماس مش الماس!

– وبتنطقها كده ليه يا أخويا خلاص يعني النطق داهوّن هيفرق.

– طبعًا يا "عبد الحي" الهمزة بتفرق كتير.

– طيب يا سيدي.. أأألماس ده بكام؟

ابتسم محمود بسخرية:

– ليه؟ إنت ناوي تشتري فص الألماس ولّا إيه؟

– فص إيه، لأ أنا ناوي أشتري عقد بحاله إن شاء الله.. عشان كده كنت عايز آخد فكرة عن الأسعار.. وكنت عايز أستفهم برضك هو فيه منه عيار 18 أو 21؟ أصلي ما أظنش هيبقى فيه منه غير عيار 24 بس.

– عقد إيه وألماس إيه! إحنا الكفر بتاعنا كله ما يعرفش يجيب فص صغير على بعضه.. ده ولا البشوات والبهوات يعرفوا يشتروه.. إنت بتحكي في خيال يا "عبدالحي".

رجعت نيران جدي إليه من جديد.. عناء واجتهاد للطموح بشراء عُقدٍ من الماس لم يكن إلا مجرد "هبل" –على حد وصف محمود له–.. قضى جدي ساعة من الظلام بعد أن غادر محمود؛ يوسوس له شيطانه بأنه الفقير والجاهل ليس له أي دور في الحياة سوى أن يفترس الأرض بفأسه ليجني منها المحصول الذي يأكل منه ليعيش.. كالحيوان يخرج ليصطاد كي يستطيع أن يأكل، ثم يعاشر أنثاه حتى يمرض ويموت بدون علاج.

ومن نعمة المولى أنه أخرج "عبد الحي" من كل هذا بمجرد وصوله لغرفته الطينية، فقد وجد على بُعد مئات الأمتار من غرفته أجمل خبر في حياته.

"مبروك يا عبد الحي جالك ولد"

– مبروك يا عبد الحي .. إنت جبتلي الماس.. بدل ما تجيبلي عقد ماس جيبتلي إنسان بحاله من الماس.

– إنتي عارفاني وعارفة كلمتي.. لما قُلتلك هجيبه كنت أدّ كلامي.. بس من ساعة بس عرفت ان الماس ده فوق الخيال.. سبحان الله، الحمد لله، الله أكبر.

– ما أنا كنت عارفة من بدري بس مارضتش أقولّك إلا لما أولد.. أصل أنا هرضى بالعقد الفضة على شرط..

– إيه هو؟

– ضهرك وسندك ده يبقى اسمه ماس.. عشان تبقى عوضتني عن الشبكة.

– يا ولية ما اسموش ماس.. اسمه ألمااس.

❊ ❊ ❊

(3)

أبعَد جدي "عبد الحي" "ألماس" عن الفِلاحة من صغره.. ليزرع بداخله حلم مستقبله المستنير في القاهرة.. الحلم بأن يصبح "ألماس" برَّاقًا وصلبًا كحجر الألماس الحقيقي.. أن يكون ألماس كـ "محمود ابن أبو محمود"، يتفاخر به كل أهل القرية وينتظرون عودته من القاهرة ليستفيدوا من خبراته لكونه متعلمًا ومتطلعًا و(متنور ودماغه توزن بلد).

جاهد "عبد الحي" في الفلاحة استعدادًا لتحقيق الحلم.. وعلى الجهة الأخرى جاهد ألماس في دراسته بكل مراحلها.. وكان النصيب الأكبر لجدتي الأصيلة التي كانت تجاهد معهم في واجباتهما.. وبعد نتيجة تنسيق قبول الجامعات بدأ الحلم يثمر بوضوح.. نعم.. أصبح ألماس طالبًا في كلية الاقتصاد والعلوم السياسية.. وتجمع أهل الكَفْر في حفل زفاف ألماس على حُلم العائلة بطوابير من البسطاء تحمل حقائب ألماس لتوصيله إلى محطة القطار.

استقر ألماس في سكنٍ للمغتربين مع زملائه المنبهرين من قدرته على حضور كل المحاضرات وملاحقتها بالمذاكرة بشكل (مستميت).. فقد كان ألماس لا ينام إلا ساعات قليلة.. ومع ذلك لا يفقد أبدًا قدرته الفائقة على الاستيعاب والحفظ من أول مرة.

أدهش أبي الجميع بحصوله على المركز الأول.. وحمل تلك الشهادة مسرعًا لأمه وأبيه.. وبذلك أنعم الله على "عبد الحي" بالفخر والفرحة قبل أن يموت.

"فقد مات جدي عبد عبد الحي في صدمة لجدتي وأبي.."

قام ألماس وأمه بتأجير قيراطين الأرض لأحدهم وعاد لمتابعة دراسته.. وبعد شهورٍ عاد لأمه مرة أخرى ليكتشف حينها أن المستأجر لم يدفع لأمه إيجار الموسم.. وبرر المستأجر سرقته مدعيًا بأن الأرض بها مشاكل وأنها لا تثمر.. وأمور من هذا النوع.. فأصبح ألماس وأمه لا يملكان أي أموالٍ حتى لقوت يومهما.. ولكن جدتي فاجأت والدي بعد أيامٍ قليلة:

– أنا مدكِّنة قرشين وكنت مخبية عليك.. ماتشِلش انت هَمّ الفلوس.

– قِرشين إيه اللي مدكناهم يامّا.. دا احنا طول عمرنا على الحميد المجيد وماشيين اليوم بيومه.

– مالكش دعوة وماتعملش فلحوس.. بدل ما تعملّي فيها صاحب الدماغ الكبيرة روح أحسن إتفلحس في دراستك.

– طيب على الأقل أفضل معاكِ لحد ما نشوف حد تاني يأجر الأرض وأتفق معاه؟

– وهو أنا يعني مابعرفش أتفق يا روح أمك؟! ولّا تكونش إنت الفلّاح اللي حافظ طينك بالحباية وأنا مانيش فاهمة حاجة؟! أنا اللي هدوَّر وأنا اللي هتفق.. وانت ملكش دعوة بأيتُها حاجة في الدنيا كُلّتها غير شهادتك.

– يامّا إيه اللي بتق...

– أنا مش ناقصة مناهدة ومش عايزة كتر كلام.. بكرة قبل المغرب تكون في مصر، قلبي هيغضب عليك يا ماس لو ما بقيتش زي ما أبوك كان عايز.

انتهى الحديث بإشعال الغضب في قلب ألماس لكونه مجبرًا على هذا الأمر تجنبًا لعصيان أوامر أمه.. وذهب لدراسته حتى جاء عيد الأضحى المبارك فعاد لأمه بشكل مفاجئ ليكتشف ما كان ليس بالحسبان.

فجدتي لم تقم بتأجير الأرض بل إنها كانت تزرعها بنفسها، جدتي سقطت لأن قوتها الجسمانية لا تتحمل مثل هذا الجهد، جدتي مقهورة من مصير الأرض التي ستصبح قريبًا "أرضًا بورًا"، جدتي لم يقف أحدٌ من القرية بجانبها ماديًّا حيث كانت مديونة بالفعل (حين جمعت مبلغًا لأبي من قبل)، جدتي سجينة في الذل نهارًا وفي الهم ليلًا لعدم قدرتها على تسديد ديونها، جدتي يذهب إليها بعض النساء أحيانًا ليقمن بإعطائها طعامًا بطريقة لا تجرح مشاعرها أما في الأحيان الأخرى فكانت تنام بدون طعام لأن عِزَّة نفسها تمنعها من تسول قوت يومها، وأكثر ما كان يشغل جدتي هو كيف ستجلب أموالًا لألماس ليكمل دراسته. كل هذا كان سببًا في اتخاذ ألماس –أبي– قرارًا في لحظة: ترك التعليم!

لم يكن الخبر صادمًا لجدتي.. فقد أصبحت عجوزًا غير قادرة على تمييز الليل من النهار، وما رأته في شهورها الأخيرة كان بوابة نهايتها في الحياة بشكل معنوي. وليريح أبي أمه بعض الشيء أخبرها بما خطط له:

– أنا مش هكمل السنة دي بس يامّا.. وهرجع تاني بعد كده.. سنة مش هتخسَّر يامّا.

– إنت ناوي على إيه بالظبط يا ضنايا؟

– أنا مش هعرف أفلح في الأرض لأني للأسف ما أفهمش في الفلاحة.. بس أنا عارف جزار في مصر جنب الشقة اللي عايش فيها.. هسافر له بكرة وهتفق معاه إني هبيعله عجول على عيد الأضحى كل سنة.. وعلى بال ما أرجع نكون لقينا شاري للأرض.

– والأوضتين اللي عايشين فيهم دول.. إنت ناسي إنهم في قلب القيراطين؟

– مايجراش يامَّا.. هنتفق مع اللي هيشتري الأرض إنه يدينا حتة متطرفه في آخر الأرض على الأنّاية.. ومن تَمن الأرض هنسد ديونّا ونبني أوضة صغيرة وزريبة والباقي نشتري بيه كام عجل صغير نوكلهم وناكل معاهم ونعيش، وعلى ما يجي العيد الجاي نبيعهم ونشتري غيرهم.

– هتبيع القيراطين اللي حيلتنا يا ألماس؟! هتبيع الطين يا ابني؟! الطين عرضنا يا ألماس ولَّا التعليم نساك!

– لأ يامّا ما نسَّانيش.. بس عرضنا في دفع ديونا ورفع راسنا قُدَّام الخلق.. عرضنا في قوت يومنا من غير مذلة يامّا..

– العبد في التفكير والرب في التدبير يا ابني.. توكل على الله.

❊ ❊ ❊

(4)

ونجح ما خطط له ألماس وعاد لدراسته بعد عام.. ثم مرَّت ثلاثة أعوام على ذلك.. ولكن الزريبة لم تكن قد بُنيَت بشكلٍ كاملٍ.. فقد وضع أبي معظم الطين في غرفة معيشته هو وأمه بينما أسس الزريبة بأربعة جدران لا يتعدى ارتفاعهم المتر ونصف.. وقد بدأت الشقوق تظهر في تلك الجدران.. فجمع ألماس كمية من الطين ليزيد به طول الجدران وقوتها.. وذهب إلى جارٍ يمتلك قطعة أرض ليتشري منه بعض التبن حتى يضع التبن على الطين ويتركهما يخمران سويًّا ليومين.. فيصبح الطين المخمور بالتبن جاهزًا لعملية البناء.. ومن ثم عاد إلى أمه وعجوله ليرى ما كان السبب في تغيير حياته وحياة أبنائه وأحفاده من بعده.

من بعيد كان جمع من الناس يهللون ونساء تصرخ، اخترق أبي جموع الواقفين من أهل القرية بينما تلاحقه نظرات الشفقة في عيون كلٍّ منهم، وحين اقترب وجد كل العجول غارقة في الترعة عدا عجلًا واحدًا.. لم تكن تلك هي الكارثة.. فالكارثة هي أن جدتي كانت غارقة في الترعة وسط العجول.. وقف أبي مذهولًا عاجزًا عن فعل أي شيء.. ولذلك لم يساعد الشباب في انتشال أمه من الترعة.. فقط.. جلس على الأرض وأخذ في البكاء.. مستمعًا لحديث الحاجة "نبوية" التي كانت تمر أثناء حدوث تلك الكارثة:

– كنت بغسل المواعين ولقيت العجول دشدشت سور الزريبة.. ولسه هنده على أمك لقيتها خارجة من أوضتها بتصوَّت.. العجول فضلت تزق بعضها ويوقّعوا بعض في الترعة.. أنا وأمك مسكنا العصيان وفضلنا نضرب في العجول اللي فاضلة على أدّ ما قدرنا بس ما عرفناش يا ابني والله.. العجول كانت بتجري على الترعة تبص على العجول اللي وقعت فيقعوا هُمَّا كمان برضك.. وفي الآخر ما اتبقاش غير العجل اللي انت شايفه ده.. راح وقف قُدَّام الترعة هو كمان وأمك حاولت ترجَّعه.. وقفت قُدَّامه وفضلت تزُقه لورا.. راح العجل ضارب أمك في صدرها مرة واحدة.. أمّك اتنطرت من الضربة لفوق كيداهوان ووقعت على قرن عجل من العجول اللي في الترعة.. مكنش بإيدنا حاجة يا ابني والله.. حتى الرجالة على ما اتلمت كَتْ أمك راحت لخالقها خلاص.. قرن العجل قطم وسطها في ساعتها.. يا حبيبتي يا أوم الماس يا نور عيني يا اختي

لم يتبقَّ لأبي من الحياة حينها سوى نظرته لأمه المسكينة ضحية الشقاء، فأسكن جدتي مثواها الأخير وأخذ العزاء المعبأ بالعطف من أهل قريته ذاهبًا إلى القاهرة وهو لا يملك إلا ثمن العجل الذي راحت أمه فداء له.

زملاؤه الذين سيتركون الجامعة بعد شهور وقفوا بجانبه.. فسكن معهم دون أن يدفع حصته من الإيجار.. فهُم على قناعة بأن ألماس زميلهم كان المميز بينهم وكان سيملك المستقبل بتوفقه لولا ما حدث له.

بدأ أبي المعافرة من أجل "لقمة عيش" فعمل في عيادة لدكتور ليلًا، ونهارًا كان يعمل في محل جزارة تابعًا لأحد الجزارين الذين تعامل

معهم من قبل.. ولكن بعد انتهاء السنة الدراسية جاء لسكن المغتربين طلبة جُدد من المغترين.. وللأسف لم يتعاملوا مع ألماس كسابقيهم.. ولم يروا في ألماس سوى "باشتمرجي" و "صبي جزار". فقاموا بطرده بطريقة غير مباشرة بتوجيه بعض الكلمات المحرجة بعض الشي مثل: (أهلي يا روح كل شوية يسألوني مين اللي معايا في السكن وكلهم طلبة زيي ولّا لا).

فشل أبي في إقناع الدكتور بالمبيت في العيادة.. ونفس الأمر مع صاحب محل الجزارة.. ولا يستطيع دفع "خلوّ رِجل" لإيجار شقة له حيث كان هذا قانون الإيجارات حينها.. فبات بعض الليالي في حديقة عامة.. ولم يعد يهتم بمظهره أو حتى الاستحمام، ومع ظهور علامات عدم نظافته الشخصية ترك العمل في العيادة، حيث لم يتقبل الدكتور هذا الأمر.. وبعد أن بات ليلة في قسم الشرطة بسبب نومه في الحديقة، أخرجه صاحب محل الجزارة " الجدع" ثم أوضح له الاستغاء عن العمل معه.

غادر ألماس الجيزة كلها، وتشرد في شوارع لا يعرفها لأيام حتى استقرت به قدماه في خرابة الحاج عوض.. أكل من القمامة بعض بقايا الطعام وسحبه النوم من شدة التعب.

❊ ❊ ❊

(5)

– قوم يا ابني انت مين؟! وإيه اللي منيمك هنا؟

إنه صوت أجش، عرفَ بعد ذلك أنه الحاج عوض صاحب الخرابة.

– أنا ماعملتش حاجة والله.. أنا على باب الله ونمت من التعب.

– نوم إيه وتعب إيه؟! هي وكالة من غير بواب؟

– معلش همشي حالًا أهو.. وأنا آسف حضرتك.

– آسف حضرتك!.. ده انت ابن ناس بقى!

– الحمد لله على كل حال.. أنا همشي.

– لأ ماتمشيش.

– ليه بس؟!

– إنت واكل؟

– أيوه كلت إمبارح كيس أكل كان مرمي هنا.

– مرمي هنا!.. إنت هتحسسني تاني إنها وكالة من غير بواب.

– ما أقصدش يا حاج والله، معلش أصلي مش فاهم.

– طيب تعالى أفطرك لقمة نضيفة وقولّي حكايتك إيه.

– مش عايز أعطل حضرتك يا حاج.

– حلوه حضرتك دي! هاهاها.. لا إنت تيجي تاكل معايا لقمة وترغي وتاكل دماغي بحكايتك، أنا أحب أتمزج من الدردشة ويا الخلق وأنا بضرب الحجرين بتوع الصبح.

كان الطبق الفول بالزيت الحار، مع بعض المخللات، تعرف "الحاج عوض": على بعض تفاصيل حياة ألماس.. ومع نَفَس الشيشة المعسل الذي تنفسه الحاج عوض بعمق، تحدث لأبي بالحل.. وكان يتوقع أبي ذلك.. بالرغم من كونه لم يكن يتوقع أن يكون هذا هو مصيره في يومٍ من الأيام.

أالماس الذي كان ينتظر أن يصبح سفيرًا جاء الوقت الذي يفرح فيه لأنه أصبح "زبالًا".

تعرف ألماس على "سيكو".. الحمار الصغير المولود في الخرابة قبل مجيء ألماس بأيام.. واعتبره أبي الصديق المقرب له بل والأخ الحنون حيث كان ألماس و "سيكو" من مواليد خرابة الحاج عوض.

دبَّر الله لأبي أكثر ما كان يشغله لأجل البقاء في الحياة، المسكن، وأصبح يبيت ليله على بعض الكرتون المقوى في الخرابة.. وبهذا بدأ ألماس رحلته الجديدة التي لم يكن يتوقعها أبدًا لنفسه في الحياة؛ يعمل ليأكل ليستطيع فقط أن يعيش.. وهذا حتى ظهر له الهدف الذي أعاد له أملًا يسعى إليه في الحياة: "أبرار".

"أبرار" هي الفتاة العادية.. وفي زمن كل "البنات" فيه لها مميزات تعتبر أبرار مميزة لأنها عادية! وهذا جعل أبي متيمًا بها عشقًا من الطلة الأولى.. بكل الخجل تقذف عيناها نظراتٍ حادة قوية.. بكل الحزن تطلق شفتاها ضحكات تبعث البهجة في القلوب.. بكل التواضع ترسل

حركات وجهها رسائل كبرياء.. بكل الضعف تساعد أباها في عمله الشاق الذي يحتاج لرجالٍ أقوياء، وكان أبوها عم سليم"الشيال" الذي (يلف) على الخرابات لتنقيت البلاستيك الموجود بها.. وتساعده أبرار على تقسيم البلاستيك لجزئين.. جزء مكون من القِطَع الصالحة لإعادة التدوير في مصانع البلاستيك.. وهذا يوزن ويتم شراؤه من أصحاب الخرابات ثم بيعه لأصحاب المصانع.. والجزء الثاني للبلاستيك هو الذي لا يصلح لإعادة التدوير.. وهذا يتركه عم سليم ليحُرق بعد ذلك.

كان ينطلق ألماس يوميًّا في الصباح داعيًا ربه أن يكون موجودًا في الخرابة عند وصول "أبرار" و "عم سليم".. وأثناء يومه كان يحدث رفيقه "سيكو" عنها ويطلب منه أن يدعو بنفس الدعاء

– عارف يا سيكو.. أول ما بشوفها من بعيد "بتهطِل".. هي تمرجح رجليها وهي وقاعدة جمب أبوها.. وانا عيني تتمرجح ورا رجليها رايح جاي، مع إن لبس الشغل بتاعها متوسخ وريحتها ديماً معفنة.. بس كل ماتقرب مني بحس إني دخلت الجنة وربك رزقني بحورية.

بهذه الكلمات كان يبوح أبي لسيكو عن حبه الخفي حتى فضح أمره بسبب نظراته لها.. وإتضح حينها قبول عم سليم لما كان مُلاحظًا من الجميع.. وعن "أبرار" فكانت تأخذ من نظرات ألماس قصة حبها التي تعيشها بشكلٍ لا يخلو من الالتزام بالدين والعادات والتقاليد لمجتمعها.. ومع تردد أبي في التقدم لخطبة أبرار اكتشف أن الأمل الوحيد لإخماد نيران عشقه هو: بدر..

❊ ❊ ❊

(6)

"بدر الدين علي أبو المكارم" كان ذي رتبة صغيرة في القوات المسلحة.. وأنقذته تلك الرتبة حين أصيب في قدمه في فترة شبابه فأصبح لا يستطيع التحرك بشكل سليم.. وقد كانت مكافأته من الجيش كافية لشراء قطعة الأرض المجاورة لخرابة الحاج عوض؛ فقام ببناء منزل بسيط مكوَّن من ثلاثة أدوار.. أجَّر الدور الثاني والثالث وأخذ لنفسه الدور الأول ليسكن فيه بلا أسرة.

لا أحد يعرف لماذا عكف عم بدر عن الزواج، ولكنه كان بوجه بشوشٍ لا يخلو أبدًا من علامات الراحة النفسية والسكينة.. معروف عنه فصاحته في الكلام.. يحب الجلوس مع البسطاء ويستمتع بصحبته معلّمون المنطقة ومسنّون الحي.. الكل يكنّ له الاحترام.. مكتبته التي يهتم برعايتها بشكل دائم في منزله كانت ضخمة وتضم كتبًا كثيرة في مجالات متعددة.. ولكن مَن في هذا الحي يقدر قيمة الكتب؟!.. فهي تدعو فقط للسخرية منه والتهامس عليه في بعض الأحيان.

هو "الشيخ بدر"؛ لأنه المتدين الذي يلجأ إليه أهل الحي في أي استفسار عن الدين.. وهو "المعلِّم بدر"؛ لأنه يعد المسئول عن معظم شئون الحارة بالإضافة إلى أن الحارة قد سُمّيت على اسمه في أوراق الحي.. "حارة بدر الدين أبو المكارم".. أو كما يطلق عليها أهل الحي "حارة بدر ".

و "عم بدر" لم يفكر سوى دقيقتين بعد سماع مشكلة أبي ليتحدث له ببعض الغضب:

– وانت ليه ما قُلتش من الأول.. إنت لسه فاكر تقولي دلوقتي!

– ماجاش في بالي والله يا عم بدر.

– بس ماتقولش عم.. عم إيه وهباب إيه! هوا انت خلّيت فيها عم.. أنا لو عمك فعلًا كان زماني عارف موضوعك ده من بدري.

– لأ أصل أنا كن...

– بس، وفَّر كلامك لنفسك.. اللي عملته ده هعاتبك فيه بعدين، المهم دلوقتي نشوف هتظبط نفسك إزاي.

– أظبط نفسي على إيه؟

– يعني نتكلم مع عمك الحاج سليم النهارده ونشوف هيوافق ولّا لا.

– هيوافق على إيه؟ أنا لسه ماعنديش أوض.

– وبير السلم يا غبي.. ما مدخل البيت كبير أهو.. إحنا نجيب كام حتة خشب ونظبطهم تحت السلم وآهو يبقى متوى.. ولو عمك سليم وافق إن شاء الله نبتدي من بكرة نظبطها.. وبعدين هو يعني عمك سليم ساكن في فيلا في المعادي يا خي!.. أهو راجل غلبان زينا وانت جدع وأكيد هيشتريك.

– والله يا عم بدر ما عارف أقولّك إيه.

– عم آه.. خليها بعدين بقى حكاية عم دي لحد ما أعاتبك فيها يا وسخ.. يلّا روح شوف أكل عيشك، وأنا لما يجي عمك سليم هفاتحه في الموضوع واللي فيه الخير يقدمه ربنا.

تزوج أبي من أمي بين الأربعة جدران الخشبية تحت بير السلم.. وبعد شهور قليلة تركت "أبرار" العمل مع والدها.. حيث أصبحت حبلى بي.. ولم يعد العمل مع والدها مناسبًا لها.. فجلست لتبيع الخضروات علي قفص حتى تنجبني.. ولكنها استمرت في هذه المهنة حتى بعد إنجابي؛ وعلى هذا تفتحت عيناي على الدنيا؛ تجلس أمي أمام القفص لتبيع الخضروات.. بجانبها كرتونة مفروشة على الأرض وغطاء شتوي مصنوع من"صوف العسكري" كما يطلق عليه، "وأنا بينهم.. أحاول أن أهرب من شدة البرد بأن أضع جسمي الضئيل بين الكرتونة والغطاء.. أما نظرات الناس لي بعطف فكنت لا أستطيع أن أهرب منها.. فكثيرًا كنت أحاول إخفاء وجهي بوضعه تحت الغطاء.. ولكن أمي كانت تطلب مني باستمرار أن أظهر وجهي المسكين لزبائنها كي أستعطفهم فيعطونها ثمن مشترواتهم دون فصال، حيث كانت تستخدم ميزة الأم "الغلبانة" التي تجري وراء تربية أبنائها لتتخلص من مناهدة الزبائن لها في الفصال أثناء الشراء، ينتهي اليوم بظهور أبي راكبًا عربته (الكارو) يجرّها "سيكو".. فنبدأ جميعًا في جمع البضائع الغير مباعة، وتنظيم الأقفاص على العربة متجهين للاستقرار العائلي بين الأربعة جدران.. تخبرنا أمي بأن فضلات الطعام التي أتى بها أبي اليوم بها أطعمة شهية ودسمة. فنسعد جميعا بذلك الخبر حتى ننام.

ينطلق عقل الطفل للحياة فيسأل نفسه سؤالين: مَن هو الله؟ وكيف أنجبني أبي وأمي؟

ولكني كنت مختلفًا بعض الشيء.. فقد كان سؤالي هو: أين الأموال التي يكسبها أبي وأمي؟ لماذا لا نشتري بها طعامًا ولو لمرة واحدة لنجرب مذاق الطعام من صحن لم تلمسه يدٌ قبلنا؟.. لماذا لا نشتري

ملابس جديدة لنشعر برائحة الملابس؟ وكانت أسئلتي تزيدني حيرة حتى بلغت الخمس سنوات فجاءتني الإجابة لتكن الحافز في فترة صبايا وفي تشكيل شخصيتي.. فأبي وأمي كانا يدخران كل ما يقدران عليه من أموال لتجميع أكبر مبلغ ليتم صرفه على تعليمي.. ولذلك كانت الإجابة هي/ أنا.. أنا هو الهدف الذي يدخران من أجله.. أنا الشيء الذي يصب فيه تعب أمي وأبي وتعبي وتعب "سيكو".

كان التعب والشقاء لنا بمثابة نجاح لقصة حب ألماس وأبرار.. إنها القصة التي تحتوي الحب الحقيقي وليس حب الأفلام "الأبيض وأسود" كما يطلق عليها، فالإعتماد فيها علي النجاح فقط.. من في الحي كان يتوقع أن "روح" ابن ألماس "الزبال" و "أبرار" بائعة الخضروات سيبدأ الدراسة من مرحلة أولى حضانة في أشهر وأقوى مدارس اللغات في حي مصر الجديدة.. المدرسة الذي لا يلتحق بها إلا أبناء الطبقات الراقية.. إنه حقًّا أمرٌ يجب أن يدهش منه الجميع.

فقد تواصل "عم بدر" بكل معارفه واستغل كل علاقاته كي يلحقني بهذه المدرسة حتى كان قبولي بها بتوصية من ظابط سابق في القوات المسلحة قد اهتم بأمري، وكان هذا محبة في "عم بدر" الذي كان خير الأجناد تحت قيادته.

عبرت السنين على هذا/ الشاب المعتدل في الدين الذي يمتلك "خفة الدم" واللباقة في الكلام وحُسن التعامل مع الآخرين، لم أخبئ عن زملائي أبناء الطبقة الراقية أي تفاصيل عن أسرتي.. وكنت أعده شرفًا لي أني الطالب "روح ألماس"–ابن الزبال وبائعة الخضروات–.. وقد لقي فخري بنفسي قبول لدى الجميع باستثناء قلة لم ألقَ منهم سوى السخرية التي كنت أمررها مرور الكرام.

ومن مرحلة إلى مرحلة أصبحت صاحب الدرجات المرتفعة في نتيجة الثانوية العامة وهي الدرجات التي ألحقتني بكلية الهندسة في جامعة عين شمس. واستمر التميز يتبعني بسبب لغتي الثانية الإنجليزية التي أتقنتها من مدرستي، ولغاتي الفرنسية، والألمانية، والإيطالية، وهم ما أتقنتهم من دوراتي التدريبية في إجازاتي التي لم أتوقف فيها عن الإجتهاد كما لم يتوقف أبي وأمي عن ضخ الأموال من أجلها.. أما السبب الثاني فهو: هو أني كنت أستخدم انحطاط مستوانا الاجتماعي كحافز لي في أن أجتهد أكثر لأرتقي بعائلتي. وما كان مضحك في تلك المراحل هو أني كنت دومًا الطالب الوحيد المستعد لدفع أي مبلغ مقابل أي دورة تدريبية مهما كانت فائدتها بسيطة.. وفي نفس الوقت كنت الطالب الذي لم يره أحد ولو لمرة واحده يشتري "كوباية شاي" أو "سندوتش".

❊ ❊ ❊

(7)

"شوفوا روح إبن ألماس الزبال عامل إزاي؟! المنطقة كلها بتحكي وتتحاكى بيه."

"ألماس.. هو فيه زي ألماس.. دا احنا حتى ولا عمرنا شُفناه بيلعب دور دومانا (دومينوز) على القهوة وموفر كل قرش لبيته وابنه."

"أبرار دي مفيش زيها اليومين دول خلاص.. دي كانت من الحاجات الحلوة بتاعة زمان"

"انت بتسقطلي يا روح أومك!.. يا ابن الكلب ده روح ابن الزبال فالح وبينجح بتقديرات"

"الواد ابن الذين ده بيجيب المجموع ده ازاي.. سبحان الله ده شكله معفن".

على هذه الثرثرة من سكان الحي وبعض زملائي الطبقيين عشنا الكفاح حتى أتى يوم الحصاد.. إنه نداء مراقِب اللجنة بأن نسلِّم ورقة الامتحان لأنتهي من آخر امتحان في السنة الأخيرة.. ولم أقلق مطلقًا حيال النتيجة لكوني علي ثقة من ناجحي بتقدير عام امتياز مع مرتبة الشرف كما فعلت في سنواتي السابقة.. ولكني كنت مرعوبًا بسبب ما أتوقعه بعد ظهور النتيجة.

وسرعان ما لحقت النتيجة بإعلان الكلية لطلب تعيين (معيدين) لها من أصحاب التقديرات المرتفعة.. وبدون أن أخبر أبي وأمي أسرعت للتقديم.. وبعدها بأيام قليلة ذهبت للكلية لأتأكد من النتيجة التي كنت متوقعها:

– العدد كان محدود وخلاص فيه عشرين معيد اتعينوا.

– بس دا التقدير بتاعي مخليني الرابع أو الخامس على مستوى الكلية؟

– كل واحد بياخد نصيبه.. إستنى للسنة الجاية ولو الكلية طلبت معيدين إن شاء الله تبقي واحد منهم.

– السنة الجاية؟!

– أيوه السنة الجاية.. ولو مش اللي جاية يبقى إللي بعدها.. إيه اليأس ده يا ابني.. خلي عندك إصرار.. ده انتوا جيل غريب.

بهذا لم يكن باستطاعتي أن أضع أي آمالٍ لأن أكون معيدًا في يومٍ ما.. فأنا على يقين بأن تعييني معيدًا في الكلية مجرد حلم غير واقعي بالمرة وتحقيقه من المستحيلات.. ومهما انتظرت لسنوات فلن أصبح أي شيء سوى الطالب المتفوق "ابن زبال".. أين "ابن الزبال" في طابور من الطلبة المتفوقين أبناء الدكاترة والأستاذة ومن ثم أبناء الطبقاء الراقية، ثم أبناء صغار الموظفين، ثم أبناء الطبقة المتدنية من المجتمع؟!

وحمدًا لله أني كنت سابقًا للأحداث.. وكنت قد انتشلت هذا الحلم من أمنيات أبي وأمي منذ أن كنت في الصف الأول.. فلو كانا

مهتمين بذلك الأمر كانت ستحدث كارثة حين يتساءلان عن أسباب عدم التعيين.. والأسباب ستصبح سهمًا مسمومًا في قلب أبي وأمي.. ولن يتفهما سوى أمرٍ واحدٍ.. وهو أن السبب في عدم تعييني معيدًا هو مهنتهما التي يستحقرها المجتمع وحتمًا سيشعران أنهما (الوالدان) الفاشلان المذنبين في حق ابنهما الوحيد.

وعلى كل الأحوال هذا لم يأخذ من تفكيري الكثير.. فقد حمدت الله على مرور ذلك الأمر مرور الكرام بدون أن يعرفه أبي وأمي.. ثم اتجهت على الفور لتنفيذ أحلامنا أنا وأبي وأمي التي كانت ملائمة بعض الشيء لابن الزبال عامل القمامة.. الحلم بأن أكون المهندس الموظف بإحدى الشركات الكبرى لأستمر في الاجتهاد ليلًا نهارًا مثبتًا قدميَّ في تلك الشركة حتى أصبح مع الوقت أهم المهندسين فيها.. أحلامنا بأن أمتلك الصورة الفوتغرافية لي وأنا مرتدٍ "خوذة" المهندس باللون الأصفر المشع بالفخر لي ولأسرتي ولأجدادي المكافحين.. سأبتسم من داخلها ومن حولي زملائي في الموقع لأعلن بتلك الصورة نجاح عامل القمامة، وبائعة الخضروات،آكلين بقايا طعام الناس بإنتاج ولدٍ صالحٍ وسندٍ قويٍّ يفتخرون به أمام الناس.

فمن يريد منكم التحدث لنفسه بصراحة سيعلن لنفسه أن عامل القمامة، وبائعة الخضروات ليس لهم في مجتمعنا سوى نظرتين.. نظرة سلبية وأخرى إيجابية.. النظرة السلبية هي نظرة الاشمئزاز و "القرف"، يبتعد الناس عنهم قدر المستطاع خوفًا من أمراض يمكن أن تُنقَل لهم.. يستنكرون وجودهم في الشوارع حيث المظهر الغير الحضاري.. "ألماس وأبرار" في عين النسبة الأكبر من المجتمع ليسوا إلا جزءًا

متسخًا من الشكل العام.. أما النظرة الإيجابية: فهي نظرة العطف والشفقة والإحسان.. وسواء تلك السلبية أو حتى الإيجابية.. فالاثنان ينحيان الظهر.

نعم إنه الحلم بأن يموت أبي وأمي بعيدين عن تلك النظرات.. ويشعروان ولو ليوم واحدة بنعمة "الرأس المرفوعة".

❊ ❊ ❊

(8)

سيرتي الذاتية (C.V) ثلاث ورقات مكتوب فيها دورات تدريبية وكورسات وشهادات إتقان لغات.. أنه الحبر المبعثر الذي يحمل الدقائق التي تألم فيها أبي حينما قام بأكل علبة الكشري ذات الرائحة الكريهة.. وحينها كان يتجاهل يقينه بأنها مسممة وأكل منها بعدما شبع منها الكلاب.

"إلحقوني أنا بمووووووت.. اااااه"

كلمات ممتزجة بالصراخ عبَّر بها والدي عن ما بداخله وهو يتخبط في الأرض من شدة الألم قبل أن نذهب به إلى المستشفى، وكان كل هذا لتوفير ثمن قرصين الطعمية، ورغيفين العيش وإدخار ثمنهم لما هو مكتوبٌ في هذه الأوراق.

أما الجزء الأهم من سيرتي الذاتية فهو لا غنى عنه على الإطلاق في مجتمعنا المتناقض.. إنه البدلة التيد لاموند (Tid lamond) وحذائي الـ "clarks".. لا يمتلك مثلهما أحدٌ في حيّنا السكني بالكامل.. من يراني أرتديهما لا يخطر بذهنه أبدًا أن ثمنهما كان حرق أبي ألماس مع القمامة.. فقد كان يحرق قِدرات الفول وهي مرتبة وسط القمامة ليلًا ليعطيها لأصحاب عربات الفول فجرًا ويأخذ منهم "اللي فيه النصيب".

أما عن الخداع في هذا الجزء من سيرتي الذاتية فيتلخص في:

قميص أبيض متوسط السعر، وحزام وساعة اشتريتهما من باعة متجولين في الطريق.. وجميعهم بعلامات تجارية مقلَّدة.. وقد اخترتهم بعناية شديدة لهذا السبب.. فمع البدلة والحذاء ينخدع الجميع من باقي ما أرتديه.. وهذا أمر سهلٌ في بلادنا حيث معظم الناس لا يدركون أنواع الماركات من الأساس.. هم فقط يستخدمونها بجهل ناكرين أنها مجرد "مظاهرة كدابة"

أما عن "عم بدر" فقد بدأ بالاتصال بكل من لهم علاقة بالهيئات الحكومية التي تطلب مهندسين.. واستمر في اتصالاته لفترة قصيرة حتى يخبرني بعدها بأنه لا جدوى من تعييني مهندسًا في أيٍّ من هيئات الحكومة أو أي شركة تابعة لها، فاتجهنا للهدف الوحيد المتبقي.. وهو أن أصبح مهندسًا في شركة خاصة، وخصوصًا أني مؤهَّل لذلك بدرجاتي المرتفعة وأيضًا "كورساتي" التي استفدت منها الكثير ومعهم الأمل من علاقات "عم بدر" التي ربما ستساعدني على تثبيت قدميّ في إحدي هذه الشركات.

يومًا بعد يوم أرتدي بدلتي الغالية التي كنت لا أملك غيرها، حاملًا شهادة تخرُّجي ومعها تلك السيرة الذاتية لأذهب لشركة ما طالبًا منهم أن أتوظف لديهم.. أذهب من تلقاء نفسي أحيانًا.. وأحيانًا أخرى يكون قد مهَّد لي "عم بدر" الطريق بعلاقاته المحدودة فأتجه لشخص معين في الشركة لمساعدتي.

أغادر الشركة قاصدًا منزل "عم بدر" لأخبره بأن الشركة لا تهتم بشهاداتي أو "كورساتي"، وأنها لا تطلب مهندسين للتعيين.. وأترك "عم بدر" ليستمر في عملية الإتصال بكل من كان يعرفهم أثناء خدمته ليطلب منهم المساعدة.. فأذهب إلى عشتنا الخشبية محافظًا على

بدلتي وما أرتديه وتبدأ الحلقة المغلقة: تغسل أمي البدلة ويتابعها أبي حتى يتسلمها ويقوم بفردها تحت فراش الزوجية الخاص بهما (البطانية المفروشة على الأرض).. يتهامسان معبِّرين عن قلقهما حيال تعييني.

وتدور تلك الدوائر المغلقة لشهور بدون أي جديد.. أرتدي ملابسي الأنيقة كل يوم لربما تنقذني من تلك الأسئلة التي تتجمع إجابتها فوق بعضها البعض لتكوِّن جدارًا مرتفعًا يفصل بيني وأحلامي: (حضرتك مش كاتب في ال(C.V) العنوان ليه؟)، (مدرستك اللي كنت فيها سمعتها كويسة أوي.. دي مش بتاخد غير مستويات معينة.. هو باباك شغال إيه؟)، (إنت امتياز مع مرتبة الشرف يعني المفروض تبقى معيد.. هو انت مش دفعة السنة دي؟! أنا ابن أختي دفعة السنة دي معاك وجايب جيد جدًّا وبقى معيد.. هُمّا.. ماعينوكش ليه؟)

بعد الإجابة على تلك الأسئلة الحقيرة التي تحمل الكثير من العنصرية الاجتماعية أرى التغيير في عيون من أجيبه عليها وتتحول بوادر الموافقة الي ملامح للرفض: " انت تشرفنا لو اشتغلت معانا وهخليهم يكلموك إن شاء الله".

أما عم بدر فقد أصبح ثقيلًا على معظم معارفه

"إن شاء الله يا بدر الدين أول ما تيجي فرصة هقولك".

"صدقني يا بدر أنا مأكد على مدير إدارة الشئون الإدارية هناك وهو مأكد عليَّا إن أول ما هيحتاجوا أي وظيفة هيقولي على طول".

"يا بدر أنا مهتم والله أنا مش عارف انت بتأكد عليَّ تاني ليه؟!".

"دا انت لسه قايلي من شهرين يا جدع إنت.. إنت مستعجل ليه كده مافيش حاجة بتيجي بسرعة.. اصبر شوية شهرين كمان كده ولَّا حاجة".

ومع الوقت أصبح عم بدر ليس بثقيلٍ فقط.. بل إنه أصبح منبوذًا أيضًا

– مش موجود يا فندم أقول مين اللي اتصل لما يجي.

– قوله بعد إذنك إن بدر الدين كان بيسأل عن الخدمة اللي كان طلبها من حضرتك.

– أول ما هيوصل هقوله يا فندم.

– طيب هو سعادته هيجي إمتى وأنا أكلمه تاني ويكون موجود.

– حضرتك هو مالوش مواعيد والله.

– طيب ممكن حضرتك تعرفه إني عايز أنول شرف أني أروح لسعادته في أي مكان وأقابله.

– هبلغه يا افندم حاضر.. حضرتك تأمر بحاجة تاني؟

– لا شكرًا أوي.

– مع السلامة.

لم يكن "لعم بدر" الوقت ليرد السلام ويقول: وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته.. فكم من مرة يسمع "عم بدر" ضجيج غلق السماعة في وجهه.. ويقشعر من الوجع في سماعها.

❊ ❊ ❊

(9)

يحاول الأمل أن يهرب وكأنه أسير حرب من جيش الأعداء.. فقد تعذب الأمل معنا. ظهرت بوادر المرض على أبي بعدما كان يتميز بقوته الجسمانية.. أصبح "عم بدر" يشعر وكأنه معنا في عالمنا السفلي تحت البشر حيث تيقن أن كل علاقاته ببعض المسئولين وكبار الظباط ما هي إلا مجرد عطف له كرُتبة صغيرة بشخصية محترمة وليس أكثر من هذا.

لم يتبقَّ سوى أنصاف أوراق يعطيها لي "عم بدر" بشكل متواصل مكتوب فيها عناوين شركات وأسماء موظفين لأذهب إليهم.. وأجمع أنا بعض العناوين لشركات أخرى بدون أي شخص أتجه إليه داخلها.. وبدأت أنهار رعبًا من شعوري بقرب لحظة الاستسلام.. فقد اقتربت من لحظة سوف أكون مجبرًا فيها على الوقوف أمام "ألماس" و "أبرار" والتحدث بكلمات بائسة على غرار:

"خلاص يابا.. خلاص يامّا.. مفيش أي شركة تانية ممكن أقدّم فيها.. أنا رُحت كل الشركات ومفيش فايدة".

ياااه.. أحلامٌ تسقط على الأرض من شجرة تعبنا في زراعتها منذ زمن طويل.. فأنا ما زلت شابًا وما زلت بكامل صحتي ومع ذلك أشك أني سأتحمل تلك اللحظة.. فماذا عن نبضات قلب أبي ألماس! هل

سينجح في أن يستمر في ضخ الدم بالشكل الطبيعي بعد هذا الخبر.. هل نسبة السكر لدى "أبرار" الجميلة ستظل بنفس النسبة المثالية.. و"عم بدر"؟ التجاعيد في وجهه لا تتحمل مزيدًا من الصراعات.. فماذا ستفعل تجاعيد وجهه في بعضها البعض بعد إعلان الفشل في تحقيق ذلك الحلم.

إنه حقًّا الحلم الجميل الذي تحول إلي كابوس.. كابوس حقير ، كابوس سافل.. تمامًا كالابنة الجميلة التي يرزق بها أحدهم ويعيش فقط لتربيتها ليكتشف في شبابها أنها تتحول لملحدة، أو مومس، أو خائنة لوطنها.

تتلف أوراق سيرتي الذاتية وأقوم بطباعتها مرة أخرى.. ولكن الذي لا أحد يستطيع طباعته من جديد هو قوة والديَّ وصحتهما.. أدركت ذلك بعد مرور شهورٍ أخرى متتالية بلا أي جدوى، انتصر المرض على أبي وجعله غير قادرٍ حتى على كيّ بدلتي كل يوم كما تعودنا.. فقد أبي قدرته على العمل نهائيًّا.. أما عن أمي الجميلة "أبرار" فأصبحت لا تجد من ينقلها هي وأقفاص خضرواتها لتجلس حيث تسعى لرزقنا.. ورجعت أنا أساعدها كما كنت أفعل في السابق.. وقد كنا ننقل الخضروات بعربية "كارو" تخص أحد جيراننا وزميلًا لأبي في مهنته.. وهذا بسبب فقداننا لمصدر خفة الظل الأساسي في حياتنا اليومية.. "سيكو" الحمار، الشريك المخلص لأسرتنا.. فقد أستفقنا فجأة على أن "سيكو" في عالمنا ليس بحيوان! ليس بكائن حي يشعر ويحب وينتمي! بل إنه مجرد شيء.. شيء له استخدامات وسعر وملكية.. وملكية "سيكو" لم تكن لنا.. فهو ملكٌ للحاج عوض صاحب الخرابة، وقد أعطاه للشاب الذي تولى العمل بديلًا لأبي بعدما جاء به الحاج

عوض من بلده تاركًا الفِلاحة بالأجرة لملَّاك الأراضي.. ليقوم بنفس دور أبي.. يعيش ما عاشه ألماس.. وربما يرقد في النهاية مثلما رقد ألماس.

أعلنت استشهاد حلمنا على يد طلقات نار الحياة الطبقية اللعينة المتفشية في المجتمع.. نعم يجب أن يموت هذا الحلم ولو بشكل مؤقت لإنقاذ أسرتي..

"يجب أن أرجع إلى الوراء".

في هذه اللحظة أدركت أني يجب أن أصبح مصدرًا للدخل في أسرع وقت.. فاتجهت لملجئي الوحيد "عم بدر" اصطحبته في صلاة العصر وجلسنا في الجامع لأعلن له مكاني الحالي في الحياة..

❊ ❊ ❊

(10)

– أنا دلوقتي أبقى العاطل ابن الزبال المركون على السرير مش قادر يتحرك، وبياعة الخضار اللي صحتها مش هتدوم لها لو فضلت شايلة الهم كده.. كنا بنحارب عشان ننتصر على الظروف وهدفنا إن كلمة المهندس روح ألماس إبن "عيلة عبد الحي" تبقى حقيقة.. بس دلوقتي خلاص يا "عم بدر" تغور كلمة المهندس "روح" في ستين داهية.

– صدقني يا روح إنت لو فضلت تعافر مع الدنيا بالجدعنة بتاعتك دي على طول أكيد ربنا هيكرمك وهيوفقك وهينولك كل أحلامك.

– إنسى يا "عم بدر".. إنسى.. أنا كل اللي بتمناه من ربنا دلوقتي إن ماحدش من أبويا وأمي يموت مقهور.. أنا عايز أشتري شوية راحة بال لأبويا وأمي قبل ما يموتوا بأي ثمن.

– بقولّك إيه يا روح يا ابني، الشقة اللي فوق دي عقدها هيخلص السنة الجاية وبناقص يعني الإيجار بتاعها.

– يا عم "عم بدر".. أبويا طول عمره بياخد فلوس الزبالة على إنها حاجة لله.. وأمي بتاخد ثمن الخضار وهي بتبيعه برضو على إنها حاجة لله.. معقولة يوم ما يبقى لينا أربع حيطان نحس فيهم إننا بني آدمين، نبقى برضو واخدينهم شحاتة؟ وبعدين الله أعلم مين هيعيش للسنة الجاية.. ده إحنا لحد دلوقتي مش عارفين أبويا عنده إيه.

– طيب خلاص سيبك من الأفكار اللي تحزن دي وخلينا في المفيد.. أنا لقيتلك وظيفة معقولة في الحكومة بعقد ٣ سنين وبعد ال٣ سنين إن شاء الله هتتثبت بسهولة.

– فين بالظبط يا عم "عم بدر"؟

وما كان سؤالي إلا لأرى بؤسًا في عيني "عم بدر" يكفي شعب الصومال وأمهات شهداء الأبطال في فلسطين.. تداخلت تجاعيد وجهه في بعضها البعض وكأنها ريم أمواج لبحر هائج.. اتجهت عيناه البائستان إلى الأسفل ليتأمل أصابعه وهي تجر حبات مسبحته خرزة وراء خرزة.. تهامس بالتسبيح لبعض الثواني لترتفع أصوات "تسبيحاته" بانفعال يتزايد تدريجيًّا وكأنه مريض بمرض الهلاوس السمعية.. سبحان الله سبحان الله سبحان الله سبحان الله سبحان الله.

– في هيئة البريد يا روح يا ابني.

قديمًا كان يصاب الفارس في المعركة ليصبح الأمر عذابًا شديدًا يستمر حتى موته، وكان من شرف الفروسية أن يطعن بالسيف ضربة واحدة قوية في عنقه لتنغمر منها الدماء فيموت سريعًا ويرتاح مما هو فيه إنها "طعنة الشرف".. وهذا ما يحدث معي الآن.. فواقع حياتي هو أنني غارقٌ في تلك الجروح القوية التي لا علاج لها وها أنا أتعذب في طريقي للموت.. وقد أعطاني "عم بدر" طعنة الشرف لتنهمر الدموع من عيني فأموت سريعًا.. لا أستطيع رفع يديّ لأزيل الدموع من وجهي.. وأثناء محاولاتي لرفعها جاءني "عم بدر" فاتحًا ذراعيه لأرتمي في أحضانه.

– دي مش النهاية يا روح.. دي مجرد بداية.

بوجه احمرَّت مسامه من فرط الانفعال، ابتسم وجهي غارقآ في البكاء،

– بتهون عليَّ يا "عم بدر".. دي مش البداية يا "عم بدر".. دي النهاية.. البداية كانت من زمان أوي يا "عم بدر".. كانت لما....

– ممكن تهدا شوية.

– أنا ههدا بس سِبني أتكلم.

أبعد "عم بدر" وجهي عن حضنه ومسح دموعي مستمعًا لي..

– الناس طول عمرها بتستغرب من أبويا وأمي.. إزاي عندهم القدرة دي.. شغل ليل نهار وتضحية بكل حاجة.. بس عارف أكتر حاجة الناس كانت بتستغرب منها إيه؟ أنا.. إزاي أنا بقدَّر اللي بيعمله أبويا وأمي عشاني!.. طفل، مراهق، شاب.. كان من الطبيعي إني أبقى عايز أعيش حياتي.. حتى لو أهلي ظروفهم صعبة.. برضو كان طبيعي أتمرد على الوضع ده.. أسرق فلوس دروس أو كورسات وأروح أخرج بيها.. طب لما يبقى زمايلي في المدرسة هيعزموني نسافر مع بعض ولاد على بنات ليه ما رُحتش؟ فيها إيه يعني لو كنت شربتلي جيوان حشيش ولا حتى أركب جنب عيِّل من زمايلي عربيتة وأقعد قدام ونشغل أغاني و(نروش) شوية؟ يا "عم بدر" ده أنا نَفسي كنت بستغرب نَفسي!.

– كنت مقدر تعب أبوك وأمك اللي "طافحين الكوته".. روح انت هتشتغل في هيئة البريد ومش بس كده.. إنت كمان هتنزل على التاكسي بتاع عمك راشد.. وظروفك هتبقي عال العال إن شاء الله.

– تاكسي! تاكسي يا "عم بدر"!

– آه تاكس وماله التاكس .. عمك راشد كبِر وخلاص مابقاش قادر يشتغل زي الأول.. والواد مصطفى ابنه عَيّل شمام زي ما انت عارف ومش بتاع شغل.. لما بياخد التاكسي بيتصرمح بيه هو والصيع اللي ملموم عليهم.. عمك راشد هياخد التاكس وردية الصبح وانت هتاخد وردية بالليل.

لم أنطق بكلمة وحتى جسدي كان كالجماد لا يتحرك فيه شيء.. كنت عاجزًا حتى عن التعبير.. والآن وأنا في ذمة الله، لا أرى أي فارق بين تلك اللحظة وبين ما أنا فيه الآن في عالم الأموات.

❊ ❊ ❊

(11)

فترة الضغط بالنسبة لطبيعة كان عملي في أول كل شهر.. حيث يقف طوابير من المسنين أمام مكتب البريد.. ينتظر الكل دوره ليصرف معاشه متناسين الوقت والتعب بتبادل سرد الحكايات لبعضهم البعض:

"هذه كيف سعى أبوها لتعيينها لكي تتزوج، فالمرأة الموظفة مطلوبة للزواج أكثر من غيرها من وجهة نظر بعض الرجال"

"ومدى شعور هذا بالفخر حينما جاءه خطاب تعيينه في القاهرة.. حينها قامت أمه بتوزيع الشربات على الجميع.. فهذا الخطاب كان شرفًا لأبيه المزارع البسيط لأن ابنه سيصبح من ساكني البندر"

"وهذه وما عاشته من عناء في يومٍ ما لتقنع مديرها المباشر بالتوقيع على إجازة يوم الخميس حتى تخرج مع خطيبها في جنينة الأسماك"

"وهذا قد حارب الشيطان ولم يدخل جيبه قرشٌ حرامٌ.. فدرج مكتبه كان مقفولًا: أعوذ بالله من الحرام"

"وهذه كيف جرت السنوات سريعآ معها! فقد أخذت إجازة الوضع منتظرة مولودها الأول وفجأة وجدت نفسها تساعد أبناءها في زواجهم"

"وهذا كيف كان يحمد ربه على دخله الزهيد، ولم يستنكر نعمة الله عليه، ولهذا كان ربُّه معه واستطاع أن يربي أبناءه بذلك المرتب الزهيد ويعلمهم أحسن علام"

هذه تحكي عن فرحتها بالزيادة في المرتب وماذا تخطط لتفعل بها، فقد تعودت على أن تحسب دخلها ومصاريفها بالقرش ولم يكن هناك مجالٌ للعجز"

"كيف وقف بجانب أخيه".. "كيف وقفت بجانب زوجها".. "كيف أخذ إجازة سنة بدون مرتب ليجرب حظه في الكويت".. "كيف تماسكت حينما أصيب زوجها بمرض خطير".. "ماذا فعل حينما اكتشف أن مالك العمارة الذي اشترى منه الشقة كان نصابًا وقد قام ببيعها لثلاثة آخرين".. "كيف كيف كيف...

يسردون الحكايات بطريقة واحدة في وقتٍ واحدٍ وبصوتٍ واحدٍ، ولكل حكاية حزنها الخاص.. أشعر أحيانًا أن هؤلاء نجوم في عالم التمثيل ويقومون بأداء أدوارٍ صعبة بتقنية عالية.. كلٌّ منهم يستطيع مزج الحزن مع السعادة مع لوم القدر مع الرضا فيكون الدور مبهرًا والأداء مخضرمًا، ولكن هذا ليس فيلمًا وهؤلاء ليسوا ممثلين.. هؤلاء هم أبطال الحياة على أرض الواقع.. عبروا الحياة في استقرار نسبي بدخل شهري بسيط، كل نظريات الاقتصاد تبرهن أنه لا يكفي للحياة.. ومع ذلك هم تعايشوا به واكتملت حياتهم بالستر.. حقًّا هؤلاء هم مخترِقو الواقع والمنطق.. وربما أنا في بداية حكايتي التي سأعيش فيها لأقوم بسردها بعد عشرات السنين مثل هؤلاء.

أخرج من الشغل لأصبح سائق تاكسي حتى الساعة الثانية عشرة ليلًا.. إنه حقًّا كما يقولون "هَمّ يضحَّك"؛ فبالرغم من حياتي البائسة إلا أني أضحك كثيرًا ساخرًا من نفسي.. حيث الهدف لتحقيق كيان ومستقبل المهندس العظيم الذي سيغيّر مسار عائلة عبد الحي ويرتقي بها، يتحول إلى موظف يتوسل النوم على مكتبة صباحًا في وظيفته

الحكومية ليواصل عمله كسائق تاكس بعد الظهيرة.. فأنا الآن لا ينقصني سوى الفنانة "نعيمة الصغير" لتقوم بدور "حماتي" وتطلب مني توصيلها مجانًا فأتشاجر أنا مع زوجتي الفنانة "معالي زايد" لأصبح أنا الأستاذ الفنان "محمود عبدالعزيز" في فيلم "الشقة من حق الزوجة".

المهندس روح.. كلمة تحمل كل المعاني المتضاربة.. فعندما أسرح بخيالي أجد لتلك الكلمة صفات كثيرة وعكسها في آنٍ واحدٍ.. المعشوقة المكروهة، الحميدة اللعينة.. أما أوقات التفكير العقلاني لا أرى سوى أنني بعيد كل البُعد عن تلك الكلمة وهذا ما يقوله المنطق.. ولكن على كل الأحوال أنا لم أيأس من تحقيقها.. ولن أخمد حماسي في السعي لها مهما بعدت عنها.. وسأتواصل في حمد الله على ما أعيش فيه، فالبرغم من إحساسي بالقهر من وظيفتي الحكومية السخيفة وعملي كسائق تاكسي كاسرًا كل التوقعات، إلا أن هذا يعتبر الخطوة الأهم في حياتي حاليًا.. وهي: راحة أبي وأمي.

اعتزلت أمي بيع الخضروات حسب رغبتي.. فجلست بجانب أبي في مرضه.. وبذلك أبعدت العناء والشقاء عن عشتنا الخشبية "تحت بير السلم".. وكان هذا أقل ما يمكن أن أفعله.. لأجعل من دمار مستقبلي وسيلة أرحم بها ألماس وأبرار من نظرات الناس إما بالشفقة أو بالاشمئزاز.

واستمرت الأيام والشهور على هذا الوضع حتى بدأت في حساب الشهور بين الوقت الحالي وبين يوم ظهور نتيجتي حيث أصبحت المهندس مع إيقاف التنفيذ.. ولم أكمل حساب المدة.. فقط اكتفيت بالنتيجة المبدئية وهي أن المدة بالسنين وليست بالشهور.. سنين أرى فيها يوميًّا جسديْ أبي وأمي يتآكلان من الحسرة عليَّ.

بئس التمسك بحبلٍ في نهايته كلمة: ابني الباشمهندس روح ألماس!!.. صنعنا المستحيل للوصول لنهاية ذلك الحبل.. وأصبحت بداية الحبل ملفوفة حول عنقي.. لا يجب أن أفكر في الوصول إلى حلمي في النهاية.. فقط عليَّ أن أتحرى من ذلك الحبل حتى لا يقتلني معدومًا.

❊ ❊ ❊

(12)

توقف كل شيء بعدما أرسل إلينا الموت رسالة تهديد مرة أخرى.. فقد سقط ألماس أرضًا ليدخل في غيبوبة لم يستفِق منها كالعادة برائحة العطر.. ذهبنا به للمستشفى ليكمل فيها غيبوبته.. حيث ترسَّخ في ذهني دعاء أمي الوحيد في تلك الأيام: "يا رب تقوم بالسلامة يا ماس.. ربنا يديك طولة العمر لحد ما نفرح أنا وأنت بابننا.. ونشوفه يا ماس زي ما كان نفسنا نشوفه طول عمرنا".

وبعد أيامٍ من هذا الدعاء حدث ما كان متوقعًا.. إنه الأمر الذي يوصفه الجميع بكثيرٍ من الجمل بينما أنا أرى أنه ليس هناك وصف له أدق من كلمة واحدة: اليتم.. أصبحت يتيمًا.. توفى والدي.. مات ألماس.. نعم أنا يتيم الآن.

في تلك الليلة أقنعني "عم بدر" بترك المستشفى والعودة إلى منزلنا تحت السلم لننام قليلًا حتى نستطيع التواصل بعد ذلك حيث تصريح الدفن وترتيبات وإجراءات كثيرة.. ورحلنا عن أبي بعد أن ظلت أمي ساعة تحدق في وجهه.

وبالرغم من أن أمي غادرت المستشفى بنفسٍ غير راضية إلا أنها بمجرد الوصول إلى شارعنا كانت تسير بسرعة غريبة.. منطلقة وحب الحياة يشع من كل حركة لها.. وكأنها رجعت لسنين عمرها حيث

كانت الطفلة "أبرار" بنت عم سليم التي كانت تبتهج لها الحياة بسبب انطلاقها وهي جالسة بجانبه على عربتهم الكارو.

سألها بدر:

– مالك يا أم روح بتمدي كده ليه؟

– مفيش يا حاج تعبانة بس وعايزة أروَّح بسرعة.

كان يسألها بدر محاولًا الاطمئنان عليها.. فمن الواضح أن أمي تمر بحالة هيستيرية من الحزن على أبي حتى إنها تبدو وكأنها في أسعد أيام حياتها.. وحاولت أنا التخفيف عنها بالرغم من كوني بحاجة لمن يخفف عني مثلها:

– إهدي يا أمي أبويا في الجنة ونعيمها.. إستريح خلاص

– أهدا إيه يا واد انت.. أنا حاسة إني أخيرًا مبسوطة.

– !!

– طبعًا إنت ناسي إني من هنا ورايح هقعد مع ألماس براحتي.. نحب في بعض على رواقة بقى بعيد عن الوَش ووجع القلب ده.

– بعد عمر طويل ليكي يامّا إن شاء الله.

بهجة "أبرار" وانطلاقها المناقض لما نحن فيه ليس له سوى معنى واحد وهو الهروب من واقع لا تستطيع تقبله (رقود أبي ميتًا).. فليس من السهل أبدًا على أبرار المسنة صاحبة العمر المليء بالشقاء أن تتقبل واقع رقود حبيبها وزوجها ألماس في كفن.. بينما ينتظره تراب الأرض الطاهر بعد أن أغرقته أتربة الدنيا القذرة.

وصلنا سريعًا.. ودَّعنا "عم بدر" ودخلت معها عشتنا الخشبية تحت السلم.. وزادت دهشتي وأصبح الأمر محيرًا بالنسبة لي.. "أبرار" غريبة

جدًّا اليوم.. حتى إني تناسيت موت أبي وأهم لحظات حياتي الجديدة كيتيم.. فأبرار في كامل سعادتها.. لم أرَ وجهها أبدًا بهذا التفاؤل.. ما هذا؟ ماذا يدور بداخلك يا أمي.. قامت بتغيير ملابسها أمام قطعة المرآة المكسورة التي جرحت يدَ أبي أثناء بحثه في القمامة فنظفها وأخذها.. كانت تقف أمام المرآة كالعروس السعيدة يوم عرسها.. الجلباب وكأنه أغلى فستان زفاف لعروسٍ جمالها برَّاق.. وضعت بعض المياه من الدلو على وجهها وكأن تلك المياه مساحيق تجميل تتزين بها.. شربت من الصنبور بيدها دون استعمال الكوب.

– شدي حيلك يا أمي..

– تاني! هتحسسني تاني إن فيه مشكلة؟! أشد حيلي على إيه يا منيل.. ده أنا أخيرًا مبسوطة.

غريبة كلمات أمي.. تشعرني بالخوف.. ولكنني يجب أن أتماسك لأجاريها.

– الله.. الله الله.. جميلة أوي الميّه.. أقولك.. أنا هتوضا يمكن ألحق أصلي.

– دي الساعة عشرة بالليل.. وانتِ صليتِ العشا في المستشفى.. وبعدين تلحقي إيه؟ قصدك الفجر يعني ولَّا إيه أنا مش فاهم؟

– الموت يا واد.

– موت إيه يا أمي؟!!

– هو الموت وحش يا واد يا مجنون.. الموت ده هو الحب كله.

– حلو بس بعد الشر عليكِ.. إنتي حاسة إنك تعبانة طيب؟

لم أرَ أي إهتمام لسؤالي تمامًا.. وكأنها لم تسمعه وبدأت في الحديث بطريقة متلاحقة حيث لا تعطيني فرصة لأبادلها الحديث بل ولا تهتم بردّي على حديثها.. تحدثت وكأنها تتحدث لنفسها..

– يااااه كانت أيام.

– أيام إيه؟

– على أدّ الشقا والتعب والذل والبهدلة بس كانت برضو أيام حلوة.. كان فيها الخير وكنا دايمًا حاسين بيه أنا وأبوك.. والخير كان بيقوي الحب فينا.

– الحمد لله يامّا على كل حاجة.

– أنا وأبوك ما بطلناش حب.. كنا بنحب ربنا ونحب بعض وبعد كده بقينا نحب ربنا ونحبك انت.

– ربنا يخليكي يا أم....

– بس بعد فترة كده بقينا نحب ربنا ونحب أكتر اليوم اللي هنروحله فيه عشان ناخد تمن حياتنا اللي اتبهدلنا فيها دي.

– تَمن إيه بس يامّا وموت إيه اللي تحبيه..

– أيوه ربك عنده التمن.. ربك عنده السعادة وعنده كل حاجة حلوه.. دا أنا في الجنة هبقى هانم هاهاها.. هبقى متدلعة بقى ومتهننه.. والكل هيحترمني فوق.. آه أومال إنت فاكر إيه.

– ونعم بالله..

– وهشوف وجه المولى.. عارف يا روح.. ربنا مش بيقرَف مننا.. ربنا بيحبنا.

– الكل بيحبك وبيحب أبويا يامّا.

– الناس كلها بتحبنا بس بتقرف مننا.. هقوم أصلي الأول عشان ألحق وبعدها نبقى نقعد نرغي زي ما انت عايز.

– طيب ما تفهميني مالك بس الأول؟

لم ترد عليَّ ولو بكلمة واحدة بل إن تعبيرات وجهها لم توحِ بأني أحدِّثها من الأساس.. جلست أتأملها في صلاتها.. وطال الوقت حتى مرت ساعة تقريبًا.. شعرت فيها بالخوف بعض الشيء.. فربما كل تصرفاتها نتاج لهواجس سببتها لها الصدمة من وفاة أبي.. ولكني شعرت بحالة من الاتزان النفسي جاءتني بشكل مفاجئ حين سمعت منها كلمات رددتها بصوت عالٍ أثناء الصلاة:

– السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا رسول الله...

❊ ❊ ❊

(13)

أنهت التشهُّد ثم زحفت على ركبتيها بسرعة غريبة وكأنها تنتفض لتستقر أمام الحائط الذي لا تستطيع أن تقف أمامه حيث ارتفاع السلم منخفض للغاية.. جلست ساندة عظام ظهرها المتهالكة على شقوق الحائط التي ما إن يلمسها أحد حتى تتساقط عليه.. نظرت إليها ثواني معدودة وبدأت أبادلها النظرات حتى أصبحت لا أرى أي شيءٍ حولي سواها، أصبحَتْ كالقمر المهيمن على السماء حيث تنطفئ أنوار النجوم وملامحها، يختفي السحاب لتكون مكونات السماء من إبتسامة أبرار وجمالها فقط.. وعاودت الحديث إليّ بصوت عذب رقيق أشبه بنبرات طفلة مدللة:

– إنت اتولدت هنا يا روح.. حلمنا بيك هنا.. وانت إن شاء الله هتبقى زي ما حلمنا بيك وهتبدأ من هنا برضو.

– إن شاء الله يامّا..

– بس تخلي الجنة هدفك.. إوعى يا ابني تمشي ورا أي هدف مفيش في آخره الجنة.. واوعى يبقى ليك أي هدف وانت مش واخد بالك إن في آخره النار.

بالرغم من أن أمي كانت أخيرًا تتحدث إليَّ وتنتظر مني التفاعل مع حديثها لأول مرة منذ وصولنا.. إلا أن عدم التركيز هذه المرة كان من

تجاهي أنا.. لم أكن أستمع لأمي ولا أهتم بما تقول.. أنا لا أفكر إلا في شيءٍ واحدٍ.. معنى واحد لا أستطيع أن أفهمه "الناس كلها بتحبنا بس بتقرف مننا" ما هذه الجملة التي اخترقت ذهني؟!

– هي إيه حكاية إن الناس كلها بتحبنا بس بتقرف مننا؟

– إيه مش فاهمها؟!.. ولّا مش عايز تفهمها؟ أصل أكيد حسيت بيها.

– لأ مش فاهم.

– دي الحاجة الوحيدة اللي كانت مضايقاني أنا وأبوك.. وحاولنا كتير نخليك تعيش من غيرها بس للأسف ماعرفناش.

– إيه هي؟

أمسكت أبرار بقطعة خبز من المؤكد أنها قد فسدت، فقد كانت ملقاة أعلى سور من الخرسانة موجود في عشتنا كنا عادة ما نستخدمه كطاولة، لا أعرف لم أمسكتها وظلت للحظات تتأملها بإعجاب لتبدأ في أكلها ببطءٍ شديدٍ، ثم تابعت:

– بس أنا هقولك على حاجة يا واد يا روح.. إن الناس كلها تقرف مننا ده عادي.. أنا بس اللي واجعني شوية إن انت يا ابني ما لحقتش تقرف مننا انت كمان.. بس الحمد لله.

– أنا أقرف منكم! أعوذ بالله يا أمي إيه اللي بتقوليه ده؟!

– اتوكس.. ده دي أمنية حياة أبوك من يوم ما ولدتك.

انتهت قطعة الخبز وقبَّلت يديها وتمتمت شكرًا لله على النعمة، ثم أكملت حديثها بعدما عادت كالسابق تتحدث لنفسها:

– ألماس هو الأب الوحيد في الدنيا اللي كان نفسه ابنه يقرف منه.. ومش بس يقرف منه.. ده كان بيتمنى من ربنا كل يوم يا روح إن يجي اليوم اللي يشوفك فيه بتستعر منه.

– إيه يا أمي بس اللي بت...

– يا عبيط.. كنا عايزين نشوفك حاجة تخض.. تخض كل اللي قاعدين حواليها.

نظرت للأسفل وبدأ جسدها يرتعش بعض الشيء:

– روح..

– نعم..

– أبوك نِفسه تبقى عكس الزبال.

– ماشي.. بس معقولة أقرف ولّا أستعر منكم.. أعوذ بالله.

– اتنيل على عينك.. وافهم.. أنا وأبوك بقالنا سنين عايشين وسط قرف الناس مننا.. أنا كنت دايمًا بحط جنبي "كوز" الميَّه وأنا قاعدة على الفَرشَة.. كل ما زبونة تقرب لازم أفضل أرش من الميَّه على الخضار عشان بس أخليها تحس بالنضافة.. لولا كده ماكانش حد هيشتري.. الناس ما بتقدرش تاكل أي حاجة وهُمَّا عارفين إن أم روح مسكتها بإيديها:

– تسلم إيدك يامّا.

– كُل بعقلي حلاوة يا واد.

– إنتِ حبيبي يا "أبرار" يا جميل انت.. هو أنا ليَّا غيرك انتِ يا عسل انتِ.

– أبوك بقى كان موال تاني.. ياختيييي.

قالتها بابتسامة ثم قتلت الابتسامة من على وجهها.. أغمضت عينيها كأنها تنظر لأحداثٍ ما تجري بين جفونها المغلقة ثم أكملت الحديث:

– أبوك مرة لفت نظره صاحب عمارة وهو طالع على السلم.. قالّه "ما تحطش إيدك على ترابزين السلم يا ماس.. وبلاش تخلي قفة الزبالة تتخبط في الدرابزين".

أفتحت أمي عينيها مرة أخرى وعاودت الابتسام وأكملت:

– أبوك من ساعتها وهو عايش بين الناس وكأنه مرض مُعدي.. وهو بيلمّ الزبالة من قُدام الشقق لو لقى حد نسي يحط الزبالة بَره قُدام باب الشقة بيخبط بكوعه.. ولا يمكن يرن الجرس ولا يخبَّط بإيده.. أصل إيده لو جت على الجرس ولّا الباب هيوسخهم.. تصور؟ هههه أبوك أبو قلب نضيف! هو اللي هيوسخهم

– هي الناس ممكن توصل بيها للدرجة دي؟!

– معاهم حق.. افرض صاحب الشقة ولّا حد من اللي ساكنين رن الجرس ولّا خبَّط على الباب.. ينفع يلمس نفس الحتة اللي الزبال لمسها.. وساخة وعفانة وأمراض.

– لا حول ولا قوة إلا بالله.

– يا ابني ده في ناس لما بتديله الشهرية بتديله الفلوس بالظبط عشان ما ينفعش تاخد منه باقي.. ولو ادوله فلوس ورقة واحدة مبلغ على بعضه ما بياخدوش منه الباقي.. مش بيسيبوه حسنة لأبوك! هُمَّا

بيسيبوا الباقي عشان ما ينفعش ياخدوا منه ورقة كانت معاه!.. معقولة يعني الواحد منهم ياخد فلوس عبارة عن ورق كان موجود في جيب ألماس الزبال المتوسخ.. أكيد الورق هيبقى متوسخ زيه.

– سبحان الله مع إن ورقة الفلوس اللي في جيب أبويا الزبال هي نفس الورقة اللي ممكن تتحط في جيب رئيس الجمهورية.

– هو رئيس الجمهورية بيحط فلوس في جيبه أصلًا يا مجنون إنت.. هاهاها.

لم أفكر في قسوة ما تتلوه أبرار لي.. حاولت فقط استخدام مداعبتها لأقوم بالتهوين عنها:

– على رأيك ده زي ما بيقول عادل إمام "ده بيركب ببلاش" هاهاها.. بس انتِ برضو قُلتِ بنفسك إن أبويا عنده أنضف قلب.. وانتِ كمان يا أمي عندك أنضف وأطهر قلب.

– أنضف قلب قُدَّام ربنا.. وأزبل جسم قُدَّام الناس.

– يامّا طظ في الناس.

– متهيألك.. إوعى يا ابني تصدق إن فيه حد ما بيفرقش معاه الناس.. الناس جزء من حياتنا يا روح.. موضوع إن حد مايفرقش معاه الناس ده كله كلام هجايص.

– يامّا إن شاء الله هنبقى...

قطعت حديثي ورفعت يديها في وجهي:

– بس بقى.. إنت هتخليني أتكلم في حاجات مضيقاني وأنا مبسوطة ومفرفشة.

– ماشي يا عم المفرفش يا عسل انت.. بس معنى إنك مفرفشة إنك مطمنة على أبويا.

– آه أومال إيه.. خلاص متأكدة إني هوصل لأبوك بالسلامة.. ومش هنتفارق تاني.

– !!

– عارف.. انا مش ندمانة غير علي حاجه واحدة بس.

– إيه هي؟

– من كتر الشقا والسعي عشان ننجحك بطَّلنا أنا وأبوك نحضن بعض.. ماكانش فيه وقت.

– يا سلام على الرومانسية.

– يا واد دي مش رومانسية.. إنت دماغك بتروح للوساخة على طول

– هاهاها.

– ده إحنا كان نفسنا ناخد من بعض شوية حنية.. حنية.. وسكن.. ومودة.. الأحاسيس اللي ربنا حطها جوانا عشان نعيش عليها وتهون عليَّا وجع قلب الدنيا والبني آدمين.. وللأسف إنت نفسك اتحرمت من كل الحاجات دي.. ماكناش بنحضنك إنت كمان.. معلش يا ابني ماكانش فيه وقت والله.. وأنا لو كنت أعرف إن كل تعبنا هيروح على الفاضي ومش هنعرف نشوفك زي ما اتمنينا بسبب القذارة اللي في الدنيا كنت هشيل من دماغي التعب والشقا وكنت هفضل أحضنك أحسن.

– لسه معاكي العمر كله تحضنيني فيه ياما.

– خلاص بقى انسى.. مع إن حضنك ده أكيد حلو أوي يا واد يا روح.

– إحنا فيها أهو.. يلا احضنيني دلوقتي.

– مش وقته، إجري بس هات علبة الكراميلا.

– إشمعنى؟

– هاتها يا واد بقولك.. يلّا اخلص.

أحضرت لها علبة الكراميلا من أسفل الركن الذي نضع فيه ملابسنا.. ولم أفتحها.. فأنا أعلم أهمية هذه العلبة الصفيح حيث أنها تعتبر خزينة أسرتنا وبها كل الأوراق الهامة الخاصة بنا.. ولكنها لم تُخرِج لي منها مستندًا أو أي شي مهم.. بل إنها أخرجت ورقة تالفة مطبقة بحكمة في أسفل العلبة.. وبعدما فتحت الورقة تبين لي أنها مجرد ورقة مستهلكة مقطوعة من كتاب قديم! ما الذي أتى بها لهنا؟ ولمَ تحتفظ أمي بها؟

والأهم هو: لماذا تنهال الدموع بكثافة من عينيّ أمي الآن.. لمَ ينتفض جسد أمي هكذا؟

– مالك ياما؟

– بس اقعد ساكت واسمع كويس.

– سامعك بس اهدي.

– طيب ركز بس في الورقة دي كده.

التقطت الورقة من يدها وكلي شغف لمعرفة ما بها.. ولاحظت خطًّا عربيًّا قديمًا وكأنها مكتوبة باستخدام أقلام الحبر من قرون سابقة.. ولكني لم أستطع القراءة لاهتمامي بحديث أمي لي.

– دي كانت أول مرة أسرق في حياتي.. سرقتها من كتاب بتاع عمك "عم بدر" يوم سبوعك.. ما عملناش سبوع.. هو عزمنا أنا وأبوك وكام واحد من أهل الحتة.. وآخر اليوم بعد ما الكل مشي فتحلنا كتاب عنده كان قديم أوي ومجرب.. فهمنا اللي مكتوب في الصفحة دي وأبوك فهم بسرعة.. أنا اللي فضلت ساعتين عشان أعرف أفمها.. وفي ساعتها قطعتها وخبيتها واحتفظت بيها.. ابقى اعرف من أبوك بقى بقيت التفاصيل.. أنا ما عنديش وقت.

– أعرف من أبويا إزاي؟! ووقت إيه يامّا ما احنا قاعدين أهو.

– خلاص افهمها إنت لوحدك..

– !!

– ضيع بقى الوقت.. يلا يا روح يا حبيب قلب أمك.. إقرا عليَّ اللي في الورقة.. عايزة أسمعك وانت بتشرحها.. أنا عارفة إنك بتفهم بسرعة ومخك كبير.. بس برضو عايزة أتأكد بنفسي إنك فاهم كل كلمة فيها.

نظرت للورقة وقبل أن أبدأ في التمعن بها صاحت عليَّ أمي بصوت قوي وخشن:

– روح.. إنت عمرك ما زعلتني لا أنا ولا أبوك.. إنت ربنا هيرضيك يا ابني.

ابتسمت بعينين مفتوحتين لدرجة قد تجعلك تراها ابتسامة شريرة، لكنها لم تكن كذلك.

عظيمة قطرة المياه فهي تعبُر الجبال بخطواتها المنتظمة.. تخترق الرياح مهما كانت رياحًا جبارة.. متجاهلة لأي صراعٍ بين الشمس

والقمر.. إنها تستطيع بذلك أن تهبط إلى الوادي الكبير لتصنع نهرًا خالدًا.. شكله عظيم وأهميته أعظم.

فلماذا لا تعبر العمر بخطواتٍ منتظمة.. تخترق الظروف مهما كانت ظروفًا جبارة.. متجاهلًا أي صراعٍ بين الخير والشر.. إنك تستطيع بذلك أن تهبط إلى الحياة الكبيرة لتصنع مستقبلًا خالدًا.. شكله عظيم وأهميته أعظم.

جذبتني تلك الكلمات.. شعرت وأنها أهم ما قرأته في حياتي.. وعليَّ أن أكرر قراءتها أكثر من مرة لأستفيد منها بشكل كامل.. ولكن كيف أهتم بأي شيء بعدما رأيت ما رأيته حينما رفعت عينيَّ من على الورقة ونظرت إلى أمي.

أمي لا تتحرك.. أمي تنظر للأعلى قاصدة سماء المولى العلي العظيم.. ويقف بينها وبين السماء ذلك السلم الذي عاشت أسفله طيلة عمرها.. "أبرار" ماتت.. "أبرار" ماتت..

– أبرار.. "أبرار".. "أبرار" إنتِ مُتِّ؟ أبرار..

قومي يا "أبرار" ما ينفعش تموتي، أستغفر الله العظيم ما أقصدش..

أنا بس قصدي إنك تحضنيني.. إنتِ نسيتِ تحضنيني.. والله نسيتِ يامّا، إنتِ مش قولتي كنّا مشغولين بالتعب والشقا ونسيتِ تحضنيني.. يبقى تحضنيني، طيب بُصي انتِ بس ماتموتيش دلوقتي وأنا هنام في حضنك شوية صغيرة، يعني مش شوية صغيرة أوي.. لا ومش كتير، أقولك على حاجة.. أنا بس هنام في حضنك وأروح في النوم لحد أذان الفجر.. حتى نقوم نصلي مع بعض، نصلي مع بعض ياما وبعدها موتي براحتك وأنا هعرف الناس انك موتي.. أنا عارف إن إكرام الميت دفنه بس معلش ما جتش على الكام ساعة دول، ولّا عايزاني أعرف الناس

دلوقتي وأدفنك على طول؟ لا.. مش هينفع.. انا ليا حق في حضنك ياما.. ومش هقدر أعرَّف الناس دلوقتي يامّا.. خديني في حضنك الأول..

أخيرًا استطاعت الدموع الهروب من سجن جفوني.. جاءتني كل معاني السعادة في آنٍ واحدٍ.. أطفأت نور غرفتنا الخشبية.. نظرت لأمي الجميلة أبرار متأملًا نعومة وجهها.. مسحت بعض العرق من على جبينها بيدي ثم قُمت بفرد جسدها.. أدخلت خصلات شعرها السحري داخل حجابها الخاص بالمنزل والنوم "الإيشارب" فهي عادة ما تقوم بفعل ذلك قبل نومها.. جئت بجانبها الأيسر للأعلى لتكون نائمة على جنبها الأيمن.. ومن ثم حشرت جسدي بجانبها وأغرقت نفسي في حضنها الدافئ بعدما أغلقت عينيها، أزعجني في البداية فكها حيث سقط فشعرت بها ميتة.. ولكني سريعًا ما احتويت وجهها بالكامل بكفيَّ فأصبح فكها مقفولًا بإحكام بواسطة ذراعي.. أصبحت أسمو فوق كل المشاعر الإنسانية.. أنا أسعد من ممتلك كل شهوات الأرض ونعيمها.. فها هي أمي الجميلة "أبرار" أحن وأبدع نساء الحياة تمنحني أحضانها بعدما منحتني صحتها وشبابها وعمرها.. وها أنا أعطي أبرار حضني الحنون كما قالت..

– يا أحضانك الجامدة الحنينة يا أبرار يا موزة يا عسل إنتِ، بقولك إيه يامّا.. ما تحكيلي الأول حدوتة قبل ما ننام، هههههههه سامعك وعارف إنك بتقولي: حكاية إيه يا واد اتخمد وانت ساكت، حاضر يا ستي هتخمد وأنا ساكت آهو.. تصبحي على خير.

****

حلم سعيد ومريح يقتحمه الذعر والخوف والكآبة!.. أو كابوس بداخله الشعور بالتفاؤل وكل أحاسيس البهجة!.. أو رؤية من الله يتخللها الشيطان بوقاحته المعتادة!.. لا أعلم أيًّا منهم كنت أعيشه في حضن أمي المثابرة الحية الميتة.. صاحبة القلب الطاهر والجسد المتسخ بفعل شقائها.

– قوم يا روح يا ابني.. لا حول ولا قوة إلا بالله.

هذا صوت "عم بدر" الذي أيقظني من أجمل ساعات عمري وأكثرها غرابه على الإطلاق.

– أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.. قوم يا ابني حرام عليك كده.. شد حيلك يا حبيبي وقوم.

نهضت من حضن أمي ناسيًا أن ذراعي كان يمنع فكها من السقوط وأنني كنت واضعًا يديها على كتفي.. فمع نهوضي سقط كفي أمي وذراعاها ليقع ذراعها أرضًا ويسقط فكها للأسفل مرة أخرى.. أصبحت بوجه خالٍ من الروح وأسنان منكمشة وفك منفتح على مصراعيه.. في هذه اللحظة فقط أدركت أني كنت أعيش في أحضان جسد بدون روح.. فأمي قد رحلت لربها.. وأعلنت لنفسي وفاة الجميلة "أبرار".. أمي ماتت.

– الباقية في حياتك يا ابني.. قوم قوم.

– في حياتك الباقية يا عم "عم بدر".

خرج "عم بدر" ليخبر الناس وقمت أنا بزحزحة جثة أمي وتغطيتها بعد أن ربطت فكها بمنديل لها.. وبدأت أحداث دنيوية تقام أمامي بواسطة أشخاص وأشياء وأصوات.. وقد كنت أشارك في بعضها ولكن بجسدي فقط.. أما أنا فكنت فقط مجرد مشاهد.. أحضروا المغسِّلة

لتقوم بتغسيل أمي، وأحضروا الصندوق الذي سيحتوي جسدها الذي أفنته عليّ كما أفنت عمرها،جاءت العربة التي ستنقلها إلى مثواها الأخير.

– جاهز يا ابني نتوكل على الله؟.. جثة أبوك جاهزة هناك.. هناخد المرحومة ونعدي على المستشفى ناخد أبوك وندفنهم سواء.

أصوات "كلاكسات" السيارات، أناس ضاحكون في الشارع، وآخرون شاردون، وآخرون يرتدون السواد.. حانوتي يقف أمام المقبرة ينتظر خروج جثة أمي وأبي كل منهم من خشبته.. دفنت الأجساد وأغلقت القبور.. بدأت أرشّ المياه على التربة بعد أن انتهينا. أيادٍ تربّت على كتفي تواسيني، أناس يقبلونني.. شمس أوشكت على الغروب.. عزاء مقام وجاهز لاستقبال الناس.. أناس يوزعون المياه والقهوة.. صوت قرآن يملأ الأرجاء.. وانتهى كل شيء.. وليس عليّ غير أن أعود لـ "بير السلم" وحدي

ضاعفت من نوافل العبادة لأعوام.. بعدما أيقنت أن كل أحلامي وأحلام أسرتي وعائلتي كانت مجرد طمع دنيوي وجشع إنانسي لا أكثر ولا أقل.. وعشت بجانب الحائط مكتفيًا بأقل مما يمكن تحقيقه من أي هدف قد أتمناه.

❊ ❊ ❊

(14)

نجاحاتي بعد عشرين عامٍ تقليدية بعض الشيء.. فقد أصبحت على يقين تام بأني اخترت الزوجة المناسبة لي.. إنها زوجتي الصالحة صفية.. وأبنائي هم: سليمان، وشعيب، وسمية.

صفية، هي حبيبتي التي تتأقلم بحياتها حيث أتجه أنا بحياتي.. لا تعترض على شيء أفعله.. كانت منذ أن عرفتها وما زالت.. لا تريد سوى العيش في ظِل رجل طيب يحنو عليها.

سليمان / ابني الأكبر.. جاء للحياة وأنا في عشتنا الخشبية التي ورثت الحياة فيها من أبويّ رحمهما الله.. وكان هو سبب الرزق في حياتي حيث لم يتم عامه الأول إلا وكنا في شقة إيجار قديم بسيطة في حينا.. فالعمل كسائق تاكسي مع وظيفتي ووجود زوجتي المكافحة الصبورة كان من الطبيعي أن يحقق لنا ذلك المراد البسيط.. وسليمان كان يزداد ذكاء يومًا بعد يوم.. ذكاءً ملفتًا لانتباه كل من يعرفه.. هو الابن السابق لسنه.. رزين وهادئ ولكنه قوي، وللأسف أحيانًا عصبي.. بإصراره وتغذية عقله بقراءة الكتب التي علمته إياها.. ربما يسعى لتحقيق حلمي الذي فشلت فيه.. ولكني في حقيقة الأمر لم أساعده ولم أحمسه ولم أجعله يعتقد للحظة أن هذا الأمر يهمني.. كنت أخاف أن يحمل مسئولية تحقيق هذا الحلم لي فيحمل الهم كما حملته من قبل.

شعيب، ابني الأوسط هو أكثر أبنائي إزعاجًا لي.. فبرغم خفة ظله وشخصيته المتطلعة إلا أنه متمرد محترف.. لا يكف عن التمرد في شتى الأشياء من حوله.. ويساعده على ذلك أنه سريع البديهة.

سمية.. هي البسيطة الطيبة ربما لحد "السذاجة".. متواضعة وأحيانًا ضعيفة.. والأهم أن بها الكثير من ملكة جمال حياتي أمي "أبرار" رحمها الله.

رأيت العمر يجري بي والأحق الآن لصحتي وما تبقي منها هو أن أستثمره في رعاية أبنائي.. والأهم أن يكون لدي كثيرًا من الوقت لأزيد من صلواتي.. ولذلك اعتزلت العمل على التاكسي.. فهل يصح أن يكون التقرب لربي بإقامة الصلوات الخمس فقط.. أبهذا أذهب للجنة.. لا.. فالجنة تحتاج للمزيد من الصلوات.. تحتاج إلى أن أعود للقراءة من جديد ولكن للكتب الدينية فقط.. أنا لن أتخلى عن آخرتي ولن أتقبل مجرد احتمال ولو بسيط أن أكون من خاسريها.

"الصبر مفتاح الفرج" هذا ما زرعته في أبنائي.. الرضا.. الزهد.. النظر للنصف المليء من الكوب.. وهذا حتى أصبح سليمان موظف في شركة قطاع خاص وتزوج من ابنه عائلة متوسطة الحال وهو مستقر في حياته بالرغم من بعض مشاكل الفقر التي يواجهها الجميع.

وشعيب الذي أتعبني كثيرًا قد استقر به الوضع للإقامة في تركيا.. فقد كان يركز كل طموحه في الهجرة إلى أي دولة أورُبية.. وهذا ما جعلني أغضب منه كثيرًا.. حتى كانت ترتيبات المولى عونًا لي.. فقد جاءته وظيفة في المملكة العربية السعودية.. وبالطبع كان شعيب غير راضٍ.. فالفارق كبير بين الهجرة إلى دولة أورُبية وبين الإقامة بكفيل في دولة عربية.. وبعد شهور أكمل المولى نعمه عليَّ بأن بعث لشعيب

من يطلبه لوظيفة في تركيا.. وقد كان شعيب فرحًا بذلك الأمر.. حتى إني لم أرَه راضيًا عن حياته ومستكينًا نفسيًّا لهذه الدرجة الكبيرة إلا حينما عاد من السعودية ليستعد للانطلاق إلى تركيا.. وأنا أيضًا كنت في سعادة غامرة.. حيث أن دولة تركيا أوربية ولكنها أيضًا دولة إسلامية مما يطمئنني على ابني المتمرد.

سمية ورثت مني حب الاعتكاف لوجه الله.. فوافقت بسهولة على أن تتوقف عن إكمال تعليمها.. كما وافقت بسهولة على أن تتزوج من كامل "الكبابجي" الذي يمتلك مطعمًا كبيرًا ومعروفًا، متدين وخلوق ولا ينقصه شيء ، وقد دخل بيتنا من بابه بعد أن سمع عنها " كل خير" من أهل الحي.

كلمة مشاكل لم تكن موجودة في حياتي.. أنا الراضي بكل شيء.. باستثناء أمرٍ واحدٍ لا أعتبره مشكلة.. ولكنه كان يزعجني كثيرًا.. وهو إحساسي الدائم بأن أسرتي غير راضية عمّا أفعله.

ومع كل هذا الاستقرار الذي صنعته لهم ومع كل محاولاتي الدائمة لضخ نعمة الحمد والشكر فيهم.. إلا أنهم دائمًا يريدون المزيد.. وللأسف هذا المزيد الذي يريدونه منّي يتعلق كله بالدنيا وأطماعها.. فأسرتي غير مقتنعة بنعمة البذرة الطيبة التي أقدِّمها لهم حيث أتقرب من الله بكل الطرق ليلبي دعواتي لهم بالصلاح في الدنيا والنعيم في الآخرة.

وهذا كان آخر ما أتذكره عني وعن أسرتي.. وهو إحساسي بأني أعيش آخر أيامي بعد أن اخترقت عمري متمسكًا بتديني والتزامي.. لا أتذكر أني كنت مريضًا ولم أشعر بأي ألم.. ربما أعراض عجز بسيطة طبيعية لرجل تخطى الستين وليس أكثر من هذا.

❊ ❊ ❊

(15)

والآن أعود إلى نفس حيرتي التي أندثر فيها منذ أن شعرت بنفسي ميتًا دون أن أرى سكرات موت، وحتى بدون أن أتذكر آخر أيامي وكيف توفيت.

الآن تأتيني المعلومات وكأن الملائكة يضعون أمامي التقارير عن مستجدات الحياة بعد موتي والخروج منها.. أنا في شركة سليمان ابني.

أراها بعين فأرٍ متسلقٍ أعلى الحائط في زاوية السقف.. كانت الصورة مشوشة بعض الشيء.. وتدخل ذهني معلومات عن سليمان كنت لا أعلمها قبل وفاتي؛ سليمان يصلي كثيرًا في أوقات العمل، بل إنه لا يهتم بوظيفته من الأساس.. معروف لدى رؤسائه ومديريه وكبار موظفي الشركة أنه الموظف الكسول المتمسح في التدين.. الموظف المسيء للإسلام.. الموظف الذي ينتظر الجميع خبر طرده من الشركة لعدم استفادتها منه.. للأسف سليمان لا يتمرد إلا على أمر واحدٍ فقط.. وهو أنا.. هو ناقم عليَّ كأب ليس له أملاك ليعمل هو على تضخميها.. سليمان يريد أن يعطي الأوامر والقرارات وليستطيع تقبل فكرة أن يكون الموظف الذي يأمر وينهي.

وفجأة وجدت نفسي في غرفة رئيس مجلس إدارة الشركة.. ورأيته ممسكًا بملف ابني سليمان ويتحدث لأحد الجالسين معه:

– لأ خلاص كده سليمان ده مش هينفع يكمل أكتر من كده.

– بس ده مش سبب سعادتك.. هو كل اللي طلبه إنه ياخد إجازة عشان وفاة أبوه.

– إحنا مالنا إحنا ومال وفاة أبوه.. الكلام ده لو كان هو بيشيل الشركة من الأول.. بس إحنا آخر السنة.. ومش من حق حد ياخد أي اجازات مهما كان السبب وبالذات سليمان ده.

– ما هو التزم باللي قُلته عليه سعادتك.. هو فعلًا سافر فرع الشركة في دمياط زي ما قُلتله وماراحش لأبوه.. ده سعادتك أبوه لحد دلوقتي مرمي في المستشفى، ده محدش في المستشفي يعرف حاجه عن أبوه.

– وده فين بقيت اخواته ده.

– مش عارف سعادتك.

– عيلة زي دي توقع منها أي حاجة.. تلاقيهم كلهم أندال زي أخوهم.

– وأخوهم ندل في إيه ما هو نفذ كلامنا آهو.

– ما هو مجرد إنه نفذ الأوامر وماراحش يدفن أبوه يبقى ده فعلًا عيّل زبالة.. وأنا ما أمضمنوش في الشركة عندنا.. يمكن لو كان ساب الشغل خالص وراح لأبوه كنت هتطمنله أكتر.

– يعني سعادتك هنعاقبه بعد ما باع أبوه عشان يحافظ على الوظيفة.

– إحنا مش هنعاقبه.. إحنا هنفصله خالص.

قالها وهو يتحرك بالقلم على آخر ورقة في ملف سليمان كاتبًا كلمة "يُفصل بمجرد رجوعه من المأمورية".

كيف سيكرمني ابني سليمان ويضعني في قبري؟ هذا السؤال الملغي من حساباتي الآن.. فالسؤال الأهم هو: كيف سيعيش سليمان؟

❊ ❊ ❊

(16)

أين دموعي وأين تقع؟ لا أعرف.. جسدي ما زال هناك في غرفة ثلاجة الموتى وأنا أتحرك بدونه.. وحتى دموعي الوهمية أشعر بخروجها دون أن أعرف أين تسقط وأين تستقر.. ينبض قلبي غير الموجود وترتفع قوة الشهيق والزفير في رئتيّ اللتين لا وجود لهما.

سرعة قصوى قد لا تستطيعون تخيُّلها.. ارتفعت بها لأعلى.. لأخترق أساس المبنى المسلح في أقل من لحظات وأصبح أعلى السحاب فأرى الكرة الأرضية أمامي ومن ثم باقي كواكب مجموعتنا الشمسية.. رأيت الشمس بجانبي لا تستطيع إحراقي كما هو معروف.. لأجد نفسي في أحد الأماكن على كوكب الأرض.

وتخلل إليَّ مرة أخرى كل ما أحتاجه من معلومات عن مكان تواجدي.. إنها أمستردام.. أكبر مدن هولندا.. تقع في شمالها.. أكثر من نصف المدينة مناطق ريفية، أما عن الجزء المتبقي من المدينة فهو جنة شيطانية على الأرض.. إنهم الأمستراميون.. أغلبهم مهاجرون إليها وأغلب المهاجرون من السفارديم حيث وصل نسبة اليهود السفارديم إلى 10% قبل بداية الحرب العالمية الأولى.

وأنا بالتحديد في ملهى ليلي تسطع الأضواء منه لتنير أسطح ناطحات السحاب.. ليس له انطباع محدد، مكان مخصص للرقص

علي الموسيقى ذات الرتم السريع.. تنفر فيه الشباب بأجسامهم وكأنهم يحتضرون قبل الموت إثر صاعق كهربائي.. ومكان مخصص للرقص الكلاسيكي على موسيقى شاعرية ناضجة وهو المكان الأكثر هدوءًا.. وعلى عكسه تمامًا هناك أكثر القاعات صخبًا حيث ترقص فيه عاهرات يعملن بالمكان وكل منهن تتلوى أمام الجالسين على أصوات الموسيقى الإلكترونية التي تهيمن على آذان الحاضرين.. تنسلّ ملابسهن من عليهن عن قصد لتصبح كل منهن حية عارية تفتخر ببصق سمها في أذهان الحضور.. أما الأغرب هو القاعة المكتظة بالزائرين من كل الأعمار.. كراسي خشبية منظمة في شكل مربعات وشاشات عرض ضخمة بعضها يعرض أفلام بورنو والبعض الآخر يعرض حفلات أغاني تقليدية.. زخم عند الباب وفي الأعلى يافطة مضيئة بألوان متعددة مكتوب عليها (drugs corner) إنها القاعة الخاصة ببيع الكثير من أنواع المخدرات التي يتم بيعها وترويجها بشكل قانوني.

أما أنا فأرى كل هذا من مكاني في قاعة مغلقة بها (حمَّام سباحة صغير).. بعض شاشات التلفاز تعمل على قناة واحدة تذيع برنامجًا كوميديًّا ساخرًا.. أتجول أنا في مسافة لا تتخطى الملي متر مربع فوق منضده بها ألذ الأطعمة ومن حولها أسرة تلهو وتضحك.. يأكل الفتى الوسيم ذو الملامح الأورُبية الملونة، وتضع الأم قطعة البطاطس المحمَّرة في فم طفلها الذي لا يتعدى الثلاث سنوات.. بينما تنظر أخت الطفل إلى هاتفها المحمول.. وأثناء انشغال كلٌّ منهم فيما يفعل، يتحدثون إلى بعضهم غير ملتفتين لما يدور من أحداث البرنامج.

إنه فندق "شيغوف"! ماذا أفعل هنا؟ أليس من المفترض أن أكون

حيث يتواجد أيّ من أسرتي.. فما بال أسرتي بذلك المكان الذي من المستحيل أن يتواجد أحدهم به؟!

لا.. هو ليس من المستحيل.. فليس عالمي وحده –عالم الموتى– هو الذي يحدث فيه كل ما هو غير متوقَّع.. بل إن عالم البشر يحدث به أيضًا الأغرب من الخيال.. فهذا الشاب الذي يدخل من بوابة القاعة هناك هو "شعيب" ابني..

نعم إنه شعيب ابني خفيف الظل المرح المنطلق.. يبدو أن حيويته أوقعت به في أمور لم أكن أتوقعها.. هل أصبحت فاسدًا يا شعيب؟ أليس من المفترض أن تكون بتركيا حاليًا.. ما الذي أحضرك إلى هنا؟

ملابسه غير مرتبة بعض الشيء وكأنه يتبع صيحة شبابية غريبة من الموضة.. شعره مصبوغ وعلامات محسِّن شفاه على شفتيه.. كيف هذا؟!

جلس إلى الطاولة المواجهة لي مباشرًا.. وظل يلتف يمينًا ويسارًا وكأنه منتظر شيئًا ما.. ربما في انتظار قدوم أحد.. يرتجف أحيانًا وكأنه خائف.. ويحاول أن يتماسك في أحيانٍ ثم يحاول أن يبتسم من جديد أمام الحاضرين.

تنبعث أشياء غريبة التكوين من أعلى مناطق السماء.. دوائر أو ربما سهام لا أستطيع التحديد.. سوداء ورمادية.. تتحول لوجوه تضحك بسخرية وأخرى في حالة هرج ومرج.. تتكاثر بشكل سريع جدًّا جدًّا، والغريب أن لا أحد يراها بالرغم من أنها تتخبط بين كل الحاضرين.. هم جميعهم كما هم ولا يدرون أي شيء عن ما يدور حولهم.. أما شعيب.. فهو لا يراهم أيضًا ولكنه ليس بالحالة الجيدة مثلهم.. فشعيب يتخبط

جسده في بعضه من شدة الخوف.. ماذا بك يا ولدي الجميل؟ وأين ضحكات وجهك؟

"ooh my god"

قالها الفتى الوسيم وهو جالس إلى الطاولة أسفلي مع أسرته .. فانتبه له الجميع.. انفجر الرعب من وجه الفتى عندما نظر إلى يافطة ومرسوم عليها سهمٌ مضيءٌ في (life a gamble) مكتوب عليها اتجاه اليسار.. إنها يافطة إعلانية عن صالة لعب القمار في المكان لمن يريد أن يلعب.. التفت الجميع لتلك اليافطة وأولهم أنا.. يالللوعة ما أراه.. إن الحدث ليس باليافطة! فما يرعب الفتى هو ابني شعيب الذي وقف أسفل اليافطة رافعًا "التي شيرت" الذي يرتديه لتظهر كمية من المتفجرات مربوطة على جسده بإحكام.. عيون شعيب تحمل نظرة بها ثقة كبيرة ولكنها ثقة معبأة بالندم.. حدة وجهه توحي بعلامات نصر من أجل انتقام ولكن نفس الحدة تحمل نوعًا من أنواع الحسرة على النفس والفشل.. وبالفعل قالها شعيب ابني بصوت عالٍ، جسور:

– إحنا أمة محمد لن نترككم تنعمون بالسلام حتى تتركونا وشأننا.. أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا عبد الله نبيه ورسوله.

لم أرَه يضغط على أي زِرٍّ.. كل ما رأيته هو النيران تتخبط داخله وتتكاثر وكأن جسده أصبح رحمًا يتضخم فيه الهلاك بدلًا من الجنين.. تتخبط النيران في بعضها بين أحشائه.. مزقت النيران أعضاء جسده لتقضي على حياته.. مجرد لحظات تنقص الثواني بكثير ولكني رأيتها بطيئة كسلحفاة عجوز تسير على أرضٍ مليئة بالتعرجات..جزيئات من الجمر البشري متداخلة مع الأشياء الغريبة التي سقطت على المكان في البداية وكلاهما يتجه نحو كل الحاضرين ليثبت حركات القرنية في

أعينهم إعلانًا بانتهاء حياتهم، أما أنا فقد عبرتني النيران دون أن ألمسها وكأنها سراب.. أو ربما السراب هو أنا وليس النيران.

أتربة سوداء وبقايا حوائط مدمرة تملأ المكان.. اختفت النيران جزئيًّا وهربت الأشياء الغريبة إلى الأعلى وهي تصنع حركات بهلاونية وكأنها ترقص فرحًا وسعادة.. بالخارج أناس يصرخون بذعر وآخرون مثبتون في أماكنهم عاجزين عن الحركة من هول الموقف.

ملأت الدموع مرة أخرى عيني -غير الموجودة من الأساس-، وشعرت وكأني على قيد الحياة وأعيش أكثر لحظات حياتي وجعًا وألمًا.

جاءني صوت خائف، يصدر من ناحية أجزاء جسد شعيب الذي تناثرت جزيئاته.. كان صوت شعيب، يحدثني وكأنه ما زال هو الآخر على قيد الحياة:

- إزاي.. إزاي؟ إزاي!
- شعيب.. إنت فين؟إنت شايفني؟
- أنا مش شايفك بس عارف إنك قدامي.. إزاي كده؟
- إزاي إيه!
- إزاي!
- مالك يا ابني وإيه اللي عملته ده!
- مش عارف..
- مش عارف إيه! إيه ذنب الناس دي! الناس دي بريئة يا ابني.
- أنا مش شهيد يا بابا.. بيقولولي إني كده انتحرت.
- مين اللي بيقولوا؟

– مش عارف.. ليه كده يابا؟

– ليه كده إيه!

– إنت السبب يا بابا.. إنت عليك حساب وقضاء هتاخده معايا.

شعرت بوجوده أكثر دون أن أراه ثم اختفى تمامًا من المكان وهو يصرخ بصوت جهور:

– أنا في جهنم يا بابا.. يا إبليس يا لعين..

بقايا جسده تتحرك وكأنها تحاول الاتحاد وهي تلقي آليًا بعض المعلومات بلُغة غريبة لا أعرفها والأغرب أني أفهمها جيدًا.. وتفيد بأن شعيب كان فعلًا يعمل في المملكة العربية السعودية وسافر منها الي تركيا.. إلا أنه هناك تعرَّف على عميل لجماعة إرهابية مختص بالبحث عن أفراد جُدد للتجنيد في جماعته.. وقد أقنع شعيب بالانضمام إليهم بسهولة.. فمعظم مبادئ الإسلام المتشددة كان قد تعلمها شعيب مني من قبل وقد آمن بها جدًّا.. ومع وجودها مرسخة بداخله وبوجود حب الانطلاق والسفر عند شعيب أصبح شعيب مؤهلًا بشكل قوي وسريع للوقوع في فخ هؤلاء الشياطين البشريين.

وأخيرًا رأيت الطفل صاحب الثلاث سنوات ما زال على قيد الحياة ويتحدث إليَّ بلغتي العامية وكأنه رجلٌ ناضج:

– بقية البطاطس في الجنة.

– إنت بخير يا حبيبي؟

– أنا خادم في الجنة..

قالها لأتركه وأترك كل ما في الدنيا قاصدًا موتي.. الموت أهون من تلك اللعنات في حياة يسيطر إبليس وذُريته على عقول من فيها.

شعرت بالدموع تسيل على وجهي.. وحينما حاولت مسحها تذكرت أنني بدون وجه من الأساس.. سليمان المجتهد الواعد أصبح الموظف السلبي الفاشل المتفهم للإسلام وتعاليمه بطريقة خاطئة.. وشعيب رمز الانطلاق وحب الحياة بين أبنائي أصبح المتدين المسيء للإسلام والهارب من حياته لحياة التطرف الأخلاقي.

كفى.. لا أريد الاطمئنان على ابنتي سمية.. وحتى فضولي تجاه زوجتي صفية قد إنتهى.. أنا أود الآخرة فقط ولا أريد من الدنيا شيئًا.. لن يهمني جسدي ودفنه بعد الآن.. فأنا راضٍ في كل الأحوال.. فلتكن جثتي ملك أولئك البشر في تلك الحياة.. ولتكن روحي لله...

❊ ❊ ❊

(17)

ها أنا الآن كما توقعت؛ أدخل المستشفى الحكومي مسرعًا وكأني أجري على قدمي لأفرح بمولود جديد أنجبته زوجتي.. أدخل فرِحًا وكأني العريس.. ومن شدة استعجالي لدخول ثلاجة الموتى شعرت الوقت يمر بطيئًا، فقد كان الندم يتملكني حيث كان لا يجب أن أفكر في أي شيء من البداية سوى الاستمتاع بآخرتي.. والآن يجب أن أنسى الدنيا وما فيها.. يجب أن أحتفل بالجنة ومراسم دخولها.. لا يهم الآن من يحضر مراسم جنازتي بل إن الجنازة نفسها لا تهمني في شيء.. أنا إنسان ميت.. أنا روح في ذمة الله.. أنا خارج الدنيا ولا يجب أن أفكر في أي شيء سوى آخرتي الأبدية التي ستملأها السعادة مقابل تضحياتي في الحياة.. تبًّا لحياتي التي أجَّلت آخرتي من أجلها.

غرفة ثلاجة الموتى في آخر الممر.. على الباب هناك ممرضتان مثلهما مثل باقي ممرضات المستشفى في نظري؛ حوريات من الجنة.. كانتا تتهامسان ولم يكن لي أي اهتمام بما يتهامسان فيه.. ولكن حديثهما اخترق أذني وكأنهما تلقيان خطابًا جماهيريًّا أمام حشود من الناس.

– يا ستي الدكتور قال ينفع.

– هو إيه اللي ينفع ده ميت بقاله أربعة أيام.. أكيد كل حاجة في جتته باظت.

– ما هُمّا ما مش هياخدوا حاجة من القلب ولا المخ.. دول هياخدوا الكِلى وعينة صغيرة من الكبد بتاعه واحتمال يكسروا حتة صغيرة من رجله وياخدوا حتة عضمة.

– و ليه ده كله؟! وكمان هيعملوا إيه بحتة العضمة؟

– أصله لما جِه ما كانش حد عارف هو عنده إيه لحد ما عرفوا إن عنده فشل كلوي جاله مرة واحدة.. بس مش ده الغريب.. الغريب إن نسبة "الكريتلين" عند الإنسان الطبيعي ما بين 1 وواحد ونص.. وحتى المريض الطبيعي لما بترتفع عنده نسبة "الكريتلين" عنده بتبقى 3 ولّا حتى أربعة أو خمسة بالكتير ومش بترتفع مرة واحدة.. إنما ده أول تحليل يعمله كانت نسبة الـ "الكريتلين" 1.8 وما كانش باين عليه حاجة وما غسلش كِليته ولا مرة واحدة.. وطبيعي يبقوا عايزين يعملوا بحث عنه.. وبيني وبينك الموضوع فعلًا غريب.

– و العضمة دي هيعملوا بيها إيه؟

– مش عارفة.. بس يمكن عشان هو كان واقف على رجله لحد آخر لحظة.. ده إحنا حتى لما جينا نلبّسه عشان ندخَّله يغسل قبل ما يموت بساعة واحدة قام وقف ولبس هو من غير ما حد يساعده.. وكان مركز وواعي لكل حاجة! حتى الخاتم الفضة اللي كان لابسه لما قولتله ما ينفعش تلبسه وانت بتغسل قلعه وإداهولي وقالي: خلي بالك منه. وكان معاهم ورقة كده فيها كلام غريب قطعتها.

– وراح فين الخاتم ده؟

– انبريلي بقى في حتة الخاتم اللي مش هيجيب ولا مليم في الآخر.

– ما أنا عارفاكِ.

– يا ستي حلال عليكِ.

– حلال إيه ده خاتم فضة مالوش لزمة ومكتوب عليه "صفية"

– وتكسير حتة من رجله دي مش هتبقى باينة؟

– وهو مين مركز أصلًا! وبعدين هُمّا هينشروها بالراحة، يعني ما حدِّش هيسمع حاجة.

– إنتِ متأكدة من الحوار ده؟

– ما أنا سألت دكتور علاء وهو أكدلي بنفسه.

– وإحنا هناخد كام؟

– لوكشة حلوة ليا أنا وانتِ.

– لوكشة ده إيه! أنا عايزه أعرف من دلوقتي.

– إتوكسي.. إنتِ لسه قايلة بنفسك إنه متنيل ميت من أربعة ايام.. يعني الموضوع كان فكسان أصلًا.. ده هو بالصدفة فيه باحث هو اللي محتاج العينات.. ولو مش هياخدها مننا هيلاقي ألف سكة ياخد منها.. عايزاه يدفع كام يعني؟!

– وهو دكتور علاء هياخد كام؟

– وإحنا مالنا.. وبعدين هيبقى واخد كام يعني! ما أصل الباحث ده ما أظنش هيدفع كتير في شوية حاجات زي دي من جثة بقالها أربعة ايام.

– طب ما تتكلمي مع دكتور علاء يزو...

– بلاش تتبطري على النعمة واقعدي ساكتة.. ويلا روحي للدكتور علاء وعرفيه إنك موافقة وخليه يدخَّل الباحث ده ويجي كمان ساعة عشان تبقى الدنيا هديت وأنا هخش أظبط الجتة وأخليها جاهزة على الشغل على طول.

– هُمَّا هيدفنوه إمتى؟

– بكرة.. ولاد الحلال لمّوا له قِرشين دفعوا بيهم فلوس المستشفى والتغسيل.. وبكرة هيفتحوله تُربة في مقابر الإمام.

– وده أهله فين ده؟ هو فيه كده؟ وبعدين ما كان فيه واحدة جَتله أول ما تعب قبل ما يموت على طول وفضلت تعيط وقالت إنها بنته.. ده حتى إدّت البت كوثر قرشين ووصيتها تخلي بالها منه..

– راحت فين دي كمان؟

– الله أعلم! الدنيا ياما فيها.. وبعدين إنتِ عمَّالة ترغي ليه.. يلا انجزي وروحي بلغي دكتور علاء وخلينا نخلص من اليوم ده بسرعة.

نعم، إنهما تتحدثان عن جسدي.. هما لستا بحوريات من الجنة.. هما امرأتان عاديتان.. وربما تسرُّعي لحياتي الأبدية هو ما أدخلني في حالة من التصور الخاطئ تجاههما دون أن أدري.. على العموم هذا لن يهمني فأنا لن أنحدر بتفكيري لأي أحداث دنيوية مرة أخرى.. لن أقع في الخطأ مهما حدث.

❊ ❊ ❊

(18)

ذهبَتْ الممرضة لتخبر الدكتور علاء بموافقتها على صفقتهم.. وأدخلتني الممرضة الأخرى إلى غرفة ثلاجة الموتى.. على اليمين هناك سريران مفروشان بغطاء من القماش متسخ بعض الشيء.. سرير منهم فارغ والآخر تسكنه جثة لأحد رفقائي الأموات.. وبالجانب الآخر ثلاجة موتى ضخمة بها ثمانية أبواب مغلقة.. وفي المنتصف هناك مروحة في الأعلى تحت عدد من اللمبات تتعارك مع بعضها البعض لتخرج بعض الإضاءة البسيطة، وفي الأسفل يوجد منضدة حديدية قابلة للتحرك بواسطة أربع عجلات في أسفلها.

قامت الممرضة بجرّ المنضدة بتأنٍّ شديدٍ نحو باب من أبواب الثلاجة.. نظرت إلى الأرض وأخذت نفسًا عميقًا ثم أغمضت عينيها:

– أستغفر الله العظيم يا رب.. سامحني يا رب.. استرها معايا يا رب.. إنت أعلم بحالي ده أنا بربي يتامى.

قالتها في ذهنها وأنا سمعتها.. وما سمعته أيضًا هو صوت الدم يرتجف في شرايينها.. نعم هي تخاف ربها!.. فقد سالت الدموع من عينيها وكأن نقاء دموعها يهرب من تصرفها اللعين.. دخلت في حالة من الهيجان فكادت أن تسقط على الأرض رعبًا.. ثم استعاذت بالله:

– أستغفرك يا رب وأتوب إليك.. أستغفرك يا رب وأتوب إليك.. يا رب أستغفرك يا رب.. لجل حبيبك النبي يا رب استرها عليَّ دنيا وآخرة يااااا رب.. يا رب أنا ماليش غيييرك.

مرت بضع ثوانٍ على الممرضة وهي في حالة صمت وحبس أنفاس بعد تهامُسها مع نفسها وصراخها بكل كيانها بهذه الكلمات الصادقة.. ولكنها سرعان ما تداركت نفسها واستخدمت بعض الإصرار المدعوم من إبليس لتخرج من تلك الحالة الإلهية.. مسحت الدموع من عينيها.. وقفت على الأرض بقوة لتعلن الحرب على ضميرها غير المرغوب في وجوده الآن.

وبالفعل بعد أن استغفرت ربها وحلَّفته بحبه لنبيه سيد الخلق.. ليسترها في دنيتها وآخرتها.. بدأت هي في تحضير جثتي للسرقة.. بدأت في مخالفة الستر المطلوب منها على جثتي.. جثتي التي أصبحت في ذمة الله.

فتحت باب الثلاجة ببطء شديد وسحبت جسدي ليسقط على الترابيزة.. وبمجرد سقوطه انجذبت روحي داخل جسدي بقوة وسرعة غريبة فوجدتها تسكن جسدي من جديد!

ما هذا؟ فمنذ بداية حياتي في عالم الأموات وأنا أتحرك بلا جسد وأرى بدون عين وأسمع بدون أذن وأشم بدون أنف وأفكِّر بدون عقل، ومع ذلك كنت غير مقيد بالمرة.. أما الآن فشعورى بكامل جسدي يرعبني.. لم يعُد إليَّ جسدي.. بل إن روحي التي كانت منطلقة هي التي أصبحت سجينة في جسدي ! تماماً مثل أرواحكم أنتم الأن

تجمع أعضاء الصفقة الأربعة بانسياقهم وراء دنيا هُم على يقين من نهايتها.. سأل الباحث عن وجود بعض الأدوات التي سيحتاجون لها

وأجابوه بوجودها ثم نصح الدكتور علاء بأن يبتدئوا بالجزء الأصعب والذي سيأخذ بعض الوقت لتكون باقي العملية سهلة بعد ذلك وكانت تلك البداية هي قطع قطعة عظام من قصبة قدمي، وبالفعل بدأوا..

أخرج الدكتور علاء منشارًا طبيًّا صغيرًا وتحدث للباحث:

– أخدهالك من القصبة الشمال ولّا اليمين؟

– أي واحدة مش مهم..

– عايزها أدّ إيه؟

– يبقى طولها عشرة سنتي، ومش مهم عرضها اللي تقدر عليه.

فتحدث الدكتور إلى الممرضتين:

– واحدة منكم تثبّت الرجل جامد والتانية تعملي بالمشرط جرح 15 سنتي.

فقاطعهم الدكتور:

– لا سيبني أنا أعملّك الجرح.

– طيب ما تخليك انت أحسن وانجز أي حاجة تاني.. خد عينة الكلى أو الكبد.

– لا ما أنا هعملّك الجرح وهسيبك تنشر العظم براحتك ولحد ما تخلص أكون أنا أخدت العينات اللي عايزها إن شاء الله.

ها أنا أركض بين أناس يقطعون في جسدي بدمٍ باردٍ ولا أستطيع أن أصرخ لأطلب منهم يرحمونني مما يفعلونه بي.. فحقًّا بشاعة ما أعيشه من عذاب أقسى بكثير مما يمكن أن يتخيله حي منكم ما زال في دوامة عالم الأحياء العميان.. فكأن أحدًا يحمل منشارًا كهربائيًّا ويقوم بدمٍ باردٍ بتقطيع أطراف أصابعك العشرة ثم يقطع باقي الأصابع

وأنت لا تستطيع أن تتحرك.. يتجه لكف يدك ومنها لباقي ذراعك، ثم يتلذذ بقطع كامل قدمك بنفس الطريقة.. يبدأ في نحت صدرك وظهرك ليكتب أسماء من ارتكبت أخطاءً في حقهم.. ثم يتركك تتأمل أحد أصابعه وهي تتجة ببطء لعينك لتخرقها ويقطع لسانك حيت تخرجه لتصرخ.. وينتهي المطاف بأن يقتلع أذنيك، ثم أنفك، فتجد حواسك تنزع منك.. وفي النهاية يتركك لتعيش بهذا الوضع بشكل أبدي لن ينتهي.

فهل يتصور أحد الأحياء أنه يعيش في هذا؟ بالطبع لا، والحقيقة أن عواقب ما نفعله من أخطاء دنيوية مؤقتة ستخطو بنا لأبشع من هذه الأبدية البشعة بكثير.

ليتني أستطيع أن أنطق حتى ولو ببعض الكلمات القليلة لألفت نظرهم للحظات عذاب أليم تنتظرهم في حياتهم الأبدية.. أراها الآن من عالمي.. ليتهم يرون ما أراه.

❊ ❊ ❊

(19)

ملقط، محكمات وضع، حفارات وقواطع جلد، مباعدات لإبعاد الجلد المفتوح عن الأنسجة والضلوع، مبرد، رؤوس شفط ضخمة لسحب سوائل سميكة، دباسة إغلاق، مشرط.. تبًّا لهذا.. أنا أشعر بكل ما يفعلونه بي؟!.. أراني داخل جسدي محاصَرًا بتلك الأدوات التي يحرِّكها إبليس وذريته من خلال أيدي هؤلاء الأربع المحسوبين على البشر.. فعلى ما أظن إن هؤلاء لا يعرفون عن البشرية إلا القليل.. أُكسجين لا يتبادل الحركة مع ثاني أُكسيد الكربون فتصبح الرئة بدون شهيقٍ أو زفيرٍ مع قلب بدون نبض، معهم مخ لا يعمل، بالإضافة لدماء مجردة من الحركة.. أهذه أسباب كافية يا سكان الدنيا لتجعلوني مِلكًا لكم ولأدواتكم!.. يا لك من لعين ماكر يا إبليس.. كيف أقنعتهم أني مسخَّر لهم لمجرد أن جسدي بدون روح!؟

يا الله.. يا أقوى من أي قوة.. يا رب الحياة وما فيها من ظُلمٍ وقهرٍ.. متى ستدخلني قبري لترحمني من جحود عبادك.. يا رب البداية والنهاية.. يا رب الأبدية والفناء.. متى سيتحلل جسدي في التراب برحمتك.

دكتور علاء، لماذا تهتم هكذا بخياطة جسدي بعناية بعد سرقته..

أتخاف من أن تكشف صفقتكم؟! وأين الله.. الله موجود في كل مكان يا دكتور علاء.. كيف تخاف من كشف صفقتكم ولا تخاف من الله الذي يشهاد أحداث تلك الصفقة الآن؟!

أيتها الممرضتان، ما الذي ستحصلان عليه في الدنيا ثمنًا لما تفعلانه بي؟ بعض الأموال؟! ما هذه الأموال.. أهي للإحساس بأن قلبوكما ترتجف خوفا من دخول أحد؟.. أم إنه إحساس بالندم؟ أم إنه إحساس بأنكما ترتكبان جرائم إنسانية في حياتكما مثلكما مثل ما فعله فيكم باقي البشر الذين أجبروكم على الدخول في هذه الصفقة المغضوب عليها من الرب الأعلى الذي لا يغفل ولا ينام.. أنا أرى الآن ابن أحدكم قد طلب منك نهار هذا اليوم مبلغًا ليأخذ به درسًا خصوصيًّا.. أنتِ تعتقدين أنك تكافحين لتعليمه.. الأمر ليس كذلك يا سيدتي.. فأنتِ لا تكافحين من أجل توفير مبلغٍ لتعليم أبنك.. بل أنك تسرقين جسدي لتوفير مبلغٍ تعطيه لابنك لتساعديه على معصية ربه.. فابنك لا يأخذ درسًا أيتها الممرضة المظلومة من سواد الحياة.. بل إنه يراوغك بأسباب وهمية لا يتوقف عنها ليوفر ثمن المخدرات التي يدمنها.. ابنك مدمن للمخدرات.. ابنك سرق عددًا من أصحابه من قبل بسبب إدمانه للمخدرات.. ابنك معروف بين أُسَر أصحابه بأنه الابن "المتسول اللبش" الذي يجب أن يبتعد عن أولادهم.. أما أنتِ يا رفيقتها في الجريمة.. لماذا لم تلاحظي على ابنتك التغيير في سلوكها.. فالسبب هو أنها على علاقة بشابٍ تعتقد أنه حبيب عمرها الذي سيتزوجها بعدما يتخرج من جامعته.. بينما هو يستمتع بهدايا ابنتك له التي تأخذ ثمنها منك.. وأجمل هدية تعطيها له هي جسمها..

فابنتك تمارس الجنس مع شاب لا يهتم بشرفها وليس لديه أي استعداد أن يتحمل أي مسئولية تجاهه.

أيها الدكتور الباحث، لو كنت أعلم قبل موتي بأنك تحتاج لجسدي لأغراض سلمية تفيد بها الناس لكنت أعطيتك إياه.. ولكني لا أستطيع أن أرى الآن سوى أنني المذبوح في يد قاطع العظام.. جعلتني أرخص من قطعة اللحم المعلَّقة في محل الجزارة.. ولكن الفرق أن قطع اللحم في محل الجزارة لكل جرام منها ثمن.. أما لحمي بين يدك ليس له ثمن.. مجرد رسوم دفعتها ليصبح لحمي بالكامل ملكا لك.. ألم يقل لك أحد من قبل أن الغاية لا تبرر الوسيلة! أنت لا تريد إفادة البشرية بأبحاثك بل تريد النجاح لنفسك ومع ذلك فأنا أتمنى لك التوفيق من الله فربما تكن سببًا في إطالة حياة إنسان بسبب أبحاثك على أعضائي.

ساعات مرت وهم في تركيز كامل في سرقة جسدي.. ومع ظهور نور الصباح كانت الصفقة قد انتهت.. ولم يتبقَّ سوى أمرٍ مهمٍ لتكتمل الصفقة بنجاح.

– غسِّلوا الجثة بسرعة.

هكذا تحدث الدكتور للممرضتين:

– نغسِّلها إزاي؟ ما هيجي عم عاطف يغسِّلها كمان شوية.

– مش هينفع.. خلينا في المضمون أحسن.. غسلوها انتوا وأنا هعدي على عم عاطف هعرفه إن الجثة اتغسلت وهو أما هيصدق.. آدينا وفرنا عليه تغسيل جثة.

– بس مش حرام كده يا دكتور! دي جثة راجل وإحنا ستات.

– بلا حرام بلا حلال، إنجزونا من اليوم ده بقى خلونا نخلص.

سرعان ما بدأت عملية غُسلي.. لم أستغرب أبدًا من طريقة الغُسل.. التي ليس لها أي علاقة بطقوس غسل المسلم.. فأي طقوس تقبل منهم وهم من البداية أناث وجسدي لرجل محرَّم عليهم..

كل ما كانوا يفعلونه هو إلقاء الماء على جسدي وتقليبه يمينًا ويسارًا.. يرفعون قدمي ويكحتون جلدي بالليفة الخشنة التي لا أعلم في ماذا كانوا يستخدمونها من قبل.

– هو لازم نحمّيه كله.. كفاية لحد كده.

– عشان بس تبقى الجثة طاهرة.

– يا ستي طاهر بإذن الله.. طلّعي بس إزازة المسك من الشنطة خلينا نغرّق الجثة بيها.

– على رأيك كده كده المسك هيخلي الجثة ريحتها حلوة ولا هتبقى فارقة نضيفة ولّا مش نضيفة.

فأرٌ في المنزل أكلَ السم فمات.. أو تم ضربة بالعصا فمات.. أو شبكت قدمه في المصيدة ومن شدة الألم مات.. المهم هو أنه مات.. وما إن يموت حتى نمسكه بورقة أو أي شيء يكون عازلًا بيننا وبينه ثم نلقي به بعيدًا عن منزلنا –فالفأر أقذر من أن نمسكه بيدنا مباشرة–.

هذا تمامًا ما يحدث لي.. وضعت جثتي في قطعة قماش متسخة وكأنها كفن ليرموني بعيدًا في أي مقبره.. حملني خمسة أفراد وخرجوا بي من باب المستشفى ليستقبلني سائق سيارة نقل الأموات فاتحًا الباب الخلفي.. كانت الخشبة مفتوحة داخل السيارة فألقوا بي داخلها.. ألقى سائق السيارة بعض السلامات على من كانوا يحملونني ثم ودعهم

وقاد سيارته وسار.. أوصلني إلى مطافي الأخير وهي "تُرب الإمام".. نزل السائق وفتح باب السيارة الخلفي حيث الصندوق الذي يحتوي على جسدي.. أو بمعنى أدق: ما يحتوي على ما تبقى من جسدي.

– إسماعيييل.. منصووووور.. يا جدعان!!!

قالها أكثر من مرة ليأتي إليه رجلٌ مسن لا تبدو عليه أي علامات إلا للطيبة وراحة البال، أظهر سائق السيارة الاحترام له وتبادلا الحديث مع بعضهما ثم أتى إليهما ثلاثة شباب.. جاءوا جميعًا لخشبتي وأخرجوني منها وسريعًا أصبحت داخل القبر.. وضعني الرجل في ركنٍ في آخر القبر وفردَ جثماني على الجانب الأيمن وكان مهتمًا بأن تكون جثتي في اتجاه القِبلة.. وضع التراب على عيني وقام بضبط قدمي ويدي ليكونوا في وضع التسبيح.

جزاك الله خيرًا أيها العجوز على ما تفعله بي..

أصبحت وحدي.. وضع التراب على قفل القبر.. دقت أصوات الإغلاق بسماع صوت ناعم خلوق يحدثني بصوت خافت:

– أولى القارعة..

كان الصوت لإعلامي بأني أخيرًا أرتحت من تصرفات أحياء الدنيا الدنيئة بجسدي كما فعلوا مع روحي من قبل أثناء ما كنت على قيد الحياة.

❊ ❊ ❊

(20)

ظلامٌ في القبر كان من الطبيعي أن أراه.. لاحقه أصوات لهواء يجري وكأنها رياحٌ في صحراء.. ثم جاءت الأحداث تتوالى بشكلٍ سريع على عكس ما كنت أتوقع بالمرة.. تحولت أصوات الرياح إلى أصوات أناس، يوجهون أحاديث لي.. وكلهم يتحدثون في وقتٍ واحدٍ بنفس نبرة الصوت ولهذا لا أستطيع أن أميز أي صوتٍ منهم.. كل ما استطعت فهمه أنهم يعاتبونني على أشياء فعلتها.. تماسكت لأني أعرف جيدًا أنني جئت للموت بدون أخطاء.. فمن المؤكد أن كل هذا مجرد سوء فهم مني لما يجري.

ارتبك المكان لتنكشف وجوه أشخاص أشعر بأنني أعرفهم، وقبل تذكُّري لهم يتحولون كالبخار ضمن زحمة من الوجوه المتداخلة.. يعلو صوتٌ واحد من بين كل الأصوات ودون أن أميزه يختفي مرة أخرى ليدخل في صراع الثرثرة التي أسمعها من جديد.. هناك من يبتسم، هناك من يضحك، وهناك من يهلل من شدة فرحته.. وهناك من يبدو عليه الحزن، وهناك من يبدو عليه البؤس، وهناك من يبكي، وهناك من يصرخ.. ألوان كثيرة مبهجة ترقص في الهواء وكأنها تخرج من قبري منطلقة إلى السماء.. وبمجرد تأملي إياها أراها تتحول إلى الأبيض أو الأسود فقط لا غير.

أرى جسدي هناك بين زحام الأشكال والأصوات في قبري..

والأغرب أنه نفس الجسد الذي أشعر بوجوده معي الآن ينتفض أسيرًا للكفن.. كأني على قيد الحياة.. قدماي تؤلمانني بشدة وأشعر بإرهاق بعض الشيء وعقلي مشتت.. نهضت مرتديًا كفني وجلست ساندًا عظام ظهري على حائط القبر وأسندت يديَّ على جثتي التي أصبحت بأكثر من نسخة.. وما إن رفعت نظري لما كان أمامي حتى بدأ كل شيء يهدأ ويظهر بوضوح،

رجل مسن يرتدي ملابس متسخة.. لا أستطيع تحديد لون بشرته من كمية التراب المتلاصقة بجسده.. أنا لم أرَه من قبل ولكني واثق من معرفتي له.

– إنت مين؟ إنت إيه؟

– حتى البذرة نسيتها؟

– إنت مين؟

نطقتها وأنا شبه مذعور منه:

– مش عارفني عشان شايف التراب.. لو فهمت إن ده طين مش تراب كنت عرفتني.

– مش فاهم !

– أنا البذرة التي جاءت بك حيًّا ترزق.

– أيوة يعني إيه بذرة دي؟

– بسم الله الرحمن الرحيم: "لقد خلقنا الإنسان من علق".

ما إن نطق بتلك الآية حتى وجدت نفسي أدور دورانًا كاملًا في جميع الاتجاهات.. يتقلب جسدي داخل عقلي وعقلي داخل جسدي.. يقترب مني ملائكة أراهم بعينيّ بوضوح ومعهم شياطين تلحق

بهم بكل قوتهم.. وأنا لا أهتم بأي شيء.. كل ما أفعله أني أتأمل ذلك الرجل الذي عرفته وأسعدتني معرفتي به.. إنه جدي الكبير عبد الحي.. جدي الذي تمنيت كثيرًا أن أراه في الحياة.. فحقق الله لي أمنيتي في الآخرة.. ولكن ما الذي يفعله في قبري؟! ما الذي أتى به إلى مقابر مجهولي الهوية التي وضعوني بها؟ وما هذه الألوان التي تحيط به؟! وكيف؟! أنا لم أرَ جدي عبد الحي من قبل.. فقد مات قبل أن أولد بعقودٍ من الزمن! فكيف عرفت أنه جدي عبدالحي؟!.. وما هذا اللون الأخضر الذي يخرج من جسده.

ولماذا يبتسم لي بابتسامة سخرية؟

– إنت جدي عبد الحي؟ إنت جدي.. صح؟

– إنت لسه مضحوك عليك يا روح يا ابن أبرار.

– لا إنت جدي أنا عارف.. أنا ما شُفتكش قبل كده بس أنا عارفك.

– مضحوك عليك يا روح.

– مضحوك عليَّ في إيه يا جدي؟ إنت جدي أنا متأكد.

– مين فينا الشيطان ما كانش عايز يتملك منه.. مين فينا سابه الشيطان في حاله.. شيطانك كان عارف إنك طمعان في الفاكهة اللي في الجنة.

– مش فاهم؟

– وانت إمتى كنت فاهم.. الله العليم.. الله العليم يا ابن "أبرار".. إعطي صفة القوة للعالم قبل أن يعطيها للمؤمن.. العلم قوة يا ابن

"أبرار".. العلم هو الجنة الحقيقية.. والجهل! الجهل هو اللي خلّاك تحبس نفسك جُوَّه حلم بجنة انت ما تعرفش عنها حاجة.

– لا أنا أعرف عن الجنة كتير وياما سمعت وقريت عنها من ال...

– عايز تاكل الفاكهة في الجنة؟ هتاكلها بس بعد ما تخش النار الأول.

– نار إيه يا جدي وليعوذ بالله.. إنت بترعبني ليه يا جدي..

– رعب؟! إنت لسه في البداية.. فين الرعب؟

– جدي أنا مش فاهم أي حاجة واتلخبطت.. أرجوك يا جدي فهمني.

– كان عندك الدنيا تفهم فيها..

– أفهم فيها إيه؟

– تفهم انت عايش بتعمل إيه.. شوف عبد الله ابني عمل إيه..

قالها جدي عبد الحي وهو يتجه نحوي.. فوجدت نفسي لست بجالس وإنما أصبحت مفرود الجسد داخل الكفن.. وصل إليَّ جدي دون أن يتحرك وأزاح التراب من على عيني وفتحها بيده، وبمجرد أن فتحت عيناي شعرت بجثمان كل من دفن في هذا القبر من قبل.. وكأني كنت أعيش معهم.. أصبحت أعرفهم بالاسم والشكل.. أصبحت أعرف كل شيء فعلوه في حياتهم.. حتى النَفَس الذي كانوا يتنفسونه.. ولكني لم أهتم! فاليقين الذي تملكني ينسيني أي شيء.. إنه اليقين من دخولي النار أو احتمالية مروري بها.. فهذا كان الخبر الذي ألقاه عليّ جدي عبد الحي قبل أن يختفي.

وبينما كنت في حالة من الذعر ظهرت لي مجموعة كبيرة من الناس يحيطون بجدي عبد الله.. تعرفت عليه سريعًا بسبب أصواتٍ صاعقة داخلي تنشر اسمه في المكان وقامت بتكراره أكثر من مرة: (جدك عبد الله يا روح)

❊ ❊ ❊

(21)

أنا أشبهه تمامًا.. وكأنه أنا.. باستثناء جاذبية غريبة تسطع من وجهه.

ولكنه لم يتحدث إليّ ولم ينظر إليّ.. فقط يبتسم وهو يتحدث إلى من حوله بتمتمة غير مفهومة.. تعبيرات وجهه كانت توحي بأنه يفتخر بشيء ما.. وما إن توقعت هذا حتى جاءني واحدٌ من المجموعة المحيطة به.. وقال لي:

– أُقف..

– أقف إزاي القبر قصير مش هقدر أقف.

– أُقف زي ما جدك واقف.. شايف الشموخ.. واقف جدك في القبر وهيفضل واقف.. الشموخ من عند ربنا.. الشموخ مش من نظرة ولاد آدم ليك.

لم أنطق.. فقط مذهول.

– أُقف

– مش عارف.. طيب قولي أقف إزاي.

– أُقف..

– ساعدني..

وضع يده على يدي وسحبني منها.. فوجدت نفسي واقفًا.. ولكن جدي كان قد اختفى هو وكل من كان معه.. لم يبقَ سوى هذا الرجل.. فسألته:

– هُمّا راحو فين؟!

– عايز أقولك على حاجة.

– ماشي بس عرفني هُمّا راحو فين؟

– إنت لسه مصمم تحرم نفسك من نعمة الصبر.. أنا كنت فاكر إنك فهمت خلاص إن بعدك عن نعمة الصبر هو اللي خسرك.

– خسَّرني إيه؟! أصلًا أنا كنت دايمًا صابر

– صابر! ألماس هو اللي صبِر..

– ألماس أبويا؟

– قصدك اللي كان أبوك.

– ليه اللي كان أبويا؟ عشان يعني بقينا ميتين؟

– لا.. من وانت في الدنيا وانت مش ابن ألماس.. من يوم ما وقفت في طريق تحقيق حلمك ومابقِتش مهندس.

– لا.. ده أبويا مات وهو راضي عني!

– بس إنت ما كملتش.

– أكمل إزاي؟!.. ده أنا عملت كل اللي عليَّ وما كانش فيه أي حاجة كان ممكن أعملها وما عملتهاش.

– ظروفك كانت نفس ظروف ألماس.. بس ألماس كمِّل بالصبر.. ألماس بقي سفير.

– ألماس ما كنش سفير!.. ألماس كان زبال.

بدأ يحفر في الأرض بقدمه ناظرًا تجاهها وهو يكمل بكلماته التي لم أفهمها حتى صنع حفرة صغيرة أسفل قدمه.. ثم أعاد النظر لي ليبدأ حديثًا بشكل آخر كنت أفهمه بعض الشيء.

– كنت عايش عشان خايف تخش النار.. وطمعان تخُش الجنة.

– بس ده مش غلط؟!

– إنت كنت عايزه تخش الجنة ليه يا ابن "أبرار"؟

ضحك بصوت خافت وكأنه يسخر مني ثم أكمل:

– كنت عايز تنجح فيها.. عايز تخش الجنة عشان تنجح في اللي فشلت فيه في الدنيا.. إنت فاشل.

– أنا كنت ملتزم بديني.

– لا.. إنت هربت من الدنيا.. إنت خليت النسل يقف عندك.

– يقف عندي إزاي! أنا عندي ولاد وفيهم رجالة

– مثلما رفض حام ركوب سفينة أبيه.. فكانت النهاية لنسله وراح ضحية الشيطان.

– وأنا إيه علاقتي؟

– لم تصعد لسفينة أجدادك المرتفعة في السماء وكنت جاهلًا كسولًا.. كنت ابن الأصل الطيب لتسيء بفعلتك.

أصبحت غير قادر على الحديث.. لا أتلقى الكلام ولا حتى الرد.. ولكن إلى أين أذهب.. ليس أمامي ما أفعله سوى الصمت أمام مواصلة ذلك الرجل لحديثه.. وبالفعل أكمل هو الحديث وأنا لا أشعر بشيء سوى قُرب جهنم.. ربما كانت جهنم مجرد توقع حينما عبَّر جدي عبد

الحي عن تقربي منها.. ولكنها أصبحت يقينًا الآن.. جهنم لي.. جهنم داخلي.. وما أمرّ به الآن لا بُد وأنه أولى المراحل البسيطة لعذاب القبر.

اخترق الرجل تفكيري قائلًا:

– إنت مصمم يبقى تركيزك على الخوف.. حتى وانت في قبرك وبعد ما بدأت تشوف الحقايق لسه بتفضَّل الخوف أكتر من الاطمئنان والسكينة.. إنت بتحكم على نفسك بجهنم ليه؟

– أيوه أنا خايف..

– من كلامي ولّا من أفعالك اللي في الدنيا.

رحل.. أو ربما أنا من رحل.. لم يترك لي فرصة للرد.

❊ ❊ ❊

(22)

قوة إلهية تسحبني بقوة لأعود لنفس موضعي في قبري بين كفني.. سلاسل حديدية ملتفة حولي.. تكبّلني بإحكام.. كأني حيٌّ لا يتنفس.. وحاولت زحزحة صدري للأمام لأتمكن من عملية الشهيق.

– مش هقدر أسامحك.

صوت هادئ حزين لرجل مسن.. يتحدث إليّ.. كأنه جالس بجانبي.

– إنت عارفني يا ابني؟

أسمع صوته بوضوح وأرد عليه دون أن أتفوّه بكلمة.. كنت فقط أرد بيني وبين نفسي ويسمعني هو.. كأنه مطّلع على أفكاري وما يدور بذهني.

– لِفّ بُصّلي.. حاول هتقدر

سمحت لي السلاسل الحديدية التي تقيدني بالالتفاف بوجهي فقط.. لأراه جالسًا باسترخاء تام.

– عامل إيه يا روح؟

لم أهتم لسؤاله.. فكرت في ملاحظتي الغريبة عليه.. فبالرغم من وضوح نبرة صوته أنها لرجلٍ عجوزٍ.. إلا أني وجدته شابًا صغيرًا لا

يتعدى الحادية عشرة من عمره! لماذا قال لي: "يا ابني" بالرغم من أنه شابٌ صغيرٌ وأنا قد اجتزت عقودًا من العمر موتي.

أجابني على تفكيري وما يدور في ذهني حيث كان يسمعني:

– عادي يا ابني وفيها إيه.. صوتي كبر لأني طول عمري كبير.. وسني صغير لأني فارقت الحياة وأنا عندي (حداشر) سنة فعلًا.. فقد توفاني الله في بداية شبابي.

– السلام عليكم يا ابني.

– وعليكم السلام ورحمة ال..

تبًّا.. فقد يئست من محاولة نُطق لفظ الجلالة.. والآن لا أستطيع حتى أن أردده في ذهني لأرد عليه السلام.

– افتكرتني يا روح؟

– لأ.. أنا مش عارفك.. ممكن تفهِّمني أي حاجة؟

– ما أنا كمان ما أعرفكش.. إحنا اتقابلنا مرة واحدة بس.

– !!

– في لحظة ميعادك مع الخطيئة كان الملاك على كتفك اليمين بيحاول يرضيك ويخليك فرحان.. كان بيخليك تحمد ربنا وانت واقف على المحطة حران وجعان تحت الشمس.

– إزاي؟

– كنت واقف على المحطة ومستعجل تروح البيت.. بتشتهي بعض النعم للمولى فارتكبت الذنب في حقي.

– ذنب إيه؟

– كنت مشتاق لبيتك.. كان هناك رُز وبسلة وطبق سلطة خضار،

افتكرت إن صفية هتعمل حسابها إن السلطة تبقى من غير فلفل أو أي حاجة حراقة، هي عارفة إنك بتحبها كده.. ملاك فوق كتفك اليمين خلاك راضي ومبسوط عشان هتاكل وجبة بتحبها.. كانت حاجة جميلة فعلًا.. نعم ربنا حوالينا في كل حتة وجميل إننا نفتكرها دايمًا وإحنا بنعافر في الدنيا.

– وإيه الخطيئة في كده؟!

دمعت عيناه بقطرتين من الدموع من كل جفن قطرة ثم ابتسم بسخرية:

– ابن إبليس اللي كان واقف قدامك وانت مش شايفه.

– !!

– الناس كلها كانت عايزة تروح وما كانش فيه ميكروباصات كتير.. كل ما يجي واحد كانت تجري عليه الناس كلها عشان تحاول تحجز كرسي وانت كنت بتحاول معاهم.. ونجحت بعد عناء ومجهود كبير.. فضلت ساعة عشان تعرف تركب!

– أنا مش فاكر..

– عشان الموقف ده اتكرر معاك كتير.. بس المرة دي بالتحديد لما ركبت سمعت صوت الأغاني شغالة في الميكروباص.. وطلبت من السواق يوطي الصوت، ولما رفض السواق، إنت استسلمت للأمر وطلَّعت سبحتك من جيبك وأخذت تسبح في ذهنك محاولًا أن تهزم صوت الأغاني.. افتكرت كده يا روح؟

– آه بس إيه برضو الخطيئة أنا مش فاهم! آاااه فهمت.. هو أنا ماعرفتش أركز وقتها في التسبيح وسيطرت الأغاني على ودني.

– لا بالعكس إنت كنت مندمج جدًّا في التسبيح

– !!

– خطيئتك يا ابني إنك ركبت بدالي.

– ركبت بدالك؟

– أنا كنت واقف قبلك بكتير.. كنت بعاني أكتر منك.. سني الصغير وضعف جسمي وقلة حيلتي.. حمدت المولى لما الميكروباص وقف قدامي.. بس إنت زقتني لورا، إيدك وكتفك ورجلك كانوا جامدين عليَّ.. لقيت نفسي واقف بعيد وما قدرتش أركب.. حاولت أبُصلك بعتاب على اللي عملته.. وانت ماكنتش واخد بالك.. كنت فرحان بفوزك بكرسي الميكروباص.

– دي كده خطيئة؟

– الخطيئة أنواعها كتير.. واللي عرفته بعد ما مُتّ إن معظم سكان الأرض بقوا بيحاربوا أنواع من الأخطاء.. ومستسلمين لأنواع تانية.

– سامحني..

– سامحتك في الدنيا.. وقفت ساعة كاملة بحاول أركب.. وكنت بدعيلك توصل بالسلامة.

– يعني سامحتني؟

– لا.. أنا سامحتك في الدنيا.. بس واضح إني ما عرفتش أسامحك بشكل كامل.. للأسف أنا بعد فترة من الركوب افتكرت إنك ممكن تكون وصلت بيتك خلاص.. ومن غير ما أقصد حزنت من تصرفك! المولى الغفور شايف كل حاجة يا روح.

– طيب سامحني دلوقتي.

– أسامحك دلوقتي؟! هو أنا أول واحد تشوفه من اللي ظلمتهم ولّا إيه.. ابن آدم مش بيسامح في الآخرة يا روح.. الكل بيتمسك بأي حسنة.. الحسنة مهما كانت بسيطة ممكن تبعدني عن جهنم وتقربني من جنة الخلد.

– هو لسه كل حد غلطت فيه هيجيلي؟!

– و علَّم الإنسان ما لم يعلم.. مهما كنت عارف عن نفسك الرحمن يعرفك أكتر.. مش عايز "بدر"؟

وضع يده اليمني على وجهي ليعيده لوضعه الطبيعي.. فأصبح وجهي مقيدًا كبداية الحديث معه.

– روح..

إنه "عم بدر"

❊ ❊ ❊

(23)

امتدت يد بدر إليّ.. أراه أمامي في الأعلى.. هبط بجانبي وفي آنٍ واحدٍ أسندني لأستطيع الجلوس بجانبه.. أزاح السلال الحديدية التي كنت مكبلًا بها بمنتهى الليونة.. حقًّا إنها أجمل لحظة مرت عليّ بقبري حتى الآن.. أو بمعنى أدق هي أقلها ذعرًا.

يحدثني وكأننا أحياء وجالسان نتسامر مع بعضنا البعض منتظرين صلاة الفجر في الجامع.. كانت لحظات ممتعة.. والآن تعود لي.. بدر الدين بكل تفاصيله.. وجهه النقي وبشاشته.. ربما لم أستطع تحديد الزي الذي كان يرتديه.. ولكني كنت أراه مستورًا.. كعادته ببعض الحركات النابعة من بشرته المليئة بالتجاعيد تجعل له طلة بشوشة.. وبالبهجة والتفاؤل المنطلقين من وجهه بدأ الحديث إليَّ.

– عامل إيه يا واد روح؟

– الحمد...

– عارف عارف.. مش قادر تنطق اسم الله.

ربَّت على كتفي بيده اليسرى وأكمل:

– عارف يا روح ومقدر.

– طيب وبعدين؟ أنا مش فاهم أي حاجة.. أعيش حياة غريبة! بس أموت بطريقة غريبة؟

– المفروض تستغفر ربك على الكلام ده بس مش هتعرف.

– أنا آسف.

– إنت بتتأسف ليَّ أنا؟! مالوش لزمة أسفك ده.. عموما حاول تستخدم روحك في التفكير.. إنت عرفت منين إن حياتك إنت بس اللي كانت غريبة.. وعرفت منين إن موتك غريب؟

– أصل إنت مش عارف يا عم بدر ده أنا من لحظة ما فتحت عينيَّ على الموت وأنا بشو....

– عارف يا روح كل حاجة.. شُفتك يا ابني وكنت معاك.

– معايا فين؟

– مش مهم.. المهم إنك سِبت الدنيا بشكل نهائي.. وبدأت آخرتك بشكل أبدي.

– طيب أعمل إيه؟

– مش مطلوب حاجة غير التركيز بروحك.

– إيه حكاية روحي دي.. ما أركز بعقلي.

– إنت ماعندكش دلوقتي عقل.. العقل لسه يوم الحساب.. إحنا أرواح بس.

– إزاي؟

– ما أعرفش أنا زيك.. ما حدِّش بيعرف إلا يوم الحساب في المستقبل البعيد.. خليني أقولك على اللي يساعدك في الوقت الحالي.

– أنا معاك.

نهض بدر من مكانة وبدأ يسير في القبر يمينًا ويسارًا بهدوء تام وهو يتحدث لي:

– عارف يا روح.. كان ممكن قبرك ده يبقى حتة من الجنة.. كان ممكن تعيش هنا بداية النعيم.

– و ليه ما بقاش كده.. ليه قبري مش منور؟ ليه مش هعيش نعيم القبر؟

– أنا ما قُلتش هيبقى منوَّر.. إنت معرفتك بنعيم القبر إن القبر يبقى منوَّر! نعيم القبر ده حاجات كتير ما حدِّش يقدر يوصفها.. ولا فيه حد من الدنيا يقدر يتخيلها.

– وأنا مش هعيش فيه ليه؟

– عشان ماكنتش عايزه!

– لأ أنا عشت عمري بعمل كل حاجة عشان أنعم بنعيم القبر.

– إنت كنت بتعمل كده فعلًا.. بس لحد ما "ألماس" و "أبرار" ماتوا.. بعد حضن "أبرار" وهي ميتة إنت مابقِتش بتعمل أي حاجة عشان تعيش نعيم القبر.

– بس أنا ما عملتش حاجات حرام وحتى لو عملت حاجات حرام أكيد هتبقى قليلة.

– الناس كلها فاكرة كده..

– بس أنا كنت مخلي بالي.. أنا فعلًا ما عملتش حاجة حرام.

– الناس كلها فاكرة كده..

– بس أنا كنت دايمًا....

– الناس كلها فاكرة كده..

– الحقيقة إيه؟

أمسك ببعض التراب وفركه بين يديه.. ثم رفع يده للأعلى وقلبها ليسقط التراب أرضًا.. ثم نظر لي نظرة شفقة وأكمل:

– الفرق كبير يا روح بين اللي عايش في الدنيا ضعيف هربان وبين اللي بيواجه ويعبد المولى بالحق ويعمر الأرض.

– هربان ازاي؟!

– هربت للفشل.. واستخدمت كلمة "متدين" مبرر لفشلك في الحياة.. ودي حاجة ربنا ما كانش عايزها لولاد آدم يا روح.

– آدم مين؟

– آدم ابن الطين المخلوق في الجنة.. آدم اللي نزل الأرض يعمَّرها.. ينجح فيها.. يفرَّح ربنا إنه نجح فيها.. يعمَّر الأرض ويستنى يوم الفرقان.

– ما أنا عملت كده..

– لا إنت ما كنتش عايش في الحياة.. عشان كده ما كنتش إنسان.

– كنت بعيش في حالي.. الرضا والاستقرار وراحة البال وحمد الله.. الحاجات اللي اتعملتها منك يا عم بدر!

اهتز بدر الدين وكأن أحدًا قد صعقه في كتفه ونظر للأعلى بتركيز وكأنه يقرأ من يافطة أعلى قبري.. وبدأ يتلو عليَّ:

– لأقضي عمري في حياة الشطرنج.. فليس النجاح فيها بحُسن المراوغة بل على الإيقاع بالآخرين في أخطاء.. ومع كل خطأ من منافسي تخرج له قطعة من الدنيا وأشعر أنا بالفرحة.. ومع كل خطأ لي تخرج قطعة منّي أنا. وما يجب عليَّ أن أتذكره دائمًا هو نهاية أي مباراة.. فمهما كانت النتيجة.. سواء منتصرًا أو مهزومًا.. فهي مجرد

أوقات –جزء من الزمان– تُعَد بعقود أو سنوات أو شهور أو أيام أو ساعات أو دقائق أو حتى لحظات.

تذكرت تلك الكلمات.. فقد قرأتها من قبل في كراسة مذكرات تخص "عم بدر"

– أيوه أنا فاكر..

تحدث:

– الانتصار الحقيقي ليس بأن تنتصر في حياة الشطرنج.. الانتصار الحقيقي بعد نهاية المباراة.. وأنت تركت قطع الشطرنج ليلعب بها أبناء ذريتك من بعدك دورًا جديدًا بدونك.. ولكنك تتركتها مثلها مثل قطع الخِصم.. مهلهلة.. بعضها مائل وبعضها ساقط.. وحتى القطع الواقفة منها كانت في غير أماكنها.. وهذا غير القطع التي تم طردها وأصبحت صنمًا يقف بعيدًا عن الشطرنج.

عاد لطبيعته ونظر إليَّ سائلًا:

– فاكر وقتها إنت سألتني عن إيه؟

– أيوه.. قُلتلك طيب وإزاي أنجح في دور الشطرنج.. وإزاي أنجح بعد ما الدور يخلص؟

– وفاكر أنا جاوبتك وقُلتلك إيه؟

للأسف.. قد نسيت تلك الإجابة وكان بدر يعلم ذلك لأنه حدثني بالجواب قبل أن أخبره أنني نسيته.

– عشان تنجح في الشطرنج لازم تلعب بكل قوتك وما تيأسش أبدًا.. ولو عايز تضمن النجاح بعد ما الدور يخلص! اختار دايمًا اللون

الأبيض عشان تلعب بيه وتحميه وتنتصر ليه.. وتبقى المنافسة دايمًا بينك وبين القطع السوداء.

– و أنا عملت كده.. أنا كنت دايمًا بختار الحق.

ابتسم بدر ابتسامة سخرية وقال وهو متأملٌ جسدي:

– إنت ما كنتش بتلعب أصلًا.. إنت كنت دايمًا خايف.. خوفك خلّاك تحبس قوتك جواك وتفضل عايش تتفرج على الناس وهي بتلعب حياة الشطرنج وعايشة فيها.. عمرك خلص من قبل حتى ما تلعب.

– ؟! يعني قصدك إني كنت سلبي في حياتي؟

– كنت جبان.. أنا هسيبك عشان تعرف تقعد مع سمية براحتك.

– سمية بنتي.. جاية.. هي سمية ماتت؟

❊ ❊ ❊

(24)

اختفى بدر الدين مؤكدًا أن سمية ما زالت على قيد الحياة.. إنها فقط عرفت مكان قبري وجاءت لزيارتي.. وبعد لحظات سمعت أصواتَ كلابٍ تعوي خارج قبري وأيضًا أصوات أطفالٍ تلهو وتلعب.. وكأن أذني صارت خارج القبر ومستمعة جيدة..

ومن بين تلك الأصوات صوتٌ حزينٌ يبدو عليه الشقاء.. صوتٌ نابع من حنجرة مدفونة في جسد يتنفس.. هل هذا صوت سمية؟ نعم صوت سمية.. أنا أعرفه جيدًا.

عادت لي خاصية الشعور مرة أخرى.. أشعر وكأني أراها جالسة على الأرض تبكي أمام الباب الحديدي للقبر لاصقة وجهها بالباب.. غير مبالية بخشونته على خدها الجميل، حمل الباب عبء منع وجهها من السقوط وبدأت في البكاء:

– والله مش بإيدي يابا أغيب عنك يوم ما تحتاجني أسترك وانت ميت.. طب كنت هعمل إيه يابا؟.. حسبي الله ونعم الوكيل فيك يا كامل.. سامحني يابا.. ده حلف عليَّ طلاق ما أخرجش من البيت.. كنت هروح فين يابا أنا والعيال.. وأكِّلهم منين؟.. ده أنا لا بعرف أشتغل ولا بعرف أجيب قرش.. أنا كنت عارفة إنك لو كنت عايش كنت هتخليني أقعد وأقفل عليَّا باب بيتي.. وانت كمان كنت بتقولي

طول عمرك: لازم تسمعي كلام جوزك عشان ربنا يرضى عنك.. وياريته جِه بفايدة يابا.. ده المفتري بعد ما نفذت كلامه رجع وطلقني برضو.. هو كان بيتلكك.. كان عايز يطلقني بأي حجة وخلاص.. عايز يتجوز بت صغيرة والبت إشترطت إنه يطلقني الأول.

بكاؤها يزيد.. تميل بجسدها نحو الأرض أكتر في أكثر.. ثم صاحت بصوتٍ عالٍ:

– يا لهوييييي.. يا لهوي يابا.. الله يرحمك يابا.. أنا ماليش ضهر يابا.. سامحني يابا إنت السبب.. ياما كان نفسي تقدر تحميني.. كنت حتى خليني أكمل تعليمي وأبقي قادرة أشتغل وأجيب فلوس.. كان نفسي أعيش في بيت جوزي وأنا واثقه من نفسي.. وانا عارفة إن صدرك مفتوح ليَّ وجاهز يحميني في أي وقت.

تماسكت ومسحت دموعها وكأنها كانت مغيبة لدقائق وعادت لوعيها:

– سليمان يابا اترفد من شغله ومش لاقي ياكل.. وشعيب يابا.. شعيب جالك في دار الحق.. بس مش عارفة انت هتشوفه ولّا لأ؟ هو عندك يابا..

نهضت من مكانها ومسحت دموعها مرة أخرى وأكملت:

– أنا مش عايزة أزعلك ولا جاية أعاتبك في قبرك.. إنت أكيد مبسوط في آخرتك.. بس إنت عارف إيه اللي حصل لأمي.. صفية مراتك، حبيبتك، اللي اتعلمنا الحب منك ومنها.. تصدق إنها كانت بت...

تمنيت ألا أسمع من سمية ما حدث لزوجتي صفية.. وبالفعل تم القطع نهائيًّا بيني وبين قبري من الخارج.. حيث اختفى صوت سمية وكل صوتٍ دنيويٍّ كان يجول من حولها.

أنا آسف يا سمية.. أشعر بك وبما تقاسيه من الناس.. وقد عرفت يا ابنتي الرقيقة ما كان يجب عليَّ أن أفعله.. ولكني عرفت هذا متأخرًا في قبري هذا حيث لا استرجاع لما فات.. سامحيني يا نقية القلب.. وسامحيني لأني تركتك خارج القبر تتحدثين لذاتك.. فأنا لا أريد أن أعرف ماذا حدث لصفية زوجتي.. لا أظن أنها بخير.. ولن أتحمل أخبارًا سيئة عنها.. كفى يا ابنتي أخبارًا سيئة عن أحبابي في الحياة أنا السبب وراء حدوثها.

نظرت نحو مكان رقود جثتي.. لم أرَ سوى كفني يرقد خاليًا وسط التراب مبعثرًا وكأنني كنت راقدًا عليه وليس بداخله.. يبدو على كفني أنه حزين وكأنه كائن حي يشعر.. ياللعجب على إنسان يحزن كفنٌ لمجرد ارتدائه.

لا تغضب منّي يا كفني العزيز.. ألا يكفيك غضب ربي وربك مني.. أرجوك يا كفني لا تحزن.. فأنت رفيقي الآن.. في بداية موتي كنت متطلعًا للدنيا بعض الشيء.. والآن أنا لا أريد أي شيءٍ له علاقة بتلك الدنيا نهائيًّا.. يكفيني في الدنيا ما فعلته في نفسي وما فعله الشيطان بي.. سأرضى بما كتبه الله لي أيها الكفن..

ما هذا؟! أنا نطقت اسم الله.. ما هذا؟! أنا نطقته مرة ثانية.. الله.. الله.. الله.. سامحني يا الله..

ذهبت إلى آخر ركنٍ في قبري ساحبًا معي كفني.. ارتديته من جديد وقد أصبحت أشعر بوجود جسدي معي.. بدأت في الرقود بجسدي

على الأرض وأنا أنتفض.. ولكن الانتفاضة ذهبت مع صوت أسمعه.. صفية؟! نعم إنه صوت صفية تقرأ القرآن لي.. صوتها متغير، أصبح يشبه صوت أمي "أبرار" في شبابها.. ولكني متأكد من كونها صفية.

صفاء لم أشعر به منذ أن فارقت الحياة.. واختفى صوت صفية بآيات القرآن الكريم.. وجاءني صوت حنون رقيق مليء بمشاعر العطف والشفقة.. إنه صوت بدر الدين ينادي عليَّ.. أسمع صوته وكأنه بعيد وقريب في آنٍ واحدٍ.

– روح.

يتخبط كياني من الداخل وشيء ما ينفضه من الخارج وكأنها يد "عم بدر" تهزني:

– قوم يا روح.. قوم يا ابني ما ينفعش كده !

– ما ينفعش إيه؟

– خليك مؤمن بالله يا حبيبي وقوم من حضن أمك.. أمك فارقة الدنيا خلاص يا ابني بقى حرام عليك تنام في حضنها كده.. سيب أمك لخالقها وقوم معايا نشوف هندفن أمك وأبوك إزاي؟

انتفضت من مكاني ليختفي كل شيء كنت أراه.. كل شيء كان وهمًا ما عادا وجه "بدر" الجالس بجواري ودموعه التي كادت أن تملأ وجهي بالكامل.

لا إله إلا الله محمد رسول الله.. لا حول ولا قوة إلا بالله.. أنا في غرفتنا الخشبية أسفل السلم.. نائم في أحضان أمي "أبرار" وهي جسداً بلا روح.. نعم لم أمُت.. نعم.. أنا لم أمُت.. بل إني ما زلت شابًا كما أنا.. إنه يوم وفاة أمي وأبي حيث حضن أبرار..أكل هذا كان حلم؟

لا إنه كابوس؟ أم إنه رؤية! انا لا أستوعب شيئًا.. فربما هي هلاوس. نظرت لعم بدر وسألته وأنا أحاول أن أتماسك خوفًا من انهيار كامل:

– فيه إيه يا بدر؟

– إنت نايم في حضن أمك يا حبيبي.. بس كده حرام.. أمك ميتة يا ابني وإكرام الميت دفنه.

تأملت جثة أمي وسألته:

– يعني أنا مش ميت؟

– ميت إيه بس؟

– طيب أنا مش عجوز؟!

– عجوز إيه يا ابني إنت في عز شبابك ربنا يحرصك ويحميك يا ابني.. قوم يا ابني من جنب أمك.. هي ميتة من إمتى.. دا الفجر بيأذن يا حبيبي.

– و انت عايش يا بدر.. أنا افتكرتك مُتّ خلاص؟!

أمسك بدر بيدي وقبَّل جبهتي وتحدَّث بهدوء:

– قوم يا ابني الله يباركلك.. إشرب بس شوية ميه واهدا.

❊ ❊ ❊

(25)

يتحرك الدم بانسيابية بين قطع من العظام تحمل أعضاءً معقدة.. يتحدون جميعًا ليختبئوا وراء طبقة جلدية فيصبح الشكل النهائي كائنًا حيًّا.. كرَّم الله هذا الكائن بأن وضع فيه عقلًا وأسكنه روحي ليصبح هذا الكائن أنا! مجرد إنسان.. هكذا رأيت نفسي أثناء موتي، وهكذا رأيت كل من عبروا لحظات عمري حيث كنا نقف بجانب بعضنا البعض، محاصرين من الخلف بدنيا لا نستطيع العودة إليها، ومن الأمام بآخرة أصبحت معلومة لنا، على اليمين نعيم الخلد، وعلى الشمال عذاب القبر.

أنا مجرد هذا الكائن الذي يعيش بينكم بعد أن كان من الموتى ثم عاد إلى الحياة.. أتغلغل بينكم بعد أن تعلمت من موتي أنني ضعيف ككل الكائنات الحية.. وإدراكي لهذه الحقيقة هو السر غير المعلوم الذي يجلعني دائمًا من الأقوياء بينكم! وبهذه القوة التي اكتسبتها من موتي مضطر لبداية حياتي معكم من جديد.

أما عن هذه الحياة فهي حربٌ ككل الحروب التي تعيشون فيها.. (المهزوم مصيره الموت بعد الهزيمة).. (المنتصر نفس المصير بعد النصر) فالموت ينتظر الجميع.. ولهذه الحروب التي لا مفر منها أنا لا أنقطع أبدًا عن التدريبات الميدانية.. ساعات وساعات يوميًّا أقضيها في دورات التأهيل النفسي والتمرينات البدنية القاسية ومتابعة كل ما

هو جديد في دنيا الحروب.. وبهذا أنا أحارب معكم وضدكم بمنتهى القوة، واثق من انتصاري معتمدًا على مهاراتي التي اكتسبتها بالجهد والمثابرة.. ولكي نعطي لكل ذي حقٍّ حقه يجب ألَّا أنكر أهم أسباب صمودي في الحروب والانتصارات المتواصلة فيها.. فأهم الأسباب لذلك هي عشيقتي.

عشيقتي.. ما أجمل عشيقتي.. ما أحلى عشيقتي.. يالاستمتاعي بأني فقط أتحدث عنها.. ورجاءً قبل أن أعرِّفكم بها: أن تضعوا مقارنة بين مَن تعشقون في دنياكم وحروبكم وبين عشق حياتي الذي ليس له مثيل.. تخيلوا العشيق رمز الإخلاص والتفاني والتضحية.. تخيلوا العشيق الذي تنحصر الواجبات المطلوبة منك تجاهه فقط في إنفاق بعض الأموال ولا شيء غير ذلك.. فهذا يكفي ليكون لك بكل كيانه.. وحتى هذه الأموال ليست له! بل لمن يحيطون به في دنيتنا المادية ليتركوه لي ويكون ملكي.. أما هو فلا يطلب أي شيء سوى أن يحترق فتنتهي حياته لأجل أن يراني في حروبي مع الدنيا ساكنًا هادئًا ذكيًّا وشجاعًا.. لا تهتم عشيقتي بأي شيء يخصها مطلقًا.. فكل أهدافها في الحياة تنحصر في تحقيق أهدافي أنا.. رغباتي هي غاية ما تتمناه وتسعي جاهدة لتحقيقة.

ليس لها فرحة سوى أن تراني منطلقًا.. وليس لها فخرٌ إلا عندما تراني منتصرًا.. لا تفارقني أبدًا ولا تتوقف عن دعمي في أصعب الأوقات.. وكل ذلك يجبرني أن أجعلها تاج فوق رأسي وأضعها في كافة أثقل من كافة الكرة الأرضية وأولئك الذين يعيشون عليها.. وللعلم.. هذه ليست مثالية مني كعشيق مخلص.. وإنما هو رد فعل

طبيعي لما آخذه منها.. حقًّا يجب أن تعترفوا جميعًا بأنه لا يوجد من يملك عشيقًا كهذا سوى أنا.

وها هي الآن عشيقتي كعادتها تشاركني تدريباتي العسكرية حيث أجلس متأملًا نفسي والناس مدعومًا بنظراتها البريئة لي.. أرى الشر فيكم من وراء عمق نظراتها الصائبة.. أسمع ما يدور بداخلكم مستخدمًا مهارتها القوية في كشف الحقائق.. ولكي أشعر منها بأعظم معاني الرومانسية ليس عليَّ سوى أن أحيط خصرها الرقيق بإصبعيّ السبابة والوسطى.. ولكي تتحول لبركان حب يفيض بكرات نارٍ من العشق فمنتهى البساطة أقوم بألضغط على قدميها بإبهامي وبنصري ثم أرتفع بهم لأهبط مرة أخرى على قدميها الناعمة بالكامل.. بهذا أمتلك جلدها الساطع النقي الحساس.. فيكن شعوري هو اختراق جسدها الملتهب عشقًا بي.

ربما كل لحظاتي معها تقع تحت مسمى الفسق والفجور.. ولكن هكذا هو العشق وهذا هو حال من يعشق.. ويكفي أنها تستشهد كل يوم فداء لحبنا واسترخائي بها: إنها سيجارة الحشيش (جيوان الحشيش)، العشيق الهادئ الرزين الذي يصمت وقت احتياجي للصمت دون أن أطلب.. العشيق الناضج المثقف الذي يشرح لي الواقع بمنتهى المنطقية والدقة حين يكون تركيزي ليس بالشكل الكامل.. العشيق الذي يعطيني الوهم ويقنعني به لأخذ إجازة من التفكير فيكم فأستقوي على لحظات حزني، وفي أوقات الفرح هي العشيق المرح الذي يداعبني بحركات دخانه البهلوانية.. دائمًا ما أتأملكم من وراء نيران أطرافها المضيئة.. فتعيشون أنتم في عالم الدنيا موهومين ببعضكم البعض.. وأعيش أنا أعظم منكم في عالم الحقيقة.

والحشيش هو الذي سيسرد لكم حكاياتي.. وهذا هو الشيء الوحيد الذي سيضمن لكم المصداقية.. فلو سردت أنا حكاياتي فمن الطبيعي أن أنحاز لنفسي.. فأنا مثلي مثلكم: مغرور ولا أرى في نفسي إلا المميزات.. وعيوبي ليس لها مكان في قناعاتي.. أخطائي لا أفكر فيها إلا بعد تأملي أخطائكم لتكون من وجهة نظري مجرد نتاج لها.. باختصار أنا مثلي مثلكم لا أرى بداخلي سوى المبررات لأقنع نفسي بالإجبار أنني إنسان مثالي، ظلم الناس هو أكثر الأشياء إنارة أمام عيني فيساعدني بالخداع أن أضع نفسي دائمًا في موقع المظلوم فأتجنب موقع الظالم الذي أستحقه بالفعل وربما لا أستحق غيره.. أما سيجارة الحشيش فستسرد لكم على لساني بحيادية تامة كل حكاياتي التي سأعيشها.. وأيضًا ستفرغ لكم أول بأول كل ما سأشعر به من صفات إنسانية مزروعة في وجداني.. ومعها الصفات الأخرى غير الإنسانية على الإطلاق التي زُرعت بداخلي في الشهور السابقة وأتوقع أن يُزرع أبشع منها فيما تبقى لي من عمر.

(26)

وبالنسبة للتغيير الجذري الذي حدث لي في الشهور الماضية فقد بدأ سريعًا بمجرد أن استيقظت من حضن "أبرار" وهي في ذمة الله.. بداية التغيير كانت تماسُكي الزائد تجاه وفاة أمي وأبي.. أنا لم أحزن على أمي! لم أحزن على أبي! ولا أعلم كيف حدث هذا.. فقد تصرفت بإيجابية متبلدة من أي مشاعر.. وكأن ألماس وأبرار مجرد أشخاص رأيتهما صدفة في طريق إعتدت المرور منه.

دفنت ألماس وأبرار وأنهيت ليلة العزاء الأولى معلنًا للجميع أن العزاء يوم واحد وليس ثلاثة أيام.. وفي اليوم التالي ذهبت لوظيفتي في هيئة البريد بين نظرات مختلفة من الجميع.. أحدهم كان يتحدث لنفسه قائلًا: إيه الواد اللي ماعندوش دم ده؟!.. وآخَر تحدث لنفسه: ربنا يستر عليك يا روح شكلك لسه تحت تأثير الصدمة.. وآخر تحدث لنفسه: لا حول ولا قوة الا بالله الواد أبوه وأمه ماتوا تاني يوم كان نسيهم ومسك علبة سجاير في إيده بعد ما كان مابيقومش من على سجادة الصلاة.. وآخَر تهامس مع أحدهم: هو روح ماله ده شكله تعبان أوي؟ وبعدين إيه اللي نزّله؟ عادي تلاقيه ما استحملش يقعد في البيت لوحده.

والأهم في كل ما يتحدثون به لأنفسهم هو أني أصبحت أسمع ما يقوله كلٌّ منهم لنفسه..

بعد ميعاد العمل الرسمي ذهبت لأكمل يومي بالعمل على التاكسي.. أنهي يومي متجهًا نحو الكارتون المقوي المركون في آخر عشتنا الخشبية لأرقد عليه بعد أن أقفل (الشباك الكرتوني) فأمنع صوت مواسير المجاري من الدخول.. أغمض عينيّ ولكني لا أنام! سيجارة الحشيش ممتعة وأنا في وضع النوم مغمضًا عينيّ.. فهي تصنع حالة من الهبوط الحاد وكأني على بوادر الموت.. تدور الدنيا صغيرة بين جفوني فأنظر فيها من كل الاتجاهات.. ولذلك كنت أبذل مجهودًا فكريًّا ضخم أثناء دخولي عشتنا الخشبية في تلك أيام،

كنت أعلم أن هناك تغييرًا جذريًّا في حياتي، ولكني كنت أنتظر الحياة تقوم بدورها في توجيه الضربات لي لأكون أنا فقط صاحب رد فعل.. وهذا ما حدث بالفعل.. فبعد أسبوع تقريبًا بدأت كلمات الناس لي تحمل معاني كثيرة غير الشفقة أو الحب والمودة! كثيرٌ من معارف أبي وأمي يريدون توجيه كلمات مسجونة بداخلهم ومترددين في إطلاقها.. من المؤكد أن هناك أمرًا ما لا أعرفه.. وحين أوقعت أحدهم في الحديث ظهر لي ما ظهر "أمي كان عليها فلوس كتير استلفتها عشان مرض أبويا".

اتجهت لبدر في الجامع لأسأله عن كل ما يدور برأسي:

– أمي كانت بتجيب فلوس العلاج منين يا بدر؟

– بدر كده حاف من غير عم! مالك يا روح يا ابني؟

– أمي كانت بتجيب الفلوس منين؟ هي أكيد قالتلك وانت أكيد عارفهم كلهم بالظبط

لا أعلم إذا كنت أنا من توقفت عن الحديث أم أن بدر هو من

توقف عن النظر إليّ.. دقيقة من الصمت الممزوج بالفزع كان يتحدث فيها بدر لنفسه معبرًا عن قلقه من التغيير الواضح في أسلوب حديثي.

– قولي يا بدر كل حاجة بعد إذنك.

أعاد بدر نظره لي:

– أنا سددت لكل اللي أمك استلفته منهم ومش ناقص غير اتنين بالظبط.. بس مش دول بس إللي ليهم فلوس.

– سددت لمين؟ ومين تاني اللي ليه ؟ قولي فيه إيه يا بدر؟!

– أمك كانت رجعت تاني يا روح يا ابني.

– تفرش يعني وتبيع خضار؟ إزاي دي كانت مع أبويا طول اليوم في المستشفى.

– لا.. ما هي كانت بتفرش بس ماكانتش بتبيع بمعنى تبيع..

– ؟!

أطلق كلماته ببطء شديد مع بعض الرقي.. ولكنها اخترقت كياني كرصاصة من جندي احتلال لطفل رضيع.

– كانت بتحط شوية خضار قدامها وخلاص.. الناس هناك عارفينها وبيحبوها وكانو بيساعدوها.

– كانت بتشحت صح؟ كانت بتشحت يا بدر..

– يا ابني مش شحاتة بالمعنى ده.. عادي يعني الناس وقفت جنبها.

– كانت بتقول/ لله يا محسنين؟! هههههه أمي شحاتة يا بدر

– إستهدا بالله بس يا ابني وا.....

لن تهمني كلمات الشفقة التي سيتحدث بها بدر الآن .. لذلك تركته

دون حتى أن أشكره على تسديدة جزءًا من الدَّين وغادرت المسجد.. أنا لا أريد أن أهدأ.. أنطلقت حتى وجدت نفسي في الشارع العمومي بجانب "موقف الميكروباصات" في آخر شارع الإنتاج بمنطقة ألف مسكن حيث كانت تجلس أمي. تلقيت السلامات هناك من أصحاب المحلات والعاملين بها ثم جلست على الرصيف وكأني المسكين طالب الحَسَنة.. ولكن وجهي كان مرتفعًا وعيناي كانتا تنظران بشموخ لكل من يمر من أمامي.

هنا كنت أرقد طفلًا وصبيًا صغيرًا بجانب أمي آخذًا دفئي من بعض الكراتين الورقية المفروشة فوقي وتحتي.. هنا أتمت أمي الصبية الجميلة "أبرار" مراحل حياتها متحولة إلى الشحاتة أم روح.. ومن مكاني هذا أنهيت وضعي القديم في الحياة قبل موتي لأعلن عن وضعي الجديد.. أنا لست الشاب البار بوالديه المتفوق المجتهد الملتزم دينيًّا/ روح الله ألماس عبد الحي.. لا.. أنا الواد روح ابن الشحاتة أم روح.. ابن عم ألماس الزبال.. الراجل الغلبان المرمي في المستشفى مش لاقي ثَمَن العلاج ومراته بتشحت عليه.. وألماس وأبرار لدى ربهم الآن.. وأنا ابنهم وابن عائلة عبد الحي مازلت على قيد الحياة ومازلت أملك الكثير والكثير.

– إزيك يا روح.. عامل إيه يا حبيبي.. غصب عني ماجِتش العزا والله عرفت متأخر.

إنه عم حسن الدغيدي صاحب "قهوة الدغيدي" أشهر مقاهي المنطقة.

– الحمد لله يا "عم دغيدي" أنا كويس.

– الباقية في حياتك يا ابني.

– حياتك الباقية.

– أمك يا ابني كان ليها في ذمتي الفلوس دي.

– كلك واجب يا "عم دغيدي" بس أنا ما باخدش حسنة.

– إنت فاهم غلط يا ابني دي مش حسنة.

أظن من نبرة صوته أنه يتحدث بصدق.. ولكن كيف تدين أمي عم دغيدي.

– دي كانت راحت ساعدت أم العيال في توضيب البيت وأنا ماكنتش موجود وأم العيال ماكانش معاها فلوس تحاسبها.

– هي أمي كانت بتخدم عندكم؟

– لا مش بتخدم يعني بمعنى تخدم.. بس أم العيال حامل زي ما إنت عارف وأم "روح" الله يباركلها كانت بتساعدها في الحاجات الصعبة.. تشيل معاها حاجة تقيلة.. توطي بدالها وتمسح ولا مؤاخذة قعدة الحمَّام.

– أبرار كانت بتمسح قاعدة الحمام؟!

– أيوا عاد.....

– شكرًا يا عم دغيدي أنا مسامح واعتبر الفلوس وصلت.

– يا ابني ده حقك.

– شكرًا يا عم دغيدي.

بعض الردود السخيفة مني أجبرت عم دغيدي على تركي والرحيل بعيدًا عني.. وها أنا لن أتعجب كثيرًا ولن أهرب من واقعي.. لن أستسلم لتلك الحياة.. لن أترك أبنائي يرثون مني إرثي المقدر عليَّ منذ

استسلام أجدادي له.. سأنجب ذرية لها علو الشأن بين البشر محتلة المكانة الأعلى في الحياة.

جلست مكاني أخطط وأرسم لحياتي الجديدة.. حياتي التي يجب أن تكون واقعًا.

إنه النجاح بين الناس.. مرحى بهذا.. فما أسهله بالنسبة لي.. ليس عليّ فعل شيء سوى أن أتجاهل المبادئ والأخلاق وأضعها جانبًا.. لا أضع للرحمة أي اعتبارات في حياتي.. سألعن صفة الجدعنة كلما أشعر بشهوتي تجاهها.. تبأ لها تلك الجدعنة التي نولد بها كمصريين ونموت شهداء لها بأمراض السكر والضغط!

لكل منا لحظات في بداية حياته بدأ منها الوعي وكانت فيها بداية حياتي.. وبداية حياتي كانت معاناتي في نومي على هذه الكرتونة.. من هذه الكرتونة بدأت حياتي السابقة الحياة المنتظرة بمستقبل بائس فاشل.. وها أنا الآن في روحي الجديدة أبدأها أيضًا من على نفس الكرتونة.. نفس الجسد.. ولكنه عاد لي من جديد جسدًا شديدًا عفيًّا لشاب في أوائل العشرينيات.. بعد أن مرت عليه في الحياة أكثر من ستين عامًا في أوقح أزمنة مسجلة لحياة البشر على كوكب الأرض حيث حيث شجرة الأمل تثمر يأسًا وشجرة الإصرار تثمر تهلكة وفي النهاية تثمر شجرة الشقاء خيبة أمل.

لمحت قطعة الكرتون القديمة التي كنت أجلس عليها بجانب أبرار في صغري في نفس المكان.. قطعت منها جزءًا لا يتعدى مساحة كف يديّ.. وذهبت متجهًا لعشتنا الخشبية وأنا منخرط في البداية.. البداية الجديدة.. الهندسة هي شهادتي.. سأستخدمها فورًا بمجرد وصولي للعشتنا الخشبية تحت السلم.. ولن أستخدم الهندسة وكورساتي فيها

للتعيين في شركة أو حتى البحث عن أي عملٍ.. بل سأستخدم الهندسة وبراعتي فيها بأن أصنع لنفسي نظريتي الخاصة في الحياة.

وبالفعل بمجرد أن وصلت ألقيت بالقلم بين يدي ممسكًا قطعة الكرتون باليد الأخرى لأبدأ في رسم تلك النظرية بسرعة غريبة وكأن أحدًا من أبناء الجن يحرك يدي.

النظرية/

المشكلة: أنا أريد النجاح والنجاح في ذلك الزمن أمر في غاية الصعوبة

توضيح تحليلي: النجاح جزء من دائرة ممتلئة بالرغبات الحية غير الميتة.. ولذلك لا يعرف الضعفاء عن النجاح سوى أنه شيء صعبٌ وليس سهلًا بالمرة.. ولذلك هم لا يسعون مطلقًا لتحقيق رغباتهم.

المعطيات ونتائجها:

1/ بما أن تحقيق الهدف أمرٌ صعب.. إذًا هناك طرق كثيرة ومختلفة لتحقيقه.

2/ بما أن الهدف له طرق مختلفة.. إذًا من المؤكد أن من ضمنها طرقًا سهلة ولا تحتاج سوى توفير بعض التضحيات بالمبادئ والقيم الأخلاقية والإنسانية.

3/ بما إني إنسان وله العقل المدبر.. إذا أستطيع أن أختار الطرق السهلة ودفع كل التضحيات المطلوبة حتى لو كانت تتعارض مع المبادئ والقيم الأخلاقية والإنسانية.

4/ بما إني قررت عدم التحلي بأي مبادئ على الإطلاق.. إذًا فمن السهل أن أضحي بأي شيءٍ يسبب عقبات في الطريق إلى الهدف.

بجمع المعطيات 1و 2و 3و 4 نجد أن الهدف الصعب تحقيقه هو في الأساس من أسهل الأهداف التي يمكن أن تتحقق بمنتهى البساطة إذا تخلى المرء عن أي مبادئ إنسانية تعوق ذلك.

النتيجة: لا يوجد أسهل من النجاح لكل من يريد حقًّا أن ينجح وليس لمن يتمناه فقط.

بالرغم من أني لم أجد حتى الآن من يفهم تلك النظرية.. إلا أني جعلتها نظريتي وربما هي المبدأ الوحيد المؤمن به في الحياة.

كان الطريق الصحيح يحتاج بعض الوقت لأصل له فهو طريق خطر أقوم فيه بتغيير حياتي رأسًا على عقب.. وغيري في مثل هذا الموقف ينتظر ليفكر أكثر وأكثر.. أما أنا فقد أزحت التردد من قراراتي بشكل نهائي.. ولذلك تحركت سريعًا وذهبت لتقديم استقالتي من الوظيفة الحكومية وأبلغت صاحب "التاكسي" أني لن أعمل عليه مرة أخرى.. وبهذا حسمت الأمر وأصبح لا مفر أمامي من الانطلاق في طريقي الجديد.. وبالرغم من أنني لا أعرف أي ملامح عنه.

انطلقت لأتعلم الأكثر والأكثر عن حياة الشارع.. ساعدني على ذلك حب أهل الحي لي.. صرت أتقرَّب أكثر لأولئك المعروفين باسم "العيال الصيع بتوع النواصي" فربما يساعدني الدخول بينهم على إنجاز الكثير من أهدافي.. فهم يتسمون بالشجاعة الكبيرة في فعل أي شيء دون الخوف من أي مخاطر.. وما جعلهم فئة فاشلة مضرة لنفسها ولأهلها والمجتمع هي أنهم محدودو التفكر ولا يملكون أي قدرات إبداعية.. وهذا ما يجعل الفشل طريقهم المحتوم.. وأنا لن أتعلم منهم إلا ما يصلح لي فقط:الشجاعة، والإقدام دون الخوف من أي مخاطر.

وأما عن سلبياتهم فأنا من الأساس محصن ضدها حيث أملك القوة الفكرية والقدرات الإبداعية ولا أحتاج لمزيد منها.

ولكي أستطيع التعايش كان يجب عليَّ العمل في مهنة تليق بوضعي الجديد.. فكانت المهنة التي لم أتوقعها أبدًا لنفسي في أي يومٍ من الأيام؛ إنها مهنة عامل في محل لتأجير أدوات إقامة الأفراح "عامل في محل فراشة" يبدأ يومي منذ الصباح حيث كان دوري في إقامة أي فرح هو الدور الأول وتعتمد عليه باقي الأدوار.. وهو ربما له علاقة لسيت ببعيدة بشهادتي وتخصصي.. شهادة الهندسة.. فقد كان دوري أن أضع علامات تأسيس مسرح من الخشب لتقف عليه الفِرَق الغنائية أثناء الفرح ليلًا مع الراقصة.. أضع الأساس بعلامات مستخدمًا بعض الحجارة المتكسرة بالشارع.. ثم أبدأ في الحفر في الأرض لتثبيت قطع الخشب ومن ثم ينتهي دوري الفعلي يدويًا ويأتي دوري الإشرافي أكثر من أي شيء.. وهو أن أتابع رفقائي في العمل، الجهلاء عديمي الفكر وهم يكملون بناء المسرح الخشبي لأضمن تماسكه.. فهم بمفردهم دون متابعتي من المؤكد سيخطئون، وربما الخطأ تصل عواقبه إلى وقوع المسرح بمن يقف عليه.

هذا ما جعلني مهمًّا لدى صاحب المحل"الحاج أسواني" منذ بداية العمل معه.. فأنا صاحب فكر هندسي قوي لبناء المسرح يعتمد على التقنية والمقاسات المحسوبة وليس "بالبركة" كما كان قبلي.

دخلي أصبح معقولًا لحد ما، صباحًا أقوم بنصف عملي؛ حيث أحفر في الأرض وأرقام للعاملين أماكن الحفر.. ثم أذهب لشراء الاصطباحة: مخدر الحشيش.. وهذا ما أسهله بالنسبة لي حيث أن معظم الشوارع مكتظة ببائعي الحشيش.. أقوم بتجهيز "جيوان" واحد

فقط من الحشيش وأترك الباقي كما هو.. وأعود لمواصلة باقي عملي حيث أشرف فقط على رفاقي الجهلاء في العمل وأنا أشرب "جيوان" الحشيش.. وبعد العمل الذي غالبًا ما ينتهي عصرًا، أذهب لأيٍّ من "الصيع" أصدقائي للوقوف بجانبهم على النواصي.. أتابع بنات الحي ولا مانع من بعض الألفاظ الموجهة مني لهن تعبيرًا عن جمالهن أو بالأصح جمال أجسادهم.. هذا مع تعاطي ما تبقى معي من مخدرات بالمشاركة مع أصدقاء السوء.. حيث أن كل فردٍ منا لا يبخل بكل ما معه من أي نوع من أنواع المخدرات.. هذا ما يجعلنا دائمًا لدينا ما نتعاطاه.

وربما تستغربون من كلامي هذا، حيث أمدح أصدقاءِ السوء، ولكني أفضِّل أن أفصل دائمًا بين الأمور حتى تضح لي الصورة بشكلها الحقيقي.. فأنا أعلم جيدًا: أنهم أصدقاء سوء.. لكني أيضًا أرى كيف يقفون بجانب بعضهم البعض، كما أن أحدًا منهم لا يتردد في أن يضحي بنفسه من أجل أصدقائه.

(العطاء، الاتحاد، التضحية) إنها صفات إيجابية يفتقدها أهل هذا الزمان، فحتى وإن كان العطاء هو مخدرات تصل بهم إلى التهلكة.. وحتى وإن كان الاتحاد في سرقة محل بمهارة.. وحتى وإن كانت التضحية في مشاجرة بمنتهى البسالة. فهم لا ذنب لهم في استخدامها بالشكل بالخاطئ! فمن المؤكد أن هناك من كان السبب في ذلك وعدم استثماره فيهم، وأقل ما يقال هو أن تلك الصفات لو كانت لدى كل البشر لما كانت كل تلك الحروب القذرة التي نعيش فيها.. وما كان هؤلاء "الصيع" على هذا الحال من الأساس.

(27)

في أفراحنا الشعبية يأتي تاجر البيرة للفرح بعد الأتفاق مع صاحبه.. يحمل صناديق البيرة محمَّلة برضا الشيطان.. ليبدأ الضيوف والحاضرون في الشراء.. فالجميع في حالة من النشوة بفعل مخدر الحشيش الذي لا يحلو حضور الأفراح بدونه.. وما أحلى شرب البيرة مع مخدر الحشيش فهذا هو قمة السمو فوق حقائق الدنيا الموجعة.

إنها حقًّا الخطوة المناسبة لي الآن: بيع الخمور في الأفراح. عندما قررت الدخول في هذا المجال كنت أعلم جيدًا أن الشيطان يختار أصحاب المعاصي ليزيدهم من نعيم الدنيا.. والسبب معلوم للجميع.. وهو أن نعيم الدنيا الحرام يزيد من هلاك الآخرة.. ولهذا سأفعل حرامًا أكثر وأكثر.. وعن عذاب الآخرة، فلدي عمرٌ طويل أستطيع قبل أن ينتهي أن أكفِّر فيه عن ذنوبي.. وسأعتمد على أن مغفرة المولى الواسعة.. وتلك المغفرة تزيد نسبة أن يعطيني الله عز وجل الفرصة لأتوب قبل أن أغادر الحياة.. كم أشتاق للحظة أدرك فيها أني رجلٌ عجوز يترك كل شيء بعد النجاح ليرتدي ذلك الزي الأبيض الخالص وأسبح به في بحر الكعبة والحرم المكي.. فمما لا شك فيه أنني إذا اجتزت هذه المرحلة سأظل على تلك التوبة والرجوع عن المعصية بشكل نهائي لأفوز بالرحمة من عذاب الآخرة الأبدي.. أما الآن فأنا

أقوم بالطمع في الحرام ليساعدني الشيطان في ذلك.. أنا فقط أخدع الشيطان الآن لأصنع مستقبلًا لذريتي وأغيِّر مسار عائلتي المهمشة في أقصي مراحل اشمئزاز البشر.. وربما المجازفة هنا هي: هل سأرزق بالعمر الكافي لأصنع ما أريد ثم أتوب قبل الموت.. أم أني سأموت على تلك المعصية؟

قمت بتكوين جماعة من المتسولين أصدقائي، استطعت في وقتٍ قياسي أن أحفر في الأرض لأثبت قدميّ في عالم بيع الخمور وزجاجات البيرة في الأفراح.

وبهذا جاءت أخيرًا الأموال الحرام التي اشتقت لها.. نعم.. أنا الآن أعيش من الحرام، ولكن المشكلة أنه مجرد دخل كبير.. دخل كبير فقط! وليس دخل كبيرًا جدًّا.. فمن الغباء أن أفعل السيئات وأقوم بعمل يغضب ربي من أجل حفنة من الأموال البسيطة.. ولذلك كان يجب أن أتدبر حلًّا لتلك المشكلة.. وبالفعل بدأت في الدعم لمشروعي بحرمانية أكثر وأكثر.

دلو ضخم في المخزن.. كمية كبيرة من المياه الغازية.. ومفك، ومطرقة لتكسير الثلج.. في صباح كل يوم نسكب المياه الغازية في الدلو ليمتلئ حتى منتصفه.. ونكمل النصف الآخر من الماء.. والآن الخلطة جاهزة للاستخدام.. نقوم بفتح زجاجات البيرة باستخدام المفك، ونسكب نصف محتواها في زجاجة بيرة فارغة.. فيصبح لدينا زجاجتان مملوءتان حتى منتصفيهما فقط.. نكمل كل زجاجة منهما من الدلو ثم نعيد إقفالهما مرة أخرى بإستخدام مطرقة الثلج.. وآلان أصبحت البضاعة مضاعفة.. ولن يشعر زبوني مشتري بضاعتي بأي تغيير حيث أنه تحت تأثير مخدر الحشيش من قبل أن يبدأ بشُرب

زجاجاتي من الأساس.. ولا أظن أن الفرق كبير بين بيع المنكر والغش في بيعه!

صرت من أصحاب الأموال، ولكن ليس من أصحاب الثروات.. والفرق شاسع.. فبدون تكوين ثروة ضخمة ستكون حياتي بلا أي فائدة.. فقد كسرت قضبان الأناس التقليدين الذين يكتفون بتحقيق أي جزء من أهدافهم ليستمتعوا به ويتكاسلوا عن السعي لتحقيق ما تبقى.. وهذا بالنسبة لي بمثابة الفشل الذي لن أسمح به مطلقًا.

ولذلك كسرت قاعدة مهمة، كنت قد قررت التمسك بها في السابق.. وهي: نظرية الحرام القانوني.. والنظرية ببساطة: هي كل فعل حرام لا يعاقب عليه القانون. ولكني مجبر الأن أن أخترق تلك النظرية وأقوم بفعل الأشياء سواء كانت حلالًا أو حرامًا.. سواء قانونية أو ضد القانون.. وتبًا للمخاطر أينما وجدت.

❊ ❊ ❊

(28)

حتى نفاد الكمية.. تذكرتان "بودرة" بسرعة تذكرة واحدة فقط، هذا ما نشرته بين صغار تجار بودرة الهيروين في مربعي السكني وهو ما نسميه "بيسة" و "البيسة" هي أشهر أنواع مخدر البودرة في مصر ويؤخذ عن طريق الحقن في الوريد بعدما يعصر عليه ليمونة ويضاف معه محلول مائي.. لمدة عام كامل استمرت خطة الدعاية بنجاح، قمت فيها ببيع كمية بودرة بمبالغ خيالية فاقت كل ما كنت أتوقعه.. حيث أصبحتُ أخيرًا من أصحاب الأملاك.. وكانت أولهم عمارة سكنية في شارع رئيسي هام وحيوي جدًا بحينا السكني.. وبعد شهرين فقط كنت قد انتهيت من إبرام بعض الاتفاقات القذرة مع سكان العمارة وبعض المسئولين في الحي وقسم الشرطة التابع للحي.. وتم هدم العمارة.. وبعد أن كانت أربعة أدوار أصبحت اثني عشر دورًا.. والآن أصبحت البناية جاهزة لاستدراج "معلمين" المنطقة وأثريائها.. فتلك الفئة تبحث دائمًا عن المنزل المميز بموقعه وضخامة مساحته بشرط أن يكون في نفس المربع السكني المتواجد به.. كعَمّ "حسن الدغيدي" علي سبيل المثال الذي يستطيع أن يسكن أرقى وأغلى أحياء القاهرة إلا أنه لا يستطيع البعد عن المقهى الخاص به.

أنا لا أقع في أخطاء الأغبياء.. وفي مجال تجارة المخدرات يشتهر سريعًا من كانت أسعاره مقبولة.. وأنا أسعاري كانت شِبه خيالية.. إن

أكملت في هذا المجال فمن الطبيعي أن أقع في قبضة الشرطة.. لذلك توقفت بشكل نهائي كما كنت أخطط.

وعن السر وراء بيعي مخدر البودرة بهذا الثمن الزهيد فلم يعرفه أحد حتى الآن.. باستثناء "حمدي" ذلك الشاب البارع الذي لن يعرف المجتمع قيمة عبقريته.. قصته كقصتي تمامًا حيث تخرج من كلية العلوم قسم كمياء.. وحينها بدأ العمل في محل "عم أسواني" وحتى تعرفت عليه هناك ورأيت فيه الإبداع العلمي، والحماس للنجاح؛ ولذلك قررت الاستعانة به.. أستفيد من خبرته.. ويستفيد هو من عائد مادي أضعاف ما كان يحصل عليه.

وكان حمدي صاحب الفكرة بعد أن أخبرني بما لم يكن لي علمًا به؛ وهو أن مخدرات البودرة لها أنواع كثيرة وأن أغلاها ثمنها هو "الكوكايين" حيث يجب أن تكن مكوناته كلها خام.. ولذلك الكوكايين مخدر نادر وجودة في مصر الا لأبناء الطبقات الراقية فقط.. وأخبرني أيضًا أن شيوع مخدر بودرة الهيروين والبيسة بسبب إمكانية الغش في تكويناتهم مما سمح مع الوقت بتقليص أسعارهم الرسمية بين مدمنين الوطن التعساء. ومن هنا جاءت الفكرة العبقرية بعد أن أكد لي "حمدي" أن "تذكرة البيسة" إن قُسِّمت على "تذاكر" وتم إضافة مسحوق من حبات بعض الأدوية المطحونة.. سواء كانت أدوية للنزلات الشعبية أو مسكنات الألم .. ستصبح تكلفة "التذكرة" أقل من نصف القيمة الحقيقة للتذكرة.. ولن يشعر متعاطيها بأي تغيير.

وقمنا بهذا ولكن بعد إضافة إبداع خاص بنا يزيد أرباحنا أكثر وأكثر وهو: وضع بعض نشارات الأسنمت الأبيض المستخدم في دهانات الحوائط بدل من مسحوق الأدوية.. ونجحت التجربة نجاحًا

مهولًا حيث أحَبَّ المدمنون ذلك كثيرًا وبدأت عمليات المدح والشكر في بضائعنا "الإصطف".

وها هو وقت السُّلطة لزيادة السرعة في معدل زيادة أموالي وتبدأ في التضخم.. فلا شك أن السُّلطة هي العامل المساعد الأول لتصبح أموالي "ثروة طائلة".. ولا أظن أن هناك في العالم ثروة بدون سُلطة.

نجل أحد أعضاء مجلس الشعب عن دائرة بها أرقى أحياء القاهرة.. كان من أهم عملائي المواظبين على شراء البودرة بشكل يومي.. وقد وطدت علاقتي به بالكثير من المجاملات.. أُرسل طلباته من البودرة حيث يكن، دون أن يتحرك، دون أي مصاريف إضافية.. فقد كنت أعلم أنه خطوة هامة لي سأحتاج أن أخطوها.. وقد جاء الوقت المناسب.

كنت قبل أن أترك التجارة في البودرة أشيع لكل من أعرفهم أن هذا العضو هو شريكي في تجارتي بالمخدرات.. وأنه يرسل ابنه بدلًا منه لعقد الاتفاقات معي ومراجعة الأرباح ومتابعة العمل.. وهي الخطة التي نجحت بالفعل.. فقد ساءت سُمعة هذا العضو.. أصبحت تتحدث العامة عن كونه عضو مجلس الشعب الفاسد الذي يستخدم منصبه في تجارة المخدرات.. والحقيقة أني لم أظلمه! فبالرغم من أنه لا يتاجر في المخدرات إلا أنه بالفعل عضو مجلس شعب فاسد وله الكثير من التصرفات المخزية التي ينجح دائمًا في أن يخفيها.

وقد أصبحت الانتخابات على الأبواب.. إنه الوقت المناسب للانطلاق.. تحدثت لابنه وأخبرته أني أرى في سمعة أبيه ما يعيق نجاحه في انتخابات مجلس الشعب في هذه الفترة.. وعرضت عليه المساعدة.. وأني أستطيع ضمان عددٍ كافٍ من الأصوات الانتخابية التي تستطيع أن تنجحه.. وجاءني الرد سريعًا بعد ساعات قليلة.

"بابا عايز يقعد معاك".

ذهبت.. وجلست مع العضو المبجل الضار للوطن والمجتمع.. وعرضت عليه بوضوح خدماتي.. وكان من الطبيعي أن يرحب بالأمر.. خصوصًا أني لم أطلب أي مقابل.. كل ما طلبته هو أن يكون "في ظهري" بعدما ينجح في انتخاباته.. وحبذا لو كان هناك أي مشروع يرى أنه يناسبني فيوكله لي ويجعل أرباحه من نصيبي.. لم آخذ منه أي ضمانات وتركته وذهبت.. وعن عدم أخذ أي ضمانات فهذا شيء لا يهم لأن معي الضمان الأكبر.. إن عضو مجلس الشعب يعلم جيدًا أن خديعته لي ستجعلنا أعداء.. وعداوة هذا الرجل المحترم الوقور أمام الناس مع رجلٍ مثلي من المؤكد أنها ستقده الكثير.

بدأت نشاطي في دعم هذا الرجل الفاسد، وكان بعض أنواع المخدرات كافيًا لاستدراج شباب الحي التابع له وضمان أصواتهم.. بل أيضآ أصوات أُسرِهم وكل من حولهم.. فقد كنت أعدهم بالجوائز في حالة نجاحه.. تذكرة بودرة مغشوشة أو قطعة من الحشيش المرشوش عليها بعض أنواع الحبوب والعقاقير.. وكان هذا كافيًا لإنجاح ذلك الفاسد في إنتخاباته. وبعد نجاحه بدأت أحصد الجوائز.

تليفونات من "د. عبد الحميد درغام" عضو مجلس الشعب تفيدني بوجود مبانٍ هالكة واقعة في دائرته.. وليس عليَّ سوى أن أذهب لأشتريها.. وفي أياما قليلة (وأسهل من السابق بالكثير) أقوم بالهدم بدون أي مشاكل.. بل وأحيانًا كانت تأتي وفودٌ من قسم الشرطة لتطمئن على أخبار عملية الهدم. أعطي السيد (عبد الحميد درغام) نسبته ال 10% من الأرباح.. أما عن باقي الأرباح فكان يُزيد ثروتي

التي تضخمت بالفعل.. تضخمت حتى إني أصبحت مضطرًا لتأسيس شركة وتعيين بعض المحاسبين بها لإدراة أعمالي.

ولم تكن الشركة خاصة بالمقاولات فقط.. فقد كنت أعرف ما سأفعله قريبًا: إنه مشروع تنوير شوارع الحي بعمدان الإنارة الذي دخلت في مناقصة لأتولى وضعها في الشوارع بمساعدة "عبد الحميد درغام"، وقبل أن أنتهي من وضع العمدان في الشارع أخذت صفقة أخرى من الحكومة.. وهي بناء كوبري.. ربما ليس للكوبري أي فائدة.. فهو كوبري وجوده مثل عدمه.. ولكن بالنسبة لي الفرق كبير.. فهو الكوبري الذي كتبت مواصفات له تعهدت بها.. ولم أنفّذ منها إلا القليل.

❊ ❊ ❊

(29)

وفي يومٍ ما.. اتصل بي أحدهم ليخبرني عن زبون يريد شراء شقة في العقار الذي أقوم ببنائه مؤخرًا.. كان يومًا تقليديًّا ومهمة تقليدية.. وكان من الطبيعي أن يذهب أحد موظفيني المسئولين عن ذلك.. ولكني أهوى القيام ببعض الأعمال غير التقليدية من حين لآخر لأتخلص من أي حالة ملل.. انطلقت نحو العقار وركنت السيارة لأصطدم بما لم يكن في الحسبان.

فمنذ عودتي من الموت كان كل ما يحدث وما أراه وما يفعله الآخرون ليس إلا مجرد خطوات أفكر فيها لحظات لأتعامل معها بالشكل الصحيح.. أما الآن فقد رأيت ما جعلني لأول مرة في حياتي الجديدة أصاب بالذهول.. الآن فقط في حياتي الجديدة أشعر بالارتباك.. إنها صفية.. حبيبتي.. عشيقتي.. زوجتي.. رفيقة دربي.. أم أولادي.. الصدر الحنون الذي لطالما كنت أختبئ فيه من الدنيا.. طيلة العِشرة بيننا أربعون سنة أو أقل بقليل،

لا أعرف أحدًا من سكان العالم غيرها.. لم يفهمني بشريٌّ إلا هي.. لا..! لا بُد أنها ليست هي.. فمن المؤكد أن هذا مجرد خلل طبيعي في وظائف المخ يجعلني أسترجع حلمي وما دار فيه لأشعر أنه واقع.. أو ربما هي صدفة عادية أن أرى فتاة رأيت من يشبهها في حلم لي.

كانت تقف بجانب والدها الذي رأيت فيه من الوهلة الأولى مهابةً قويةً، وبالتمعن به وجدت نظراته الحادة تلمع دون أي احترام لأشعة الشمس القوية، من المؤكد أن هذا الرجل يملك من القوة ما يجعله لا يتنازل عن الكبرياء أو حتى يستخدم الانحناء كوسيلة للاحترام.

وقفت أمامه محاوِلًا الثبات بعض الشيء معتمدًا على ما تبقى من آثار سيجارة الحشيش التي أدخلتها لرئتي منذ قليل.. وباتت دقائق طويلة مملة يتحدث فيها والد صفية عن مواصفات المكان:

– بس مش هنلاقي مكان نركن العربية. هو مفيش غير الدور الثالث والرابع؟ هي 120 متر صافي ولّا بالمنور والبلكونة؟ هو العدَّاد راكب صح؟

مجرد أصوات لا تعني لي شيئًا سوى أنها حالة "وش دنيوي".. تجمدت كل حواسي واتحدت مع قلبي لأشعر بوجود صفية فقط لا غير.. قُربها منّي، متر أو متران على الأكثر هي المسافة التي تمنع جسدي من اختطاف جسدها.. أنهار كليًّا والأدرينالين ينفجر من خلايا.. شفتاي متلهفتان لالتهام تفاصيلها.. تكاد سيجارتي غير المشتعلة أن تتلف من كثرة الضغط عليها بأطراف إصبعيَّ مفرغًا في أوراقها الرقيقة كل الطاقة البركانية المتفجرة من خواصي الذكورية.. حقًّا كم تعاني معي كثيرًا علبة سجائري في تلك الحياة المختلة التي أعيشها.

شعرت بأني في مأزق.. وليس هناك سوى حلٍّ وحيدٍ.. وهو أن أشعل سيجارتي مختبئًا وراء نظارتي الشمسية.. فبهذا فقط سأعود لاتزاني ومكري ودهائي مرة أخرى.. وبهذا أيضًا سأستطيع أن أتجاهل وجود صفية بالقرب مني ولو لدقائق معدودة أخرى حتى أنتهي من ذلك "الوش الدنيوي" الذي يريدني والد صفية أن أخوضه معه.

بدأت علامات التعجب تظهر في نظرات والد صفية من كوني صامتًا لا أبوح بكلمة.. وكان هذا هو الوقت المناسب لإطلاق كلماتي المختلة في وجهه.

– ممكن بعد إذن حضرتك كلمة صغيرة على انفراد.

توقف والد صفية عن حديثه ونظر إليّ وفي عينيه بعض الفضول المشوب بالقلق حيال ما سوف أقوله له،

– تحت أمرك يافندم، إتفضل.

للأسف زادت عدد الأمتار التي تفرّق بيني وبين صفية، حيث إبتعدت عنها متحدثًا لأبيها.

– بُص حضرتك موضوع الشقة ده مش مهم خالص.. أي شقة في أي عمارة عندي ممكن حضرتك تعتبرها بتاعتك وبأي سعر حضرتك تحدده.

– شكرًا ده من ذوقك.

– لأ أنا مش بقول كلام بايع لمشتري.. أنا بتكلم بجد.

– اسمحلي مش فاهم حاجة!

– أنا اسمي روح.. روح ألماس وزي ما حضرتك شايف كده أنا بشتغل في المقاولات والحمد لله ربنا كرمني.

– تمام ربنا يوف...

– بنت حضرتك اسمها صفية؟

– إنت عايز إيه يا ابني ومالها صفية وتعرفها منين؟

– لأ أنا أعرفها من زمان.. لا لا معلش.. أقصد ما أعرفهاش أنا بس طالب من حضرتك إني أتجوزها؟

– إيه يا ابني اللي بتقوله ده؟! إنت تعرفها منين؟! وكمان ده مكان تتكلم فيه في حاجات زي كده، إحنا في الشارع..

– حضرتك أنا آسف إني بتكلم وإحنا واقفين في الشارع.. بس ببساطة أنا راجل مش بتاع "حوارات" وفي مواقفي بحب أبقي دوغري.. ولما شُفت بنت حضرتك حسيت إنها الوحيدة المناسبة عشان تبقى مراتي.. فأقل حاجة ممكن أعملها إني أعرَّف حضرتك في نفس اللحظة احترامًا ليك.. ادخلوا البيوت من أبوابها حضرتك.. ولا إيه؟.

مع تلك الكلمات التي أخرجتها مصطحبة لزفير سيجارتي ظهر التوتر ليتمكن من والد صفية.. إنها روعة ماركة "علبة السجائر" التي تعودت أن أشربها قد نجحت في القضاء على اتزان ذلك الرجل المهاب ذي الشخصية العفية،

– طيب أنا مش عارف أقولك إيه بس...

– ممكن حضرتك تسمحلي أسألها أنا؟

– إنت متأكد إنك ما تعرفش صفية قبل كده! وأصلًا عرفت اسمها منين؟! فهمني!

– سعادتك أنا فعلًا ما أعرفهاش وسمعت حضرتك بتنده عليها وقُلت صفية.. فسألتك عشان كنت عايز أتأكد من الاسم.

– !! تمام تمام

– طيب مادام تمام.. ممكن أروح أسألها أنا بقى؟

– !!

– ممكن؟

– طيب استنى أفاتحها أنا.

– هفاتحها أنا مافيهاش مشكلة.. بلاش يبقى الموضوع رسمي كده.. معلش.

– !

– ممكن؟ صح؟ ماشي شكرًا جدًّا لحضرتك.

تركته دون أن أهتم لرده.. فقد أضاع دقائق هامة من عمري، كان يجب أن تكون من أجل صفية فقط! ولذلك كان لا بُد من بعض الحسم أو ما نسميه في عصرنا (شوية غتاتة)، فقط أعطيته ظهري وإتجهت لصفية وكأني أخذت منه الموافقة.. وبالرغم من يقيني من أنه ينظر إليَّ الآن متعجبًا مما أفعله.. ولكن هذا أنا وهذه هي طريقتي. وعليه أن يتقبل هذا كما سيتقبل أيضًا أني سأصبح زوج لإبنته.

– لو سمحتِ يا صفية عايز أقولك على حاجة.

– صفية؟!

– أنا غلطت في حاجة؟

– لا بس انت ماتعرفنيش عشان تكلمني كده من غير ما تقولي حتى يا آنسة؟!

لم أهتم لما تقول.. فقد كنت أعرفه قبل أن تلفظ به ولكني أجبتها فقط لتهدأ بعض الشيء وتتهيأ لما سأقوله لها:

– معلش آسف إني قُلت صفية من غير آنسة.. المهم إنتِ عندك كام سنة؟

– وانت مالك!

– عشرين سنة صح؟

تأرجحت عيناها يمينًا ويسارًا:

– آه عشرين بس أظن إن باين عليَّ إن ماعنديش خمسين سنة.. إنت سخيف.. وما أبهرتنيش على فكرة.

– إنتِ عارفة إن دي مش أول مرة أشوفك..

– آاااه ونفضل نفتكر بقي شُفتني فين والمفروض إني كده هحبك ونتصاحب وانت جامد بقى ووقعتني وكده.

– لا أنا أصلًا فاكر.. بس مش هلحق أفكرك.. معقولة أفكرك بأربعين سنة حب.. إنتِ كنتِ أعظم عشيقة وأنبل زوجة.. عمري ما كنت هعرف أعيش إلا لو كنتِ معايا.

– إنت مجنون؟

– أه.. وعايز أعيش معاكِ تاني.

– إيه اللي انت بتقوله ده.. أنا مش فاهمة من...

– أربعين سنة كمان.. مش عارف هيكونوا أربعين برضو ولا ربنا كاتب عمر أقل.. المهم إني هعيشه في حضنك.

– حضني إيه يا قليل الأدب.

– هتعيشي في حضني وهعيش في حضنك يا صفية.. لا مش "ياصفية".. يا عشيقتي.. حلو كده إستريحتي.

– عشيقتي إيه يا متخلف انت..

– أنا اتغيرت.. صدقيني هعملك كل اللي كان نفسك فيه.

– إنت مين بالظبط وعايز إيه؟

– يووه.. تاني! أنا اللي عِشت معاكِ أجمل أربعين سنة.

– أربعين سنة إيه إنت شكلك أصلًا ماكملتش التلاتين.

– عندي 28 يا صفية.. أنا أكبر منك ب 8سنين بس.. إنتِ ناسية ولّا إيه؟

– ناسيه إيه هو أنا أعرفك أصلًا عشا...

قاطعتها لنفاد صبري كوني أحدثها وكأنني غريب عنها.. تبًّا..

– كفاية كلام بقي! فيه إيه؟! إنتِ عشيقتي، عشيقتي الجميلة، ومراتي الحنينة، وأم ولادي الأصيلة وغصب عنك هتديني وقت تفهمي.

انكمش وجهها خجلًا وعرقت مسامها.. ثم اتسعت عيناها تعجبًا لما أقول.. استدارت مبتعدة عني خطوتين.. توقفت ونظرت للأعلى وكأنها تهرب من عيني خجلًا، كما كانت في بداية معرفتي بها منذ أربعين عامًا.. وأخيرا.. نظرت إليّ نظرة الحب التي أشتاق لها كجنين يشتاق العودة لرحم أمه وترك عالمنا القذر خارجه.

– ياريتني هدّيك وقت تفهمني! أنا شكلي هدّيك عمري كله تفهمني فيه..

– صفية ! بجد؟!

– بلا صفية بلا نقية وفيها شوائب.. اقعد ساكت بقى.. إنت شكلك اتكلمت مع بابا أصلا صح ؟

– صح؟

– خلاص.. أنا هعيش معاك العمر اللي بتقول عليه ده.. يمكن ألحق قبل ما أموت أعرف حكايتك إيه بالظبط.

❊ ❊ ❊

(30)

ياااه لذلك الذي أشعر به.. صفيه تبتسم وأرى العشق في عينيها.. صفية تعود لي من جديد.. الأن فقط أصبح روح ألماس الذي يتخبط علي الأرض بقدميه محتضنًا السحاب بيده.. أنا حي أرزق الآن.. بل أنا الوحيد الذي يعيش من بين كل سكان الدنيا الأموات؛ فأنا فقط من أنزل الله له قطعة من الجنة على الأرض يعيش فيها مخلدًا.. قطعة من الجنة إسمها صفية.

وضعت لي صفية ابنًا في أول حملٍ لها.. فأسميته سليمان فقط لمجرد التفاؤل.. أو ربما إحساس مريض داخلي أن أجعل من هذا الابن "سليمانًا حقيقيًّا" وليس كما كان من قبل.. أرثه الملك كما ورث داوود ملكه لسليمان.. وحتى إن لم نكن أنبياء، وحتى إن لم يكن لسليمان نفوذ على الجن وسيطرة على الحيوان! فيكفي أن يسيطر على أناس هذا العالم.

وتأكدت من حكمة المولى بعد مجيء الولد الثاني لأسميه شعيب.. ولذلك توقعت أن الحمل الثالث سيصبح ابنة لتكن سمية جاءت هي الأخرى ليعاد النسل لي من جديد وأمتلك نفس الأسرة.

وعاهدت نفسي من جديد على ألا يعيش أبنائي نفس المصير القديم.. لن يصبح سليمان الموظف المقهور.. ولن يكون شعيب الابن

المشتت الضال.. ولن ترمى سمية لأي رجلٍ يتزوجها لأنه فقط يملك بعض الأموال. لن ينطفئ جمال صفية في سنين عمرٍ فاشلة داخل استسلامي الهزلي للقدر.

"لن تعيش ذريتي في تعتيق كما كان من قبل.. ذلك التعتيق الذي ضاعت فيه أحلامهم داخل مستواي المادي والاجتماعي السفيه المنحط"

كلما كان ينمو أبنائي كانت تنمو معهم أعمالي القذرة التي جعلتني الأب القوي المشرف لهم.. كلما زاد عمر سمية، كانت تزيد جمالًا وإشراقًا فتفتنني بالحماس الذي جعلني صاحب أكبر شركات المقاولات الإنشائية.. أكبر وأضخم مشروعات الحكومة تنفَّذ من خلالي.. وبالحصول على قطعة أرض ضخمة في مكان مميز بسعر زهيد.. استطعت بناء أكبر مدينة سكنية وهي الأجمل والأشهر والأضخم في مصر.

قبل أن يبلغ ابني المنطلق شعيب سن البلوغ استطعت أن أفتح عدة توكيلات لملابس من "براندات" إنجليزية وفرنسية وألمانية.. وكان مكري ودهائي وعون الشيطان لي حلفاء أقوياء في هذا حيث كان كل منفذ بيع يمتلئ نصفه بالملابس ذات الجودة العالية المصنوعة في بلادها.. والنصف الآخر كان نسخة طِبق الأصل من الملابس الأصلية.. أوصي مصنعًا كبيرًا في الصين بأن يصنعها لي أنا فقط.. وتدخل البلاد عن طريق شركة استيراد خاصة بمعاوني المخلص حمدي.. وبمجرد دخولها البلد نقوم بتغليفها من جديد، نضع عليها التيكت الخاص بالبراند.. وبهذا تكون جاهزة للدخول بين الملابس الأصلية لتباع بنفس أسعارها.. وسهولة الأمر كانت بس إن "ماحدش بياخد باله".

على نفس النهج فتحت مزرعة للدواجن أعتمد فيها على حقن الدواجن لتنمو بشكل أسرع.. هذا مع مصنع اللحوم المنتهية الصلاحية الذي اكتسب شهرة واسعة.

وبعض المجهود الإضافي جلبت لمؤسستي توكيلًا للسيارات.. وباستخدام ذلك التوكيل كان سهلًا عليَّ أن أقم بتأسيس شركة نقل جماعي للمواطنين.. وما أرهقني جدًّا هو سلسلة "الكافيهات" فقد كان الأمر صعبًا أن آخذ تصريحًا رسميًّا لتقديم "الشيشة" للزبائن حيث أن مثل هذه التصريحات لا تستخرج من الأساس.. ولكني استطعت في النهاية.. فكل هدف صعب لا يحتاج سوى المثابرة أثناء الضغط على شرفاء البلد لتوريطهم في التنازل عن مبادئهم المثالية.

قمت بإخراج شعيب من حياتي العملية حيث لم أهتم قط بدراسته ومستواه الفكري.. مثله مثل سمية.. وهذا لأني لا أريد لهم من الحياة سوى الاستمتاع بها فقط.. الرخاء في نعيم والدهم والحماية بنفوذه والترفيه بثروته.. لا أريد لهم حتى أن يفكروا.. ليس لهم أن يعيشوا كباقي البشر في ذلك القفص الخبيث.. قفص التفكير.. ذلك القفص الذي لا يفتح سوى مرة واحدة ليقفل على سجينه للأبد.

أما سليمان فكنت أهتم بكل تفاصيل دراسته وحياته وأتابع مستواه الفكري.. لا أكف عن دعمه بالنصائح المكتظة بخبرتي.. أشاركه في قراراتي واختياراتي.. وكنت دومًا أتيقن من إحساسي بأن سليمان هو حقًّا مَن كان يجب عليَّ إقحامه في حياتي القذرة.. فآراؤنا دائمًا متشابهة إن لم تكن متطابقة.. لا أذكر أني اختلفت يومًا معه على شيء.. وكنت أرى فيه دائمًا نسخة طِبق الأصل من نفسي وذاتي.. وكأنه كان معي في كل ما رأيته في حياتي الأولى قبل العودة من الموت.. كأنه ارتدى معي

كفني ودخل معي خشبتي وحُمِلَ بجانبي على الأكتاف.. اصطحبني في قبري.. ورأى معي كل ما أنفردت برؤيته أثناء الموت.

مصانع عدة وتوكيلات كبرى دخلت تحت سطوتي.. أنشئ المطارات لحكومات الدول الفقيرة وأساهم في بناء أكبر فنادق العالم.. مصنع ضخم لإنتاج أجهزة التحليل والأشعة الطبية في إنجلترا، منه إلى ولاية تكساس حيث أول مصنع عربي خاص بإنتاج مواد "الفايبر" عالي الجودة والذي يستخدم في صناعة الطائرات، وبالرغم من أن صناعة الأسلحة ليس من السهل الدخول فيها حيث تختص بها الحكومات إلا أني استطعت إشباع رغبتي في ذلك بصناعة "يخوت بحرية" للمدنين بها أدوات تسليح تلقائية للحماية من القراصنة.. وبعد أكثر من ذلك بكثير جاءت لحظة الانتصار.. إنه الوقت الذي حصل فيه سليمان على الدكتوراه في التجارة الخارجية من أكبر وأشهر جامعات أورُبّا بعدما أخذ أكبر دورات إدارة الأعمال في الولايات المتحدة الأمريكة.. فسليمان لم يرسب في أي سنة على عكس الابن المنطلق شعيب.. حقًّا إنه سليمان روح ألماس.. ابن روح ألماس.. ورث مني القوة والحنكة في الحياة مع الكفاح من أجل ما يريد.. ولكن هذا الشبل من ذاك الأسد.. فمع سرعة سليمان في تخطي مراحل دراسته كنت أنا أسرع في التجهيز لأكبر وأهم مشروع في حياتي.. فسبقته بهذا المشروع وكان قائمًا على الأرض قبل دخول سليمان للحياة المهنية الشيطانية التي أعيشها.. وربما بإنشاء هذا المشروع وبإنهاء سليمان مرحلة الدراسة أصبحت أنا كقائد يسلم شارة القيادة لخليفتة.. فسليمان هو نعم القوة من بَعدي لنسلي وذُريتي.

❊ ❊ ❊

(31)

باريس.. أثرياء العالم يتجهون إليها لقضاء عطلتهم هناك وشراء آخر صيحات الموضة من أشهر "براندات" الملابس والإكسسوار والعطور.. والآن قد هبط ذلك العنوان لمعالم باريس:

40 Avenue Georg 5 from Champs Elsees, 7500,1 Paris

40 شارع جورج مقاطعة 5 من شارع الشانزيليزيه. 75001 باريس

فذلك العنوان هو أول ما يسأل عنه السائح بمجرد وصوله باريس.. كما أن بعضهم يأتي باريس خصيصًا لوجود هذا المعلم السياحي فيه.. هناك ستجد مبنى من خمسة أدوار زجاجية الحوائط.. يهوى بعض بسطاء السائحين في أخذ الصور الفوتغرافية أمامه.. ويفضل البعض الآخر شراء الآيس كريم من العربات المتجولة ليأكلونه وهم جالسين أمام المبني،

اليافطة ضخمة ومربعة الأضلاع كل ضلع ستة أمتار.. منقوش عليها بألوان من الذهب الخالص.(S Hai.4) .. وبخط أصغر بعض الشيء يوجد نقش ل "S Hai For the Diamond.4" بحروفٍ من مادة التيتانيوم إنه المركز الرئيسي لأكبر وأشهر براندات الماس في العالم.. أجمل وأحدث صيحات المجوهرات والحلي المصنوعة من

الماس الخالص بالإضافة لبيع الألماس كمادة خام للبراندات الأخرى.. إن "ألماس Hai" هو "البراند" الذي يسعى إليه كل نساء العالم من الأميرات والأثرياء.. الحلم لأي بنت أن تنال من "ألماس Hai" خاتم هدية زفافها..

"فلتهبط السكينة على قبور أولئك المساكين ضحايا الحروب الأهلية الدموية في أفريقيا.. فأرواحهم الطيبة النقية هي الثمن الحقيقي لأغلب قطع الألماس التي يترفه بها طبقات العالم العليا".

"فور إس" هو اسم مؤسستي الشهيرة وهو اختصار لأربعة (S) صفية، سليمان، شعيب، سمية.. والمؤسسة ليست متخصصة في نشاط معين.. فأي نشاط تجاري يثمر بالمال يفتح له فرعًا في مؤسستي على الفور ليصبح جزءًا من استثماراتي.. سبع وعشرون مدينة في مختلف قارات العالم ومن بينهم أكبر وأشهر وأهم عواصم العالم يحتضنون فروعًا لمؤسستي.. مؤسسة "4S".

وعن ماركة ألماس فقد اخترت لها كلمة "Hai" كعلامة مميزة "للبراند" وهي نسبةً لجدي عبد الحي الذي لن يصدق أحدٌ أنه كان عاجزًا عن شراء قيراطًا من الذهب لجدتي "فتاة أحلامه" ليكون هدية زفافها. وهو لا يعلم أن له حفيدًا سيجعل من (الذهب الأبيض الخالص) مجرد ماء يُسكب على حروف يافطة تحمل اسمه.

بهذا أعلنت نجاحي.. وأصبحت أُرى في عيون أبنائي وحبيبتي صفية العظمة والقوة.. لم أصبح كائنًا حيًّا حبيس الأريكة كما كنت في حياتي السابقة.. فقد بات العالم ملكي أتلاعب به داخل قبضة يدي من خلال ثروتي ونفوذي أذهب حيث أشاء.

ولو كنت ساذجًا لقلت "أحمدك يا رب بعدما أتيتني نعمتي وأوصلتني لهدفي في الحياة".. ولكني لن أفعل مثل هذا الحرامي "الهجام" الأحمق الذي يطلب الستر من الله قبل أن يتسلل أحد البيوت لسرقتها.. فما حققته ليس بنعم من الله.. بل إنه ثمار لسيئات قُمت بفعلها.. فكيف لي أن أشكر ربي على أهداف الوصول إليها جعلني شيطانًا يعيش بين الناس.

وما أكد لي أني مجرد أحمق هو نظرات أبنائي لي.. فبعد أن كانت نظرات خِزي وعار وفشل في حياتي السابقة.. أصبحت الآن أبشع من ذلك بكثير.. إنها نظرات الانتظار.. انتظار أن يحين أجل ذلك الأب الجشع السيء صاحب الثروة والنفوذ الذي يجاهدون مع الوقت صبرًا حتى يأتي أجله ويموت فيقتسمون ثروات طائلة، وبالرغم من أني لا أذكر أنني رفضت لأحدهم أي طلب إلا أنها صفة الجشع التي جعلت من كلٌ منهم إنسانًا جائعًا لن يشبع جوعه سوى امتلاكه لكل شيء بدون أي شريك.. تبًا لي إنه الجشع الذي زرعته فيهم دون أن أشعر.

وعن حبيبتي صفية فقد كان حبها لي بمثابة حماية لي من أن أرى في عينيها انتظار موتي كباقي أبنائي.. ولكني أرى داخلها ما هو أصعب عليّ من ذلك بكثير.. إنه الفشل.. نعم صفية تعتبرني زوجها الفاشل.. فصفية تعلم جيدًا أني في عالم رجال الأعمال أعد (رجل أعمال غير نزيه) وتعلم أيضًا أن لي كثيرًا من الكوارث التي أقوم بها في كل مشاريعي تقريبًا.. ولذلك هي تعيش بين نارين.. النار الأولى أن تترك زوجها الذي تتنفسه عشقًا لتعيش بعيدًا عنه لكي "تأكلها بدُقة وتعيش بالحلال" كما نقول.. والنار الثانية هي أن تظل بجانب عشيقها في

حياة الحرام لتدخل معه جهنم وبئس الأمر بعد موتها.. وقد اختارت صفية النار الأخرى.

ولهذا كانت كثيرًا ما تعجز عن دعمي بنظرتها الحنون لي.. وكانت تطلق في وجهي نظرات بديلة مليئة بالشفقة والعتاب في آنٍ واحدٍ.. كأنها تصرخ لتقول لي: لماذا كل هذا الحرام يا روح؟ لماذا تستهين بالمعصية؟ لماذا تجعل من جهنم مصيرًا متوقعًا لي ولك؟

بئس الأمر.. أخذتها لأعذبها في مصيري.. وحتى عشقي لها فقد كان منتهى الظلم لها!.. أنا متيم بها عشقًا.. وربما لو كان الأمر بيدي لانتزعت كلمة عشق من المعجم العربي لأضع كلمة (صفية) بدلًا منها .. هي تشعر بذلك وتسعد به.. ولكن الحقيقة أوقح من ذلك بكثير.. فأنا أرى في صفية العشيقة لأن زوجتي الحقيقية هي "الحشيش" وصفية برغم حبها إلا أنها مجرد عشيقة أخون معها زوجتي "سيجارة الحشيش".

أنا الوحيد من سكان الدنيا الذي ينعم بحب حقيقي وعشيقة حقيقية يبحث عنها الجميع دون أن يجدها أحد.. إلا أني آخر إنسان على الأرض يستحق هذا.

بات سليمان جديرًا بإدراة الثروة والنفوذ.. قام بتأسيس بنك في مدينة "برن" السويسرية وأقام له الفروع في معظم مدن العالم.. يشارك أمبراطور كوريا الشمالية في مشروع تسكين أمن لمواد نووية في رؤوس الصواريخ.. كما أنه بدأ التخطيط لتأسيس أول مصنع طائرات نقل مدنيين في مدينة "بهار" على سواحل الهند.

أما الأهم وما أشعرني بأني أنتصر حقًّا على سكان الكرة الأرضية فهو مشروع "الياماشيتا".. إنه الهدف الذي حددته لي في بداية شبابي

وكنت طامحًا في الوصول إليه.. وحين تقدَّم بي العمر كان عليَّ أن أرمي هذا الهدف على كتفي سليمان لتحقيقه.. إنه العصور "كنز الياماشيتا".

أثناء الحرب العالمية أطلق الأمبراطور الياباني مهمة الحرب للجنرال توموبوكي ياماشيتا.. وكان الجنرال ياماشيتا صاحب انتصارات مميزة.. فقد احتل ملايو وسنغافورا وسيطر عليهم.. وقد ألحق هزائم متتالية للجيش البريطاني لمدة 70 يومًا.. حتى أجبر رئيس الوزراء البريطاني ونستون تشرشل بإعلان الهزيمة وقد سميت في كل أنحاء إنجلترا بـ "أسوأ هزيمة".

جمع الجنرال ياماشيتا كل ما وقعت عليه يده من ذهب وتحف ومجوهرات في كل بلد يمر بها.. وقد ذهب بكل هذا الكنز الي الفلبين بعد سيطرته عليها ليكن بالقريب من الإمبراطورية اليابانية فيصل الذهب إلى هناك.. وفي تلك الفترة حدث ما لم يكن في الحسبان.. فقد سيطرت قوات الحلفاء على حدود الفلبين البحرية وأصبح الجنرال ياماشيتا وقواته تحت الحصار ومعهم ذلك الكنز الهائل.. وهنا قام الجنرال ياماشيتا بجمع كتائب من الجنود الأسري الفلبينين.. وبدأوا في حفر "خنادق" سِرّية في أماكن متعددة في جبال الفلبين وقاموا بتخبئة الكنوز فيها.. ومن ثم أمر ياماشتا بقتل كل الأسرى المشاركين في تلك المهمة.. وبعدها قام ياماشتا بإعطاء الأوامر لظباطه المقربين بإطلاق النيران على الظباط اليابانيين المشاركين في تنفيذ المهمة.. وبذلك أصبح هذا الكنز لا يعرف عنه إلا قليل من الأشخاص وهم لا يتعدون أصابع اليد الواحدة.. ودخلت قوات الحلفاء الفلبين.. وانهزم الجنرال ياماشيتا.. وتمت محاكمته بتهمة جرائم الحرب من جهة قوات الحلفاء وتم إعدامه في 23 فبراير 1946.

والآن لا يعلم عن الكنز سوى القلائل ومن يعرفهم هو الجنرال توموبوكي ياماشيتا الذي فارق الحياة دون أن يدلو بأي شيء تجاه هذا الكنز.. ومن حينها أطلق على هذا الكنز "كنز الياماشيتا" ولا يكف الكثير من "الناس" عن البحث عنه أو عن أي دليل لمكانه.. يذهب بعض الناس للفلبين بشكل قانوني ويذهب غيرهم بشكل غير قانوني.. وللجميع هدف واحد.. وهو البحث عن "كنوز الياماشيتا"

"رجل مسن كان جندي في الجيش أثناء الحرب"، "رجل مسن كان صبيًّا وحضر تلك الفترة"، "حفرة عميقة في مكان ما في أي جبل".. أيٌّ من هذه الأشياء هي مطمع لأي باحث عن الكنز.. ومن ضمنهم وأهمهم على الإطلاق/سليمان روح الماس.. ابني الملك كما أطلق عليه وألقبه.. ابني الذي توارث مني هذا الهدف وبدأ هو في تحقيقه.. لا يمل أبدًا سليمان عن يقينه بأن جزءًا كبيرًا من هذا الكنز سيصبح لنا.. سنجده.. ستكترثه "عائلة عبدالحي".. إنه المستحيل على الكثير.. لكني على يقين من نجاح سليمان في تحقيقه.

تذكرت ابني سليمان الكبير في حياتي السابقة.. المَلِك بلا مُلك.. الموظف "الكحيان" الذي لا يملك ثمن ملابس داخلية جديدة فيعتمد على ترقيعها.. الشاب المقهور صاحب الحزن الباهت على وجهه صباحًا أثناء ذهابه لعمله داعيًا أن يمر يومه على خير.. مجرد يوم واحد يخصم من مرتبه بسبب التأخير سيتسبب في مأساة حقيقية بالنسبة له.. فرحته الوحيدة يوم الخميس حين ينصرف من العمل فيسعد بإجازة الغد.. وأنا كنت السبب، جعلته "سليمان" دون أن أصنع له مُلكًا!

والآن على أرض الواقع، وبعد العودة للحياة والتعلم من أخطائي قد جعلت من سليمان مَلكًا على كل أغلب بؤساء العالم من العاملين

والإداريين في شتى دول العالم.. نفوذ وثروة تهابها أكبر مؤسسات العالم.. كرة أرضية كاملة أصبحت في قبضة يده.. ينام في طائرته الخاصة في أغلب الأحيان.. وأحيانًا أخرى يأخذ راحت جسده في القصر الخاص بنا الكائن بأي عاصمة أو مدينة يجد نفسه بها.

وسمية المسكينة المغلوبة على أمرها.. تتزوج فقط لأنها يجب أن تتزوج.. تنجب أطفالًا وتعمل على رعايتهم.. لا تفعل هذا لأنها الأم التي تعلو بقدميها فوق الجنة.. ولكنها كانت الخادمة التي اشتراها زوجٌ ببعض الأموال.. تعيش في خوفٍ من أن تدهسها الحياة بالأقدام.. وكنت أنا السبب.. فقد جعلتها البنت الأصيلة الخلوقة دون أن أكون ظهرًا لها وحماية وقوة تشعرها بالأمان.

أما سمية الآن، فقد أصبح أسبوع واحد كافيًا لها لتدور حول العالم، لتجول عشر دول باحثة عن أحدث صيحات الموضة وشراء أغلى الملابس من أشهر الماركات والمصممين.. ثم ترتدي ما اشترته أثناء القيام بجولة أخرى مماثلة تبحث فيها عن الأجدد والأجدد.. سمية ترفض أن تكون ممثلة سينيمائية عالمية! فعلوّ نجمها أعلى من معظم نجوم هوليود.. ويكفي أن أحد استثماراتي شركة إنتاج ضخمة في هوليوود تحصد الكثير من جوائز الأوسكار كل عام. ترفض سمية مناصب عدة لأن الحياة ملكٌ لها وليست ملكًا لأشياء دنيوية ترهق نفسها في التفكير فيها.. عمليات التجميل المواظِبة عليها منذ صغرها جعلت منها الأجمل على الإطلاق في وطننا العربي.. ولكن بعدما طلبها للزواج أغنى رجال العالم اختارت أن تتزوج بممثل مشهور يدعى "يوسف" وهو من أصل إيطالي بجنسية أمريكية.. وبالرغم من رؤيتي

بأنه ليس مناسبًا لها ولكني وافقت في عجالة.. فسمية بالنسبة لي هي الإنسان الذي يجب أن تعيش فقط لتنال كل ما تريده.

وشعيب الذي كان يتمنى أن يرى السعادة في وجوه الناس.. يسافر وينطلق ويتخلص من نشاطه وحيويته.. براءته جعلت منه هدفًا سهلًا وسلسًا لجماعات متطرفة.. حارب شعيب الحياة بالضحك وخفة الظل فهزمته الحياة بالبؤس والمشاكل القهرية.. حاول أن ينتصر في حربه بالإصرار والإيمان بالله.. فكان ضعفي كأب له هو الضربة القاضية التي جعلت منه عاشقًا للدماء يستحل أرواح الناس فتكون نهايته جهنم وعذابها بعد أن فجَّر نفسه في أبرياء.

أما شعيب الآن فقد أصبح يمتلك الضحكة والسعادة والبهجة التي كان يحلم بامتلاكها.. ربما كل سنة يتزوج ويذهب لقضاء شهر العسل على أجمل شواطئ العالم.. ولا أعلم لماذا قبل كل شهر يأتيني خبر انفصاله من إحداهن ومن ثم يأتيني خبر زيجته الأخرى.. وبالرغم من قلقي حيال هذا الأمر ورغبتي في أن تستقر حياته أكثر من هذا، إلا أني سعيد برؤيته يدور حول العالم بضحكاته وسعادته.. لا يهمني إن كان لا يستطيع تحمُّل المسئولية أو لا.. فمن يملك أساطيل بحرية ومراسٍ قوية لا يحتاج لتعلُّم مهارة السباحة.

❊ ❊ ❊

(32)

عشتنا الخشبية التي احتوت عشق ألماس وأبرار.. لا أعلم حتى الآن كيف اكتمل هذا العشق رغم حياتهما البائسة.. كيف لقصة عشق عظيمة أن تنمو وتكبر بين ضربات الفقر وذُل الناس ووحشية القهر؟ رغبتي في الذهاب لهناك لم تكن مفاجئة.. ولكنه إحساس بأن لدي كلامًا في داخلي أريد أن أبوح به لأستريح.. وربما هذا الكلام سأعرفه وأخرجه في تلك "العشة".. فانتهزت فرصة وجود سليمان في مصر واصطحبته لهناك.. فربما يفتح لساني له بما احتبسه بقلبي.

نظرت لنفسي في عيون الموت.. إن صعدَتْ روحي للسماء؟ ماذا بَعد؟

الإجابة كما كنت أعرفها منذ عودتي من الموت للحياة من جديد.. لم تتغير: مجرد إنسان مات.. تبادُل التعازي بين بعض أفراد الحياة.. يشعر بعضهم بالارتباك لإحساسهم بأنهم لاحقون لي لا محال.. ويلتزم البعض بسماع آيات القرآن من باب الخوف من موتهم.. والبعضٌ الأخر يلتزم سماع القرآن ليس من باب الخوف ولكن مجبرون على ذلك كي تكتمل ملامح الحزن عليهم.. نعم.. "هذا هو ما يشغلني"

وبينما أفكر قاطعني سليمان:

– حلوة الذكرى يا حاج.. كافحت إنت هنا وعملت معجزات إنت وجدي.

كانت الفرصة المناسبة لي لأحكي لابني عن قصة كفاحي ومدى صمودي ومقاومتي.. كما يحب أن يفعل كل الآباء مع أبنائهم.. ولكن هذا كان مجرد هُراء بالنسبة لي.. أنا لا أهتم بصورة وهمية لي في عين ابني كبطل مغامر محارب قوي لا يُقهَر ولا يستلسم.. الأهم عندي هو الموت.. الموت فقط.. ولذلك لم أجِب على حديثه وأقحمته في حديثٍ مختلف تمامًا.

– هتعمل إيه لما يجيلك خبر موتي يا سليمان؟

– إيه اللي بتقوله ده يا بابا ربنا يديك طولة العمر.

– أيوه يعني بعد طولة العمر دي لما تخلص وأموت ويجيلك خبر موتي هتعمل إيه؟

– يابابا بعد...

قاطعته لأني لا أريد أن أسمع منه مجاملات فارغة، فأنا أعرف ما يدور بداخل الناس من مجرد نظرة.. وهذا سليمان بالتحديد ابني! وأعلم جيدًا أنه يمتلك من جمود القلب ما يجعله لن يتأثر من موتي بالشكل المأسوي.

– يا ابني خلَّص وجاوب.. هتتصدم لما تعرف إني مُتّ.. وهتدمر وهتعيط وهتنهار.. صح؟ آه.. وهتخبط كمان دماغك في الحيطة وهتحاول تنتحر وهترمي نفسك من فوق السجادة.. تمام كده؟ بعد كده بقى هتعمل إيه؟ ده اللي يهمني.. إيه الخطوات؟

– هخلي حد يخلَّص كل الإجراءات وهفضل جنبك أقرأ قرآن.

– قرآاان.. آه قولتلي قرآن! طيب.. ها وبعدين.. وإيه تاني يا عم الشيخ؟

– هههه والله أنا متدين بس إنت اللي ظالمني.

– وإيه تاااني؟

– عادي يا بابا بعد الشر عليك.. هستعد للناس اللي هتعزي.. آه والأهم إني هجمع إخواتي وهحاول أطيب خاطرهم.

– ودفنتي؟

– دفنة إيه؟

– دفني أنا.. جثتي؟ إنت ماجِبتش سيرة إنك هتدفنّي.

– آه.. بس بعد الشر مارضتش أقولها.. ده حتى يبقى فال وحش.. ربنا يديك طولة العمر يا بابا.

– وليه بعد الشر؟! الموت مش شر..

– ازاي مش فاهم؟!

– يعني لو كانت أعمالي فيها كفة الحسنات بتزيد أكثر من كفة السيئات يبقى الموت خير.. لأنه بداية لحياة جديدة هاخد فيها مكآفتي من ربنا.

– آه... ولو بعد الشر الواحد أعماله معظمها سيئات وسيئاته أكتر من حسناته.. مش يبقى الموت شر ولّا إيه؟! ماكده هيخش النار.

– لأ برضو الموت وقتها هيبقى خير.. لأنه نهاية لنزيف السيئات اللي هيتحاسب عليه.. اللي حياته فيها سيئات أكتر ده يا ابني كل يوم مش بيعيش فيه بيبقى نعمة من ربنا.. كل ما أيام عمره تزيد هتبقى السيئات بتزيد معاها أكتر وأكتر.

– أيوه بس هيخش النار! هيتعذب

– احسبها بطريقة تجارية.. الواحد يتحاسب على عشرة كيلو سيئات وبعدين يخش الجنة في الآخر.. ولّا يتحاسب على كيلو واحد سيئات ويخش الجنة بعدها؟

– مش فاهم؟

يعني كل ما العاصي يموت بدري نافورة سيئاته بتقفل بدري هي كمان.

– آه فعلًا.

– آه فعلًا وانت ولا فهمت أي حاجة!

– هاهاها ما انت بصراحة يا حاج بتتكلم النهارده في حاجات غريبة أوي.

– صح.. وانت مالك انت ومال الموت. ما انت غرقان في نعيم الدنيا.

– كله من خيرك يا حاج.

– ثبتني يا اخويا ثبتني.. المهم عشان نقفل الموضوع.. أنا أهم حاجة عندي لما أموت تدفنّي! إنت فاهم؟ تدفني بسرعة يا سليمان.. وتخلي بالك من جثتي لحد القبر.. وتخش معايا تحطني بإيدك على جنب.. وتمّم بنفسك على التُربي إنه خلى وشي للقبلة وإني مدفون بطريقة صح مش أي كلام.

– أنا عمري ما دفنت حد ولا دخلت قبر.

– معلش هتبقى سهلة والتُربي هيبقى معاك.. إنت هتباشر بس.. تقرأ عليَّا الفاتحة جُوَّه وتدعيلي بالرحمة من ربنا.. صحيح يا سليمان هو انت حافظ الفاتحة؟

- آه طبعًا..

- يا عيني على الثقة.. وطبعًا حافظ قل هو الله أحد؟

- آه برضو.

- اسمها إيه هي السورة دي؟

- سورة إيه؟

- قل هو الله أحد.. اسمها إيه؟

- لا مش فاكر..

- هاهاها مش فاكر! عشان انت واد ابن كلب.

تحدثت وكأنني أمزح معه ولكني كنت غاضبًا في داخلي.. ولم أكن غاضبًا منه.. بل غاضبًا من نفسي.. كيف أصنع ذُرية قوية بدون تدين؟! فإن كان المصير جهنم.. فما فائدة القوة إذًا!

خرجنا من عشتنا الخشبية وانكمشنا من البرد في سيارتنا الفارهة.. وربما صوت تكييف السيارة جعلني أشعر ببعض الهدوء والسكينة.. وخصوصًا بعد التغيير الواضح على ملامح حينا.. فمنطقتنا الشعبية القديمة العشوائية الفقيرة التي كُنت ابن أفقر الأسر فيها.. أصبحت مجرد "هرجلة".. مجرد ضوضاء وعُفار وكلاهما لا يستطيع اختراق زجاج سيارتي.. فدرجة "الفاميه" على زجاج السيارة تجعلني أشاهد كل العفن والأتربة والعفار مع موسيقى "موتسارت" في السيارة كمشهدٍ على شاشة التلفاز.

ورغم كل هذا أنا لست بسعيد.. ولا أعلم لماذا؟ ولكني يجب أن أعرف الليلة مستغلًا وجود سليمان معي.

❊ ❊ ❊

(33)

أنا صانع المُلك.. أنا روح آلماس عبد الحي.. أنا من يتحدث العالم عن نجاحاته.. أنا الأب لأسعد ثلاثة أشخاص يعيشون على الأرض.. أنا رجل الأعمال، أنا صديق رؤساء الدول والحكام، أنا من تتهافت عليه الحكومات لعقد الصفقات معه.. أنا أنا أنا أنا مَن أنا؟ أنا العجوز المسِنّ المحروم من أكل قطعة الخبز بسبب أمراض شيخوخته.. أنا الضعيف الصانع للملك العظيم وسيبقي مجرد مُلكٌ زائف في دنيا ليست بخالدة.. أنا الإنسان الأناني المغرور.. أنا من يبدأ حديثه بكلمة "أنا".

حديثٌ طويلٌ دار في رأسي وخلاصته أني إنسان فاشل غير راضٍ عن نفسه وحياته وتصرفاته.

وانتهى الحديث بسماعي صوت مكبرات الصوت في الطائرة معلنة اقترابنا من باريس، ثم صوت الجميلة عشيقتي صفية تلاطفني بنعومة كلماتها.

- حمد الله على السلامة يا حبيبي.
- الله يسلمك يا حبيبتي.
- كانت لزمتها إيه السفرية دي؟ ما سليمان مخلي باله والحمد لله.
- مفيش مشاكل عادي آهو نبُص عليها وخلاص ونتطمن بنفسنا.

لصفية الحق في تعجبها.. فربما سفري ليس ضروريًّا بالمرة، ولكني ذاهب لإشباع رغبتي في الجلوس على مقعد رئيس مجلس الإدارة.. أريد فقط الجلوس عليه.. يدخل أيٌّ من الموظفين ليمضي مني أي تقرير.. أرى الأهمية الشديدة لبعض الحركات البسيطة من يدي حين أرسم بها إمضتي.. إمضتي التي أصبحت تملك من القوة ما يجعلها قادرة على تغيير مصائر البشر.

– إنت من ساعة ما فتحت شركة الماس دي وانت مخليها واحدة من عيالك.

– أنا بحبها فعلًا وهي المشروع الأهم عندي.

– إيه ده! بتحبها أكثر مني؟!

– لأ طبعًا يا حبيبتي هو أنا بحب أي حاجة فى الدنيا أكتر منك.

– بس انت متغير من يوم ما بدأت حتى في إنشائها الشركة دي.. ومش عارفة أنا ليه مش بحبها.

– ليه كده يا ولية، دي حلم حياة جوزك وإتحقق.. المفروض تبقي فرحانة بيه.

– والله ما أنا عارفة إنت أحلامك إيه ولّا أهدافك إيه! أنا من يوم ما شُفتك وأنا عارفة إن عندك أهداف ومصمم تحققها.. بس عمري ما قدرت أفهم أي حاجة منها.

رأيت رغبة صفية في أن أغازلها كما عوَّدتها دومًا وبدأت في إعطائها ما تريد لتستمع به وأتنعم أنا أيضًا بإلقائه لها.. وربما هو خير ما فعلت لأنسى مع مغازلتها كل ما كنت أفكر فيه.. وأعود لجسد رجل الأعمال روح الله ألماس عبد الحي الذي ينعم بطائرته الخاصة متجهًا بها للبلد التي تأوي صرحه الأهم.. "شركة Hai للماس".

وبعد الاستقبال الvib في المطار والوصول لقاعة الوصول، وجدنا "الكابتن" أنطوين قائد الطائرة الهليكوبتر الخاصة بسليمان مستخدمًا إياها في التنقل في ضواحي باريس لتجنب ضياع الوقت في زحام باريس.. وفي الطائرة طلبت منه التوجه لقصرنا الضخم في "بولفارد سان ميشيل" بين المقاطعة الخامسة في باريس والمقاطعة السادسة.. أو كما يطلق عليه بالعامية الفرنسية "بولميش" "Boul'Mich".. وبعد هبوط الطائرة على المهبط الخاص بنا فوق سطح القصر أوضحت لصفية بأني سألحق بها بعد ذهابي لمقر شركة Hai.

– يعني إنت واخدني من بيت لبيت.. أنا مش عارفة أنا إيه لزمتي أصلًا في السفرية دي.

– معلش يا عشيقتي يا موزتي يا عسل إنتي.. أنا بخاف أحسن توحشيني.

إجابتي الخاطئة كانت لإرضائها فقط.. ولكني من الأساس لا أعرف الإجابة الصحيحة.. فأنا حقًّا لا أعرف لماذا رغبت في وجودها معي في تلك الرحلة.

في مقر الشركة جلست على كرسي المرصع بقطع من الذهب الأبيض.. أمامي مكتبي الأنيق وخلفي زجاج كاشف جمال باريس الذي يأتي إليه الناس من كل أنحاء العالم.. وضعت الكرة الأرضية تحت قدميّ مسيطرًا عليها، سيطرت على الشيطان وجعلت منه خاضعًا لي ولشهواتي، صنعت اسمًا قويًّا لي ولذريتي..

(ولكن ماذا بعد الآن؟)

فليس هناك ما يجعلني أهرب من موتي أو حتى أؤجّله.. ليس لدي ما يجبر أبنائي على الدعاء لي في قبري؟ على أداء الصلوات لي؟ على تذكُّري بالرحمة كل حين وآخر؟ ففي حلمي اللعين في حضن أبرار كنت أتجسد في ملاك جبان غبي يعيش خائفًا من الناس وشرورهم.. عِشت في حلمي عمرٍ ضائعٍ أسفل الكرة الأرضية خائفًا من الشيطان ولا أفعل أي شيءٍ غير هذا، وحينما أتتني الفرصة لأعيش العمر من جديد أضعته مره أخرى دون أن أدري.. فقد هيمنت على الدنيا واضعًا الكرة الأرضية بين يدي دون أن أهتم بالشيطان وحساباته.. سيطرت نفسي السيئة عليَّ فكسبتُ الدنيا.. الدنيا التي أعلم جيدًا منذ البداية أنها ستنتهي! بئس الأمر.. فقد كنت الشيطان نفسه.

– Vos capacités، il y a des contrôles importants que j'attendais. Le Professeur Sulaiman le dépensé pour quoi ... Est– ce que cela vous interdit?

إنها "كارمن" مديرة مكتب سليمان تخبرني بشيكات مهمة من الأفضل سرعة التوقيع عليها وهي تنتظر عودة سليمان للتوقيع عليها.. وتسألني إن كنت أريد أن أوقع عليها لسرعة سريان حركه العمل أم لا.

– إنتِ مش بتعرفي تتكلمي عربي يا "كارمن".. وكمان اشتغلتِ معانا في المجموعة في مصر.. إتكلمي عربي أحسن.. وبعدين إزاي أمضي أنا مكان سليمان.. تحويلات البنوك الخاصة بمؤسسة S.4 كلها بإسم سليمان!

– لأ دي شيكات ممكن سعادتك تسحبها من حساب حضرتك الشخصي.. هي مالهاش دعوة بحسابات الشركة هنا.. دي بخصوص مصاريف التنجيم عن الدهب في الفلبين.

– آه.. الياماشتا.. وهو سليمان فين أصلًا؟

– في الفلبين بقاله يومين حضرتك.

– هو فيه أخبار جديد عن كنز الياماشتا؟

– الحقيقة ما عنديش فكرة بس هو سافر بشكل مفاجئ بطيارته الخاصة.

– طيب خلي الشيكات دي لما يجي سليمان يمضيها هو.

– تحت أمرك سعادتك.

كنت آتي خصيصًا لأشعر بكياني حين أقوم بالتوقيع على أوراقٍ هامة.. ومع ذلك تكاسلت عن أن أوقع أو حتى أقرأ ما في الشيكات! ولكن في كل الأحوال قد أنقذتني "كارمن" من التفكير مع نفسي بدخولها المكتب.

تبًّا لتفكيري هذا وما يأخذني إليه.. فمنذ عودتي من الموت وعلى مدى عشرات الأعوام كان تفكيري وحديثي إلى نفسي هو البطل الأوحد في حياتي.. هو المسئول عن كل نجاحاتي.. هو الصانع الأول لذلك المُلك.. هو الضامن لتحقيق المجد الذي سيستمر في ذاكرة الناس حتى بعد وفاتي وانتقالي لدنيا الآخرة.. أما الآن فقد تحوَّل حديثي إلى نفسي لمصدر إزعاج.. يقحم نفسه في أوقات استمتاعي بنفوذي وملكي وملك ذريتي محاولًا إقحامي معه في حرب كلامية.

حقًّا حديثي لنفسي أصبح كالزوجة الكسولة الجاحدة العابسة التي كلما تحدثت إلى زوجها تخرجه من حالته المزاجية.. فيتشتت الزوج ويشعر بأنه المذنب الذي ارتكب الخطيئة.. ولا يستطيع لوم أحد حيث

أنه هو من أحضر المرار "الطافح" لحياته حين تزوَّجها.. فينتهي الأمر بأن يعيش في الحياة مصابًا بالقهر والعذاب والحسرة.. ليس له فعل شيء سوى تمني أمنية وحيدة في حياته ينشغل مفكرًا بها دومًا.. وهي أن يأتي اليوم الذي يتشجع فيه ويستطيع أن يقول لها "غوري بقى في ستين داهية قرفتيني في عيشتي.. سبيني في حالي بقى يا شيخة".

صدمتني نغمة الموبايل المخصَّصة لابنتي سمية.. أخيرًا تبرّ بي سمية وتتصل بي.. لعنك الله سمية كم أعشقك وأنتِ لا تعيريني أي اهتمام.. فأنا لا أعرف حتى في أي بلدٍ أنتِ الآن.

- آلو سمية ازيك يا حبيبتي..
- بابا حبيبي أنا عرفت إنك في باريس في مقر الشركة.
- فعلًا.. بس إنتِ فين؟
- أنا في الفندق في "كان".

أكملت معها الحديث فرحًا.. فكنت أتوقع بنسبة كبيرة أنها تتصل لاحتياجها مبلغًا ضخمًا من الأموال لشراء أي شيء أعجبها أو الدخول في أي مشروع تهوى أن يكون ملكها.. ولكنها للمرة الأولى في حياتها تتصل بي لهدف نبيل.. فنحن في وقت "مهرجان كان" الشهير بمدينة "كان" الفرنسية.. وسمية في تلك الفترة تأتي للإقامة في فندقنا الخاص في مدينة "كان".. لتتابع خط سير العمل هناك.. وفعليًّا هي تذهب لعشقها لنجوم العالم من الممثلين والمشاهير.. وفندقنا بالتحديد يعد من أكبر وأشهر فنادق مدينة "كان".. ولذلك يفضِّل أغلب النجوم الإقامة فيه في فترة المهرجان.. كما أن أغلبهم يعرف سمية معرفة شخصية وتلك الفترة تعتبر الفترة المعتادة لمقابلتها. وقد عرفت سمية

بخبر وجودي في باريس أنا ووالدتها وحرّكها الشعور الإنساني لتأتي لزيارتنا في قصرنا في باريس.. يالفرحتي بهذا وكم ستفرح عشيقتي صفية بهذا أيضًا..

****

جاءتني طائرتنا الهليكوبتر.. وفي دقائق من ركوبي الطائرة من أعلى مبنى "Hai للماس" وصلت إلى مهبط الطائرة أعلى قصرنا.. باستخدام مصعد القصر وصلت إلى قاعة الاستقبال.. وبرؤيتي ابتسامة صفية الممتعة شعرت بأخبارٍ سعيدة لديها.. إنه الشقي "شعيب" ابني.. سندبادي الصغير سيأتي لنا اليوم لملاقتنا وقضاء بعد الوقت معنا. وباستقبالي للخبر طلبت من كل الخدم الدخول لاستراحتهم.. لم أفعل هذا لأمر هام.. ولكني ببساطة شعرت لأول مرة في حياتي الجديدة أنني مضغوطٌ من ذلك المنظر العام.. دنيا كاملة أنا الباشا فيها.. أنا سعادتك.. يجب أن تكون رأسي مرفوعة وكلامي حاسمًا.. إنها لعنة المظاهر.. لعنة أن أكون شامخًا.. فأنا أعلم جيدًا أن الانحناء كثيرًا يقسم الظهر.. ولكني بعدما تبدلت الدنيا في عيني وأشكال المتعة فيها تيقنت من أن الشموخ قد يجعل من صاحبه بهلوانًا.

قررت أن أصبح اليوم أبًا.. رب أسرة، سأجلس بين أبنائي وزوجتي الجميلة لنتحدث في كل ما هو غير مفيد.. سنتبادل النكات والكلام المجرد من الأهمية.. سأرتدي "شورتًا" قصيرًا.. لا سأرتدي "الكلسون" الخاص بي والذي كان يرتدي مثله أبي وأجدادي ومن قبل أبي.. سآكل المانجو بشهية لم أشعر بها من قبل وسأهرول على ثيابي الداخلية بقعًا

منها ليصبح فمي وملابسي مغطيين باللون البرتقالي.. لن يعمل الخدم اليوم.. ستطهو صفية الطعام.. وسأطلب من سمية أن تحضر لنا طبقا كبيرًا من "الفشار".. ومن المؤكد أنها ستسألني: إيه الفشار ده يا بابا؟ لأرد عليها: "البوب كورن" يا روح أمك الله يرحم جدك كان فاكر الشاورما "دوا للكحة".. سأطلب من شعيب تحضير فنجان قهوة لي، وسأطلب من سليمان البحث في قنوات التلفاز "الرسيفر" عن مسرحية قديمة.. وما أجمل أن نجد مسرحية "العيال كبرت" أو "مدرسة المشاغبين" أو "شاهد ماشفش حاجة".. وإن طلب أحد أبنائي من الخدم تنفيذ ما أطلبه سأشتمه بحب قائلًا له: "ما أمك تعبانة من إمبارح في المطبخ عشان تطفحكوا".. ما روعة أن أكون ذلك الأب الديكتاتور الذي يستغل نفوذه على أسرته ويسخِّرهم لإسعادة وتحسين مزاجه بتدلله عليهم أو بجعلهم يدللونه "بالعافية" مستغلًا كونه رب الأسرة.

****

بدأت جلستنا الأسرية.. وبرغم كره صفية لشربي الحشيش إلا أنني لم أتردد لحظة في أن أطلب من سليمان جَلب البعض منه لي.. ومع نظرات صفية الغاضبة أخبرني سليمان بأنه لا يتعاطى أيَّ مواد مخدرة.. تبًّا لك سليمان.. كيف تكون ملِكًا ولا تملك تلبية رغبة بسيطة لوالدك.. أليس كونك ملكًا يجعلني آمُر فتقول "شبيك لبيك" لأرى ما أريده أمامي على الفور؟!.

قبل إحساسي بعجز سليمان عن تنفيذ رغبة لي أسرَّني شعيب الشقي بإخراج سيجارة ملفوفة من جيبه.. وأخبرني أنها من نبات "المارجوانا".. بدأت صفية في توجيه السباب لشعيب لحوزته وتعاطيه المخدرات

بشكل مستمر.. وفي عينيها يخرج السباب لي أنا أطلب مثل هذه الطلبات من أبنائي، هي تشعر بخيبة الظن في أن أكون أبًا تربويًّا.

أنارت أطراف سيجارة المارجونا إثر سحبي أنفاسٍ منها جاذبًا إياه لرئتي.. فأنارت الحياة أمامي بوضوح أكثر.. أنا لست برجلٍ سعيد.. بل إني لم أكن يومًا سعيدًا.. نعم أنا حزين.. لا شيء سيسعدني! لا النفوذ والملك ولا البساطة ولا حتى دفء الجو الأسري.. ولكن لماذا؟! فأنا ناجح.. وإن لم أكن سعيدًا فلمن السعادة إذًا؟

وأجابتني سيجارة الحشيش بصوت عالٍ بـ "نعم": نعم كل ما تفكر فيه صحيح يا روح والسبب وراء ذلك أنك خائف.. أنت من مرعوب يا روح.. الشيطان أمام عينك.. في حلمك كنت خائفًا منه وجبانًا ودفنت نفسك بين الناس .. وفي حياتك الحقيقة حاربته بنفس أسلحته بس نسيت أن نهايتك هتبقي معاه في جهنم وبئس المصير.. والحقيقة أن الشيطان مظلوم معك يا روح.. الشيطان لم يكن مهتمًا بك! كان مطمئنًا تاركًا إياك لنفسك.. والنفس البشرية أخطر من الشيطان يا روح.. "نفسك" كانت هي الشيطان الحقيقي في حياتك. تجاهلت أعظم النعم من الرب.. الضمير.. الضمير الذي ألقيت به أسفل قدمك فخسرت كل شيء.

– بابا، عايز آخد رأي حضرتك في موضوع.

مممممم ماذا بكِ يا سمية! ألا تأتين لي من أجل الود فقط.. هل من الضروري أن يكون هناك أي طلبات كلما تأتيني أنا ووالدتك..

– مالك يا حبيبتي فيه إيه؟

– أبدًا.. خير.. بس أما نقعد لوحدنا.

تدخَّل شعيب قائلًا:

– وأنا كمان يا بابا عايز حضرتك.

– إنت بالذات أنا اللي عايز حضرتك.. إنت مش واخد بالك إن شكلك في النازل.. تحت عينك إسود وشكلك دبلان وجسمك محني وكأنك "فواعلي" عنده خمسين سنة وجاله السُل.. إحنا هنقعد ونشوف فيه إيه!

– لا أنا تمام يا بابا ما تقلقش..

– ما أقلقش إيه بس؟! عمومًا أما نقعد نتكلم.. وانت كمان يا سليمان عايزين نقعد شوية.

رد سليمان قائلًا:

– تحت أمر حضرتك.. أنا ولا تحت عيني اسود ولا دبلان!

– عارف يا أخويا إنك زي القرد ومحافظ على نفسك وبتعرف تصرف أمورك.. أنا بس عايزك عشان أعرف أخبار كنوز الياماشتا إيه.

– تمام أوي ده فيه واحد من العواجيز اللي كان مجند في الجيش زمان لسه عايش وقا....

– بس خلاص لما نقعد قُلت.. مش وقت شغل إنت مازهقتش شغل؟ جتكوا نيلة كلكوا مش عارف أتهنى على الجيوان.

تدخلت صفية قائلة:

– إنتوا كل شوية ياماشيتا ياماشيتا.. إيه دهب الياماشتا ده؟ مش ده اللي كل شوية تسافر الفلبين عشانه يا واد يا سليمان.

– واد ! واد حاف كده.

– يا سعادة الواد بيه.. حلو كده يا حيلة أبوك.

ضحكت وقلت:

– آديك هتجيبلنا الكلام يا عم.. إخرس بقى.

ردت عليّ صفية قائلة:

– أنا عايزاك يا روح شوية في المكتب قبل ما تقعد مع عيالك .

– طيب إستني أخلص الأول مع العيال وبعد كده نتكلم براحتنا.

❊ ❊ ❊

(34)

نظرت لسليمان في قرنية عينيه لأرى فيها قوة العالم.. وكأن الكرة الأرضية بكل ما فيها محاصرة داخل ألوان قرنيته.. يا سليمان.. قد أصبحت حقًّا الملك سليمان.

نظر إليَّ سليمان وتوقع أن حديثي الأول سيكون له، وبادرني بالحديث:

– أؤمر يا كينج..

– كينج إيه يا كينج.. ده انت اللي كينج.. إحنا من رعاياك يا ملك.

– ملك على الدنيا كلها إلا أبويا الإمبراطور.

– بلا امبراطور بلا ملك.. سليمان أنا مش بشتكي منك في أي حاجة وطول عمرك مريحني.. ويمكن أنا دلوقتي بشتكي من نفسي لأني عملت فيك كده.

– عملت إيه؟!

– خليتك ملك.

– .....

– مَلك على مُلك مالوش أي لزمة.. إنت بتعمل إيه بمُلكك ده..

بتعمل إيه بقوتك.. بتعمل إيه بإيدك اللي لافها حوالين العالم ومسيطر عليه؟

– يعني هعمل إيه يا حاج؟

– تبقى حامي للحياة.

– يعني إيه حامي للحياة؟

– يعني تبقى إنسان تحمي الإنسانية.. تحط كل همك في حماية الخير.. تحمي اخواتك وصلة الرحم بينهم.. تحمي المظلومين.. تحمي الغلابة.. الغلابة يا ابني.. وعمرك ما هتقدر تعمل كده إلا لو كنت جامد وشديد.. إلا لو كنت مفتري.

– مفتري عشان أبقى مع الخير؟

– ما انت يا ابني لو مش هتقدر تدوس على المفتري مش هتقدر تحمي الغلبان.. وعشان تقدر تدوس على المفتري لازم تبقى مفتري أكثر منه.

– يعني قصدك ولا أبقى كده ولا كده.. أمسك يعني العصايا من النص؟

– إنت بقيت غبي ليه؟! إنت ضارب حاجة مع أخوك ولّا إيه.. لا ماتمسكش العصايا من النُّص يا سليمان.. أنا عايزك تمسك العصايا كلها.

– كلها؟!

– سليمان.. إتعلم يا ابني كل أساليب الشيطان.. إعرفها كلها.. امتلك كل إمكانيات الشيطان.. دي الحاجة الوحيدة اللي هتخليك تسيطر على الخير والشر.. وتعدي عمرك على خير.. ركز يا سليمان..

اللي بقولهولك ده هو الحاجة الوحيدة اللي هقدر آديهالك قبل ما أموت.

– أنا فاهمك يا بابا.. بس بالعقل كده! هعمل إيه لو الشيطان غواني وخلاني أستخدم إمكانياتي دي لصالحه؟ ده أنا وقتها هخش جهنم حدف.

– لأ.. الشيطان ما يقدرش يعمل كده.. الشيطان دايمًا بيعرف عدوه قبل ما يحاربه وعمره ما هيهاجمك وهو عارف إن عندك نفس إمكانياته.

– تمام ده كلام جميل.

– جميل إيه وزفت إيه أنت بتاخدني على أد عقلي ياض.

– لا أبدًا والله هاهاها قصد حضرتك إني أبقى قوي زي الشيطان فالشيطان مايقربليش.. صح كده؟

– صح يا اخويا.. بس لازم يبقى عندك الحاجة الأهم.. اللي أنا ندمان عشان عمري ما حاولت أكبرها فيك زي ما بكبر الملك من حواليك.

– حاجة إيه؟

– الحاجة اللي بوصيك تخليها القائد لجيوشك وانت بتحارب في الدنيا.. تقعده على عرش عالي فوق قلبك.. اظهر له الطاعة الكاملة وأنحني ديما قدامه وقدام أوامره.. إوعى تبطل تاخد قرارته وتنفذها حتي في أتفه االمور قبل أهمها.

– هو إيه ده يا بابا؟!

– ضميرك يا سليمان..

– ضمييييري.

– أيوه ضميرك يا ابن الموكوسة.

نظر سليمان في "الأي باد" الخاص به أثناء قيامه متجهًا نحوي ليقبِّل رأسي، ثم قال:

– ربنا يخليك لينا يا حاج.

قالها سليمان ليس لطاقة حب مفرطة داخله تجاهي كما حاول الإظهار لي.. ولكنه للأسف قام بهذا لينتهي فقط من كلامي الذي لا يساوي عنده شيئًا "مجرد أب عجوز شكله بيخرف".. فتركته بانتباهي والتفتّ لشعيب لأبدأ معه محاولتي الفاشلة في نصحه كأب.

– وانت يا أستاذ شعيب.. يا باشا.. يا مدلع نفسك وبايع القضية.

– أنا إيه يا حاج! أنا لا بحارب ولا حتى بستسلم.. أنا عايش في حالي ومالیش دعوة بحد غير نفسي.. سليمان آهو وحضرتك ربنا يديكوا طولت العمر.. إنما أنا عايش بستمتع كده وخلاص.

ردَّ سليمان:

– تستمتع آه.. بس فالح كل شوية تاخد كام مليون وتفتح بيهم مشروع ولا حتى بتقول مشاريع إيه.

كان يتحدث سليمان ببعض المرح ولكن شعيب لم يتقبل الكلام وشعر بسخرية أخيه منه فأنهيت الشجار قبل أن يبدأ:

– وانت مال أمك انت! ما ياخد اللي ياخده.. إنت هتذلنا يا واد إنت عشان شوية مؤسسات ومشاريع بتديرها ولّا إيه!

قال سليمان:

– العفو يا حاج ده خيرك وأنا بس بتعلم.. بس بلاش تجيب سيرة أمي أحسن أندهالك والله.

ضحكنا ثلاثتنا ثم قلت:

– طيب اقعد ساكت يا روح أمك وخليني أتكلم مع أخوك من غير وجع دماغ.

– أخرج أنا منها.. عيشوا.. أنا مش هفتح بوقي.

أخذت نفسًا لشعوري بانقباض في عضلات قلبي يصطحبها دوَّار بسيط في أعلى الرأس.. سيطرت على هذه الظواهر الغريبة بنفسي العميق لأضع عيني كالسهم في قرنية شعيب.. إنها قرنية ضعيفة ولا تدل على شيء بالمرة سوى (اللامبالاة)..

– طيب قولي بقى يا أستاذنا.. ما تحاربش ماشي.. بس ماتعيشّ خالص؟!.. إنت عايش ولّا بتعمل إيه بالظبط في الدنيا يا شعيب؟

– أأأأ.....

– عايش عشان تشرب مخدرات!

– مش كده يا حاج..

– لأ عايش عشان تشرب مخدرات.. وعلى فكرة أنا معاك.. المخدرات متعة فعلًا.

– لأ مش متعة يا حاج والله.

– لا متعة.. أنا اللي بقولك إنها متعة.. بس عارف ليه إنت شايفها متعة؟

لم يرد فتابعت أنا:

– عشان عمرك كله ضايع فيها.. المخدرات يا شعيب عبارة

عن أحلام يقظة.. حالة لاوعي.. سعيد ومبسوط.. ولأنك ابن كلب والفلوس تحت رجليك بتشرب أغلى أنواع المخدرات.. باااشا.. يا سلاااام.. بتشرب أنواع مخدرات تخليك عايش في حالة من النشوة.. إحنا ربنا رزقنا بنشوة الأكل والنوم ودخول الحمام والجنس.. وانت زودت لنفسك نشوة زيادة (المخدرات).

أسقط شعيب رأسه للأسفل وكأنه خَجِلٌ أو ربما موجوعًا، ولكني لم أهتم لذلك وأكملت:

– بس وبعدين؟! عمرك بيضيع وانت مش حاسس بيه! تشرب تخش في النشوة والصهللة وتسافرلي فوق السحاب.. مش بقولك باشا.. بس بمجرد ما بتفوق تاني يوم بتكتشف إنك فاكر كل حاجة طشاش.. اليوم اتسرق منك! ويوم يتسرق وراه يوم يتسرق وانت ولاا واخد بالك!

يا حاج مفيش حاجة بتتسرق ولا حاجة أنا دايمًا عارف حدودي وبفضل فايق؟

– فايق؟! إنت هتشتغلني ياض إنت! دانا أخدت دلوقتي نفسين مارجوانا بس وبدأت أحس إن دماغي مش فيا! اومال أنت بتبقى عامل إزاي بالبلاوي اللي بتضربها دي؟!

– مش كده يا حاج خالص صدقني.

– شعيب.. إنت سافرت معظم دول العالم.. تقدر تفتكر أي ذكريات حلوة من السفر ده؟ تقدر تفتكر تفاصيل التفاصيل لأي مكان جميل زُرته؟

– تمتم...

– أكيد لا.. تفتكر إزاي وانت ماكنتش عايش أصلًا.. إنت يادوب بتفوق من الغيبوبة عشان تشوف نفسك فين وبتعمل إيه فتفتكر إنك مش فارق معاك حاجة، فترجع تشرب تاني وتخش في الغيبوبة تاني.. وآدي نص عمرك راح! هتكمل بقية عمرك في الغيبوبة يا شعيب!

– بابا أنا بس بدلع نفسي شوية.. أديني بلف العالم وفي السفر سبع فوائد.

– ما انت لو عارف السبع فوائد أنا كنت استريحت.. إنت مش بتسافر إنت بتوه! بتصيع.

– كل ده عشان بشرب ميرجوانا ولّا حشيش.

– لا كل ده عشان إنت مدمن كوكايين يا شعيب.. إوعى تفتكر إني نايم على ودني.

– كوكايين إيه..!

– كوكايين يعني كوكايين يا شعيب..

– لا يا با...

– شعيب ماتعصبنيش.. إنت مدمن كوكايين وكمان أكثر من مرة شربت "فلاكا" وما بتعملش أي حاجة في حياتك.. وانت كده عايش ميت.

– ميت إيه بس و "فلاكا" إيه بس..

– "فلاكا" المخدر الجديد اللي بيخلي الواحد زي الزومبي.. إللي كل ما بتروح أمريكا بتشربه.

– يا بابا صدق...

– كلامي خلص يا شعيب وأنا للأسف مشارك معاك بدلعي فيك والموضوع انتهى.. عيش زي ما انت عايز.. أنا نصحتك وخلاص وعارف إن كلامي مش هيفرق.. ولو فرق دلوقتي مش هيفرق بعد كده لما أموت.. وابقى إفتكّر كلامي ده يا شعيب ويلا امشي من قُدَّامي حالًا.

غادر شعيب بعد أن تركني غاضبًا لأبدأ مع سمية الحديث:

– عاملة إيه يا ست هانم؟

– قصد حضرتك على الشغل؟ الفندق تمام

– فندق إيه! إنتِ عاملة إيه في حياتك.. ويوسف جوزك؟ عامل إيه معاكِ؟

– ببساطة كده يا بابا وباختصار ومن غير نرفزة أنا خلاص اتطلقت من يوسف.

– اتطلقتِ! ليه ؟ ومن غير ما أعرف!

– بابا أنا تمام وكل حاجة تمام والفكرة بس إن الموضوع حصل كله بسرعة مش أكتر.

– الواد ده ضايقك ولّا عمل حاجة؟

– لا لا بالعكس إحنا اتطلقنا باحترام وهو كان جينتل مان.

– جينتل مان آه.. إمشي يا سمية اطلعي برَّه وسبيني لوحدي.

– مالك بس يا بابا فيه إيه؟

– قُلت امشي إطلعي برَّه.

– بابا...

– إطلعي بَرَّه قُلت.. غوروا في داهية بقى وسِبوني في حالي شوية..إنتوا ماوراكوش حاجة! إطلعي وقولي لإخواتك كل واحد يروح يشوف مصلحته أنا مش عايز أشوف حد فيكوا.

كنت سأعود للتفكير مع نفسي مجددًا بعد مغادرة سمية.. ولأُبعد التفكير عني التقطت سيجارة المارجوانا في يدي وقُمت بإشعالها وجلست على الكرسي ببعض السكون والتراخي.

لا.. لن أتحدث إلى نفسي مجددًا.. فأنا على عرشي.. في قصر من قصوري.. في الأعلى طائرتي الهليكوبتر الخاصة بي وفي المطار طائرتنا الخاصة الأخرى تنتظرنا كقصر متحرك ينقلنا لأي بقاع الأرض حيث مشاريعي ونفوذي وأموالي تسيطر على العالم. أنا أعرف أن الكمال لله.. ولكني لم أرغب في الكمال قط.. فقد رغبت في السيطرة على العالم وتغيير جذر عائلتي وقد كان.. فكفى حديثًا إلى نفسي وكفى تأملًا للناس وما بداخلها وعلى رأسهم أبنائي.. أبنائي لهم كل ما سيحتاجونه والكل حرٌّ فيما له..

ومن يحدثني هذا لابد وأنه الشيطان.. ومن المؤكد أنه يكره لي النعيم في الحياة الدنيا، أو ربما أنا مخطئ وهذا ملاك ويكره لي العذاب في الحياة الآخرة.. وأيًّا كان فليصمت.

فلتصمت يا هذا.. ملاك أو شيطان لا يهمني.. فقط إبتعد عني.. أنا روح ألماس عبدالحي.. ابن العائلة الثرية التي لا تخشى في العالم أحدًا.

اااه.. أنا أشعر بوجعٍ في أعضاء جسدي بالكامل.. وجعٌ لم أشعر به إلا في حلمي اللعين من عشرات السنوات.. وكأني الجثة الميتة

التي كان يتقطع منها إربًا في المستشفى الحكومي أثناء موتي بواسطة الدكتور والباحث والممرضتين.. وكأن أعضائي تقلع عني من جديد!

وأنت يا هذا ما زلت تتحدث؟! فلتصمت لأفسر ما يدور.. انصرف! تبًّا من أنت.. وما هذا؟!

تدور الدنيا من حولي وكأني في جهاز "الرنين" الخاص بالأشعة.. كأني مثبت لا أستطيع التحرك.. أسمع أصواتًا غير مفهومة ولا أستطيع حتى أن أسد فراغات أذني لأمنع ما أسمعه.. أهي سكرات الموت؟.. لا، هذه ليست سكرات الموت.. فبالرغم من أنني لا أتحرك إلا أنني أشعر بكل جسدي.. كما أني أشعر بصفية تقف أمامي أسمع صراخها:

– مالك يا روح. عيالك لسه ماشيين دلوقتي أتصل أجيبهملك؟

حركتني برفق في محاولة لجس نبض الحياة بي.. فأوقعتني عن دون قصد من على كرسي المكتب لأسقط أرضًا.

ألم فظيع في كامل جسدي يأتيني إثر السقوط وأنا عاجز عن التعبير عنه.. يشتد صراخ صفية مشعًا برعبٍ لم أرَه فيها من قبل.. الخدم والعاملون بالقصر يحملونني إلى أعلى القصر.. ربما أنا في طريقي للهيلكوبتر وبها أذهب للمستشفى.

حقًّا هذا هو بالفعل.. أسمع أنطوين سائق الطائرة الهليكوبتر يلوِّح بكلمات في رادار الطائرة وكأنه يبلغ مستشفى بالاستعداد لوصولي.. وجهي مستندٌ إلى فخذ صفية.. وربما يدها على جبهتي.. نعم على الأرجح يدها على جبهتي.. أتوقع هذا بنسبة كبيرة.. صوتها أصبح هادئًا وتتلو آياتٍ من القرآن.. وأنا أسمعها بوضوح.. هل أنا ميت؟! بالطبع لا! فأثناء موتي لن أستطيع أن أنطق لفظ الجلالة "الله".. ولكني أردده الآن وأردد معه آيات الله الكريمة من وراء صوت صفية العذب..

إذًا أنا فقط مريض.. ولكن ماذا بي.. لم أشتكِ من شيء في حياتي الجديدة.. السكر، الضغط، القلب، كلها أعراضٌ لم يكن لي علاقة بها من قبل.. ربما بعض الشكاوى من القولون العصبي وحاربتها بتنظيم غذائي.

ما هذا الذي أعيشه؟! فأنا أعيش بروحين.. روح في جسدي تشعر بعض الشيء بما حولها دون أي قدرة على فعل أي شيء أو أي رد فعل.. أما عن الروح الأخرى فهي ما أتحكم فيها بشكل كامل.. ولكنها روح غريبة ترى وتسمع وتشعر بأشياء أغرب.. وكأنه كياني منقسم.. يعيش نصفه في أعالي السماء بينما يعيش النصف الآخر في أقصى درجات الأرض السفلى، أرى سوادًا يتحول لبياض ثم إلى لونٍ أحمر كدم الغزال.. إنها قطعة قماش مفروشة تحت جسد خير الخلق الرسول محمد عليه أفضل الصلاة والسلام.. تنتابني سعادة بالغة.. وفجأة أجد نفسي أسقط تحت الأرض مبتعدًا عن تلك القماشة.. دود غريب لم أرَ مثله قَط يأتي نحوي فيتضخم حجمه ليصبح أكبر منّي في الحجم.. لا بل أنا مَن يتضاءل جسدي لأصبح أقل منه حجمًا.. مع اقتراب الدود يختفي ليظهر بحجمه الصغير مرة أخرى ولكنه في تلك المرة يتجول بين أحشائي.. نعم.. أنا أشعر بوجوده جيدًا.. يسير بين شراييني كطابور نمل منظم أثناء العمل وجمع الطعام.. تخرج كل لحظة دودة عن الصف لتلتهم جزءًا من أعضائي ثم تعود به للصف مرة أخرى.

كل هذا وأنا لا أدرك الوقت.. وكأن قرونًا من الزمن تتحول لثوانٍ معدودة.. أسمع أصوات أجهزة طبية دقيقة وألتمس أجهزة ملصقة في جسدي.. أما عن مكاني فأدركه جيدًا لأني علي يقين من وجودي في غرفة للعناية المركزة في إحدى المستشفيات الكبرى بمصر.

فجأة شعرت بألم في أسفل قدمي اليسرى..آه.. إنها إبرة لعينة تشك أسفل قدمي.. وبرغم ما تسببه لي من ألم إلا أن وجعي الحقيقي كان بسبب عدم قدرتي على البوح بذلك الألم.. أريد أن أصرخ ولكني لا أستطيع.

سمعت صفية تتحدث بهدوء يسكنه صراخ:

– أنا عمالة أشكه في رجله يا دكتور وهو مش حاسس؟ هو كده في سكرات موت ولّا إيه؟

– الأعمار بيد الله يا صفية هانم.. إن شاء الله يبقى زي الفل.. وبعدين سعادتك دي أعراض طبيعية للسكتة الدماغية.

هل الذي سمعته صحيحًا! سكتة دماغية! أحقًّا أُصَبت بالموت إكلينكيًّا!

❊ ❊ ❊

(35)

مضت عليَّ سنين في هذا العذاب الدنيوي الذي أعيشه.. أو ربما هي لحظات وليست بسنين.. فأنا لم أكن مدركًا لأي اعتبارات زمنية.. لم أكن أمتلك نعمة الوعي..

ولكني عدت إلى الوعي من جديد.. فكيف ذلك؟! غريب أن أشفى من ذلك المرض الذي لا يُشفى منه أحد على الإطلاق.. ولكنه ما حدث بالفعل.. فقد استرجعت شعوري بكل جسدي، وما لفت انتباهي لهذا هو سماعي لكلمات سمعتها من قبل وبنفس الصوت:

– قوم يا روح.. قومي يا ابني ما ينفعش كده !

إنه صوت بدر الدين، ومن المؤكد أنه أتى للاطمئنان عليَّ.. وأنا قد شُفيت! أستطيع أن أفتح عينيَّ وأراه.. أستطيع أن أحدثه.. نعم أنا شفيت.. ربما عاجز بعض الشيء ومنهك ولكني أستطيع فتح عينيَّ واستخدامهما في النظر.. كما أني مدرك وقادر على الحركة بعض الشيء.. وهذا إن دل على شيء فهو يدل على أنني حيٌّ..

شاشة تلفاز ضخمة أمامي.. وورود بجانبي.. في الأعلى مخرج من الحائط مخصص لجهاز التنفس، وبجانبه جهاز قياس نبضات القلب.. في فتحت شرجي خرطومٌ لإخراج إفرازات جسدي.. في فمي جهاز التنفس وفي يدي لاصق طبي أسفله إبرة موصَّلة بكيس محلول ملح.

جالس أمامي "عم بدر" يبتسم بوجهه المألوف..

– سلامتك يا روح يا ابني.. قوم يا حبيبي..

– ازيك يا "عم بدر".. إنت كنت فين؟

– كنت في الدنيا.

– أيوه بس ده انت اختفيت من حياتي فجأة!

– وانت ما فكرتش حتى فيَّا ولا أنا فين.. ولا محتاجك ولّا لا؟! كنت مشغول وفاكر نفسك بتغيَّر جذر عيلتك؟! قوم يلا قوم قوم.

– هو أنا في المستشفى بقالي أدّ إيه؟

– بقى لك عمرك كامل.

– عمر كامل إزاي؟! يعني أدّ إيه بالظبط وعيالي فين؟

– مش وقته الكلام ده.. قوم الأول.. قوم صلّح اللي عملته قبل ما تموت.

– أعمل إيه يعني؟! مش فاهم؟

– قوم إلحق استغفر ربنا..

– أستغفر الله العظيم يا رب..

– لأ دي مش كلمة وخلاص! قوم يلّا إلحق عيالك.. وعشان صفية كمان اللي مستنياك دي.. يلا إجمد عشان تقوملها بالسلامة وتعوضها.

– أعوضها عن إيه؟

– عن فشلك..

– فشلي؟! دانا تعبت أوي في حياتي عشانها وعشان عيالي وعيلتي..

– روح.. انت كان ممكن تخش الجنة بمجهود بسيط.. أقل بكتير أوي يا ابني من المجهود اللي عملته عشان تخش بيه النار.. قوم يا ابني يلّا روح لمراتك.

بالرغم من أنه يعاتبني إلا أني ابتسمت راسمًا مشاهد حياتي مع صفية وكأنها تحدث من جديد، وأجبت على حديثه، ولكني كنت أتحدث لنفسي وليس له:

– صفية مش مراتي يا "عم بدر"! صفية عشيقتي.. مراتي إيه وبتاع إيه! اللي بيني وبين صفية ملوش أي علاقة "بمراتي" دي.. الواحد مهما كان بيحب لازم بعد الجواز يحس ولو لفترة صغيرة إنه زهقان من مراته.. يشوف واحدة غيرها ويقول ياريت دي اللي كانت مراتي.. يندم مرة إنه اتجوز ويقول أنا ليه استعجلت.. إنما صفية هي الحاجة اللي كل ما أشوفها أبقى في حالة ذهول إنها بس قدامي وبتاعتي وأنا بتاعها.. وهي في حضني مش بحس إني في الجنة! أنا راجل منطقي وما بحبش المبالغة.. بس وصفية في حضني بحس بالأهم من كده بكتير.. بحس إن ربنا باعتلي رسالة وبيقولي إنه بيحبني وهيدخلني الجنة بعد ما أموت.. أصل فيه إيه دليل على حب ربنا ليَّا ورضاه عني أكبر من إنه يبعتلي صفية تبقى عشيقة حياتي.

– بس الحب طول عمره محتاج قلوب. .وانت كنت عايش من غير قلبك يا روح! هو فيه حد بيحب بالعقل؟!

– عقل هاهاها عقل إيه بس.. طيب إنت عارف إني عايش مراهق لحد دلوقتي! لما بخرج مع صفية مش بنخرج من البيت مع بعض.. دايمًا بحب أروح شغلي أو أي مكان وبعدين أروح أقابلها بَرَّه البيت.

– مش فاهم.. يعني إيه؟!

– أصل لما بقابلها بَرَّه بحس بمراهقتي، بحس إني شاب مراهق سرق فلوس الدرس من أبوه عشان يخرج مع حبيبته.. بس العظيم أوي إن أي مراهق دايمًا بيسأل نفسه: هو هيقدر يتجوز حبيبته وقصة حبهم هتكمل ولا لا؟ والسؤال ده دايمًا سبب سعادة ناقصة في أحداث أي قصة حب. إنما أنا حاجة تانية.. أنا حبيبتي بتروَّح معايا البيت.. ولما بنقرب من البيت ببقى فرحان عشان صفية مش هتطلع بيت أهلها وأنا هودعها.. ولا حتى هتطلع معايا عشان تبقي هي في وادي وانا وادي ونبقي مجرد اتنين متجوزين ومستقرين.. لا.. صفية مش عايشة بعيد عني.. صفية مش محرومة من النوم في حضني بالليل.. صفية بتروَّح معايا أنا.. صفية بتبقى جنبي وأنا قالع نُص هدومي وقاعد بأكل بطيخة.. هتجيبلي فنجان قهوة وأنا بتفرج على فيلم في التليفزيون.. هقوم أحط الفنجان في الحوض بعد ما أخلص وهي تبقى واقفة في المطبخ.. أهزر معاها وأقولها: أي خدمة بساعدك أهو.. وهي تقولي بتساعدني عشان جِبت الفنجان! فتحت عكا يعني حضرتك!.. وأنا بقى أفرح فرحة حقيقية وأضحك من قلبي.. وطاقة الدنيا تنط في قلبي وأقولها طيب تعالى أما نفتح عكا بجد ما دام مش عاجبك.

– يا سلام يا سيدي على الحب..

– هاهاها وأشيلها وأخرج بيها من المطبخ بقى..

– يا عيني..

– أنا مش ببقى شايلها وماشي بيها في البيت! أنا بلف بيها الحياة.. بحس إني طاير بين الكواكب والعالم كله نقطة صغيرة بعيدة

ومش مهمة.. سعادة مش موجودة في الدنيا بتاعة الناس.. أقولك على حاجة يا "عم بدر".. صفية ولا مراتي ولا حتى عشيقتي! صفية دي جزيرة معزولة عن العالم.. الهوا موجود عندها وبس.. الشمس هناك مش بتغرب.. وبمجرد ما تحط رجلك فيها تبقى لا بتاكل ولا بتشرب.. ببقى أرقى من كده بكثير.. بعشق ريحة عرقها وأنا في حضنها وبخش جُوَّه قلبها عشان أشوفها مستمتعة بريحة عرقي.. صفية هي الجزيرة اللي وأنا في حضنها برجع لأصل آدم.

– آدم؟

– آدم.. آدم لما كان لسه في الجنة قبل بداية البشرية.. آدم قبل كل شهوات الدنيا وقبل كل تغيرات جسمة.. آدم قبل لعنة الأرض.

– أومال عيّشتها معاك حزينة ليه يا روح؟

– ما كنتش أعرف إنها حزينة.. أنا عرفت كده قبل ما أتعب على طول.. يمكن أكون تعبت بسبب إني عرفت كده.. لأني مش فاكر بالظبط أنا حسيت بإيه وقتها.

– يعني عارف آهو..

– عارف بس مش فاهم.. هي زعلانة ليه يا "عم بدر"؟! ليه كانت عايشة حزينة معايا؟

– مش أنا اللي هقولك.. أنا هسيب أمك وأبوك هُمّا اللي يقولوا لك.

– الله يرحمهم بقى زمانهم في الجنة ونعيمها.

– يعني هو أنا اللي عايش.. ما أنا كمان معاهم في الجنة ونعيمها.

– ميت إزاي؟! أومال قاعد معايا إزاي؟!

– أنا مش قاعد معاك يا روح.. إنت بتحلم يا حبيبي.. حلم عادي.. إنت لسه ميت إكلينيكيًا.. وطبيعي تحلم كتير وانت كده.

– يعني انت مش حقيقة؟!

❊ ❊ ❊

(36)

نظرت له لأجد ملامحه تتحول من ملامح كالملاك للعكس تمامًا.. رجل بملامح مظلمة كقبر كافر.. ملامح شيطان.. بل إنه إبليس بنفسه وليس مندوبًا عنه! يقترب بسرعة تفوق أي سرعة سمعنا عنها في دنيا الأحياء ليخترق وجهي فيخيفني بنظرات استفزازية.. وفجأة يحنو عليَّ بيده ويحتضنني بدفء لا وصف له.

– مالك ومال صفية يا روح؟ مش كفاية دخّلتها النار؟!

– أمي! جميلتنا أبرار! إزيك يأما عامله إيه؟

– بكرهك.. وانت عارف من مش هيحبك غير المنافقين؟

– المنافقين؟

– أيوه.. المنافقين.. وصفية كمان بتكرهك عشان الله يحرصها مش منافقة

– ده أنا ماخُنتهاش عمري! وعملتها كل حاجة ممكن إنسان يحتاجها.

– بس خُنت نفسك.. غدرت بنفسك وقتلت نفسك وظلمت نفسك.. وعشان تحمي صفية من العالم خليت العالم خايف منها!

– يعني كنت أعمل إيه يعني؟

مدت يدها على يدي بحنوٍّ الأمومة الذي اعتدت أن أراه فيها.

– تقدر تعمل كتير يا حبيبي..

كان سيرتعش قلبي من الحنية في نبرة صوت أمي الجميلة أبرار.. ولكن جاء ما يفزعني دون أي تنبيه.. إنه صوتٌ يقول:

– قصدك كان يقدر يعمل يا أبرار.. خلاص فات الوقت.. هو دلوقتي عويل، حبيس الدنيا ومفيش قُدَّامه غير إنه يستنى الموت.

إنه صوت ألماس.. أبويا.. جاءني جالسًا على شمالي في الجهة المقابلة لأمي.. وبينما نظرت له مرتعشًا من القوة والحدة في كلامه رأيته جالسًا على الأرض كما تعوَّد أن يجلس أسفل سلم العمارة في عشتنا الخشبية قديمًا.. كان يحدِّث أمي وكأنه يعنفها على أنها تحادثني بلطف.. أما عن أمي فقد اختفت.. وبهذا أصبحت كالطفل المخطئ الذي يجلس مع والده ليُعَاتب على فعلته.

– إنت مش عارف إنت كنت تقدر تعمل إيه..

– كنت هعمل يابا..

– كنت حِبنا أنا وأمك بجد.. احترمنا.. حب عيلتك وجذرك.. احترمهم.

– أنا كنت بحبُك...

– إنت كنت شايفنا ناس فاشلة.. عايز تغيَّر نفسك وتخرج من جلدنا وخلاص! إنت ليه اعتبرتنا ناس فاشلة؟!

– إنتو مُتوا مقهورين عليَّا..

– إنت غبي.. إبليس بيراقبك من بعيد.. إحنا مُتنا واحنا مبسوطين في حياتنا.. المقاومة.. الحب.. الحق.. الخير.. الجمال.. الرضا.. حُب ربنا الخالص لوجهه.. مش حُب ربنا الخالص لوجه الدنيا زي

حضرتك.. ياه يا روح!.. إنت فيين وحياتي أنا وأمك فين.. أنا أنجح منك بكتير.. زوجة جميلة عِشت معاها أعظم قصة كفاح عشان نربيك.. كنا مستمتعين بيك.. وانت من خيبتك ضيعت ده كله بعد ما موتنا.

– أنا آسف يا حاج..

– آسف! آسف إيه ونيلة إيه.. خلِتني أشوفك حاجة قذرة وأنا في قبري بعد ما مُت.. نكدت عليَّ في قبري الله يخرب بيتك.

– إنت مش شُفت معايا الحلم اللي حلمته؟ هو كان حلم ولّا كابوس؟! أنا شُفت فيه مستقبلي وكان لازم لما أفوق أتعلم منه وأستفيد.

– دي كانت هلوسة يا أهبل.. بس إنت ما اتعلمتش منها حاجة.

– هلوسة إيه!.. لا .. أنا قصدي لما نمت في حضن أمي وهي ميتة يا أبويا.

– ما تقولش على أبرار أمي.. وماتقولش عليا أبويا.. والدنيا هي اللي كانت هلوسة.. إنما حضن أبرار كان جزء من الجنة.. وخلاص.. العمر خلِص وآهو جالك آهو ينفذ الأمر زي ما جالنا قبلك..

– سلام الله وعدله عليك يا ابني.. سلام الله وعدله عليك.

رحل الجميع عني وكأني المتبقي الوحيد في الكون من الإِنس والجن والملائكة ثم جاء ما كنت أنتظره..

– أراك..

ما هذا؟

– أراك..

ما الذي يجري!

– آنَ..

ما هذا الصوت.. من أنت؟

– روح؟ تراني؟.. أراك..

صوت ليس بأجشّ.. ولكن الرهبة في سماعة تتخطى كل حدود الكوارث الدنيوية.. وكأن مرض الصرع أصاب الفراسخ النجمية فقلَّت الكثافة المعتادة لأيونات الهيدروجين في كامل السديم الكوكبي.. فبدأت الأرض في حالة من التشجنات أخرجتها عن الحقل الواقي المغناطيسي ليرضخ الكون ذعرًا من هذا الصوت بين الأجرام السماوية في الفضاء البينجمي.

– قد انتزع الخيار منك بجلال سلطانه.. اترك الدهر.

لم أتفوه بكلمة حتى تحدث لي مرة أخرى.. فالتفتّ للصوت دون أن أعرف اتجاه نظرتي حيث اختفت كل الاتجاهات.. أنا الآن بدون يمين أو يسار.. فاقد لأعلى والأسفل.. لا أمتلك أمامًا أو خلفًا.. كل ما لدي هو أني ناظر في اتجاهه.. أراه جيدًا دون أن أراه.. لا أراه وحده.. بل إني أرى كل شيء في الكون بالتفصيل.. وكأن الكون تجمَّع بين عينيّ في قطعة من الضوء الواضح.. ضوء واضح.. ولكني لا أرى منه سوى الظلام!

– تراني كما أراك؟

أجبت عليه بحنجرة مرتعشة:

– أيوه أنا شايفك.

– جئتك في أوان حدَّده رب العرش.

– إنت عزرائيل؟

– لك أوان العدل..

– أنا هموت؟

– النعش هو رسول عدل الله في الأرض.. مصيرك في القبر هو حقٌّ معلوم.. وقد بلغتَ الرسالة من قبل..

لا بُد وأنه هو.. عزرائيل.. إنه عزرائيل.. إنه الموت.

– أنا هموت دلوقتي؟ إنت عزرائيل..

– عبدالله الفقير ولي العجل في أجلك..

– أجلي إيه؟

– روح ابن أبرار أتاك أجلُكَ.

– يعني هموت؟ أنا بموت؟

– القبر قِبلتك.

– يعني خلاص أنا بموت.. أنا بموت فعلًا.. أنا بموت.. أنا هخش جهنم؟ أنا هتعذب؟ أنا هيحصلي إيه دلوقتي؟ هتعذب في القبر؟

– قبرك لك وحدة فهل قرأت القرآن ليكون لك مؤنسًا.

قبرك لك ظلمة فهل أنرتَه بصلاتك

قبرك لك بيتُ التراب، فهل جعلت العمل الصالح فِراشك

قبرك لك بيت الأفاعي فهل حملت الترياق..

قبرك لك مقصدٌ لمنكر ونكير فهل أكثرت من قول الشهادتين؟

– طيب أرجع.. استنى لحظة واحدة.. أنطق الشهادة.. أنطق اسمه.. عايز أنطق اسمه..

– كانت لك دنيا خَفَّتْ فيها مَوَازِينك ولم تُثْقِلهَا..

– طيب لحظة؟

– نْزِلَتْ الروح مكنونة فكنت بين ثلة.. جعلك الوهاب سُدًى يُكلّف ويُجَازَى

– أرجع أنطق إسمه.. أنطق إسمه.. أنطقه بسرعة.. أستغفر.. أرضى.. أحمد.. أسامح.. طيب أستعيذ من الشيطان الرجيم..

– وأين عمرك يا روح ابن أبرار بنت حواء ضلع آدم؟ كنت تعلم أن العمر ليس بظل ممدود فكيف جعلته أُجاجًا.. لماذا لم تحرث في أرض الكبد لتحصد في نعيمٍ ليس لعظمته حدود.

– وأنا سقطت في الاختبار.. فشلت.. أنا بحبه.. بحبه بس كنت عايز أنجح.

– أفررتَ من شيطانٍ بروح باسرة لتجني الحنث.

– طيب لحظة واحدة أرجع الدنيا أندم فيها.. أندم بس؟

– ليس لقدر السلطان رجعة.. إذ قال كن فيكون.. رُفِعَت الأقلام روح بن أبرار بنت حواء من ضلع آدم وجفت الصحف.

لا أستطيع أن أصف درجة خوفي الآن.. وبذلك الفزع استقبلت جميع حواسي وجود صفية بجانبي.. هي تتلو آيات من القرآن الكريم.. أسمع صوتها المغمر بالدموع وهي تقترب مني لتحتضن وجهي بيدها الحنون.. أصابع يدها تحنو على جبهتي وبدأتْ في تلاوة سورة الفاتحة.. أعرف أنها الفاتحة، ولكني لا أستطيع أن أسمعها بوضوح.. ولا أدري ما الذي يتحرك بجسدي.. ربما تفوهت ببعض الكلمات لها أو حركت يديّ أو أصابعي.. ربما رمشت عيني أو حاولت قرنيتي

الانتفاض، ولكن صفية توهمت بأني أفيق من غيبوبتي.. وبدأت في الحديث إليَّ:

– قول ورايا يا روح يا نور عيني.

قالتها صفية لتعيد تلاوة سورة الفاتحة مرة أخرى ومع كل مرة تتلوها تلحقها بنطق الشهادة.. إنها صفية محبوبتي.. احتضانها لي حلال أنعم عليَّ به الرب.. فكيف لم أسعد بالحياة بالرغم من وجود صفية بها.. فها هي أصفى بني البشر تقف بجانبي في أولى لحظات الذعر الحقيقي من العقاب.. تحاول تلقيني الشهادة.. لابُد أنها تحاول إنقاذي من مصيري الأليم.. فربما هي تعلم مصيري أو على الأقل تتوقعه.. وربما تشعر بما أمرّ به الآن.. وسواء هذا أو ذاك ليس هناك فائدة مما تحاول فعله.. فأنا لا أستطيع سماع ما تقول بوضوح، كما أنني أصبحت غير حافظ للفاتحة ولا أعرف أي شي عن كلمات جملة الشهادة ولن أستطيع أن أنطقها ولا حتى بيني وبين نفسي.. فقد جاء صوت عزرائيل صائحًا:

– اترك جسدك..

– ...

– جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى بعد جناح بعوضة فقضي لك بيَوْمَ الْحَسْرَةِ.

– ...

– بأمر جلالته الرب الأحد الصمد اترك جسدك..

تناثرت لثلاثة أجزاء..

روحي.. وهي ترتعش رعبًا أمام عزرائيل في سكرات موتي..

جسدي يحتضر تمهيدًا لموتي بجانب صفية في الدنيا..

النَّفْس.. نَفسي السيئة.. النفس اللعينة التي غضب منها الرب وأوقعت بي في كل هذا الواقع الأبدي المرير.

وبين كل من الروح والجسد والنفس.. وبين عزرائيل وصفية وغضب الرب.. اعتلى عزرائيل الحدث.. فقد ارتفع صوته بكلمات لا أدركها.. عزلني عن صفية.. بل إني انعزلت عن الدنيا.. بدأت أعضاء جسدي تتقطع لأشلاء وتتحد متجمعة في قرنية عيني.. لا أجيد النظر.. ولكني أرى ما لم يكن لدي أي احتمال في أن أراه.. سقطت أشعة الشمس للأرض بدون رجعة لتصبح الشمس أكثر الأماكن ظلامًا في الكون.. تناثرت الكواكب متصادمة في بعضها لتصنع ضجيجًا اهتزت له المجرات الكونية.. أصبح الفضاء كساحة حرب دموية.. كائنات حية تتعارك أو ربما تلهو وتلعب وربما هي تنظر إليَّ ساخرة.. سقط الكون أمام عيني في محيط ضخم أمواجه هائلة.. فتحول المحيط لبقعة ماء متسخة داخل سراديب أموات وأناس كانوا يعيشون على الأرض منذ آلاف السنين.. أسقط وأرتفع.. سرعتي تزيد بشكل لا أستطيع استيعابه حيث أصبح الضوء شيئًا ماديًّا ملموسًا يسير بجانبي كسهام حادة تخترق جسدي.

❊ ❊ ❊

(37)

أنا في سماء تكثرها أمطار غزيرة من أحياء الجن كنت لم أرَها من قبل.. لا أعلم إن كانت هي سماء عُليا أو سفلى.. ولكني شعرت بإضاءة في الأسفل وكأنها أنوارٌ بشرية.. وكما توقعت.. إنها أبراج تنير باريس.. أجزاء من روحي تعرج للأعلى وتهبط بشكل غير منتظم ليختفي كل شيء فأجد نفسي داخل طائرتنا الخاصة.. نعم إنها هي.. تنظم المضيفة تجهيزات الطائرة بينما تشرف عليها مديرة الطاقم الضيافي ويستعد كابتن الطائرة في كابينته بحالة من الاسترخاء مع فنجان قهوة.. ربما هم ينتظرون سليمان للصعود لإحضاره إلى جسدي بمصر.. فمن المؤكد ان سليمان أعطى لهم أوامر سريعة بالسفر إلى مصر بسبب خبر وفاتي.

خرج الكابتن الطيار من كابينة القيادة بشكل سريع متحدث لمديرة طاقم ضيافة الطائرة.

- سليمان بيه وصل خلاص كل حاجة تمام..
- كله تمام يا كابتن..

نعم يا سليمان.. فرحتني يا ابني.. عرفتني إني كنت صح لما صنعتلك المُلك.. فعلًا كان لازم أخليك المَلك سليمان عشان أتشرف بيك في موتي وانت جاي تدفني.. أد إيه أنا مشتاقلك دلوقتي.

سمعت صوته على سلم الطائرة مهابًا في رجولته.. الجميع منتبهون له ينتظرون منه الإشارة لتنفيذ أي شيء يطلبه.. يتحدث هاتفيًّا بلغة غريبة وكأنها من الهند أو اليابان أو شيء مشابه لذلك.. يبدو أن سليمان سيجعل العالم كله يأخذ عزائي.. سلمت يا سليمان.. ترج العالم رجًّا لخبر وفاة أبيك..

دخل سليمان الطائرة وأغلق المكالمة لينظر إلى هاتفه بغضب.. إنها صفية تتصل به! لماذا يغضب من تلك المكالمة.. ربما هو منهار من خبر موتي ويريد أن يتماسك.. أو ربما لديه الكثير من الأعمال يجب إعطاء الأوامر فيها قبل أن يتفرغ لدفني وأخذ عزائي.. والأهم أنه رد على صفية قبل أن ينتهي جرس الموبايل.. سلمت يا سليمان تقف بجانب أمك في أشد الأوقات احتياجًا ليك.. سلمت يا ملِك.. سلمت يا ولدي..

– أيوه يا أمي حاضر قُلت حاضر..

لمَ يتحدث لأمه هكذا.. ألا يراعي أنها منهارة لموتي مثله تمامًا ويجب عليه أن يتحملها لأنها السيدة المسنة وهو الرجل؟!

– يا أمي قُلتلك مش هينفع..

ما هو الذي لا تستطيع القيام به يا سليمان؟ ماذا تطلب منك أمك؟.. بيما أسأل نفسي وجدت سليمان يوضح لي ما أريد معرفته حينما أكمل حديثه مع صفية:

– يا أمي دهب الياماشتا ده إحنا بنجري وراه بقالنا سنين.. وبابا نفسه كان مهتم بيه جدًّا.. الله يرحمه لو كان عايش كان هيطلب مني أعمل كده بالظبط.

ترد صفية ولا أعلم ما تقول ثم يكمل سليمان:

– يا أمي ده اتصلوا بيا النهارده من الفلبين وعرفنا مكان الكنز.. وما حدش في الفلبين يعرف أي حاجة.. ولا الحكومة ولا أي حد.. إحنا مش بندوَّر بطرق رسمية يا أمي.. والكنز ده لازم يتنقل حالًا من الفلبين على دوله تانية قبل ما الموضوع يتعرف.. أنا لازم أبقى في الفلبين حالا يا أمي.

يصمت سليمان مستمعًا لكلام صفية الذي لا أسمعه ولكني أتوقعه.. من المؤكد أنها متعجبة مما يقال لها كما أتعجب أنا الآن.. وينهي معها سليمان حديثة بغلق الهاتف أثناء حديثها بعد أن رمى لها بعض الكلمات:

– أمي أنا مش هضيع كنز كامل بندوَّر عليه بقالنا سنين عشان أبويا مات النهارده.. الموت يتأجل يا أمي إنما الكنز ما يتأجلش.. لو سمحتِ يا أمي أنا لازم أقفل الموبايل عشان الطيارة هتتحرك.. اتصرفي إنتِ لحد بكرة بس وأنا هكلمك.. استقبلي إنتِ مكالمات التعزية من الكل وقولي إن موبايلي مقفول وإني مختفي.. سلام يا أمي سلام سلام.

ياااه.. أنا لم أصنع ملكًا ناجحًا.. فقد صنعت شيطانًا.. تغويه كل مكونات الدنيا عدا الانتماء والمشاعر.. يتجاهل سليمان موتي لاكتشاف كنز! وللأسف أنا من صنعت هذا الشيطان المسمى بسليمان.. ولكن حتى يوم وفاتي يا سليمان؟!.. ألا يوجد ثمن لتكريم جسد والدك الذي صنع لك كل هذا الملك الذي أصبحتَ عبدًا له.

لم أشعر بحسرة كبيرة.. أو ربما أحمل مسئولية أني كنت السبب.. وربما لا أشعر بحسرة لأني روحٌ بلا جسد الآن وربما بلا مشاعر أيضًا.. فقط روحي مسترخية على الكرسي المقابل لكرسي سليمان في الطائرة.. أنظر إليه بدون عين ولو كان الأمر بيدي ما نظرت له مطلقًا.. ومن

الجميل أن صوته يبدأ في الانخفاض بشكل سريع حتى إني أصبحت لا أسمعه.. ارتجفت جفوني وكأن لي عينين مغمضتين.. وأفتحهما بقوة وتماسك لأجد نفسي في مكان آخر.. مكان أعرفه جيدًا.. مكان قمت بزيارته مرتين من قبل.. إنه الملهى الليلي "شيغوف" الذي زُرته في حلمي اللعين يوم وفاة أمي أثناء ما كنت في حضنها ووجدت شعيب فيه إرهابيًّا يفجر نفسه.. والمرة الأخرى كانت حينما قررت شراء هذا الملهى وقمت بإعطاء شعيب مبلغًا ليصبح مِلكًا له.. وقد فعلت هذا خوفًا على شعيب من أن يموت إهاربيًّا في هذا المكان.. فكان يجب أن أستغل نجاحاتي لأجعل من شعيب المدلل المرفَّه المنعم بالدنيا وجمالها.

يجلس شعيب على كرسي في القاعة الخاصة بشرب المخدرات وبيعها.. وبجانبه فتاة من أصحاب العيون الزرقاء والبشرة الصفراء.. ترسم على المنضدة سطورًا من مادة الكوكايين الخام متحدثة لشعيب بكل لطف.. فربما هي تواسيه في موت أبيه بطريقتها.. ملعون يا شعيب.. حتى في موتي تحزن عليَّ بتعاطي المخدرات.

يتحدث إليها شعيب والدموع تنهال منه:

– الله يرحمك يا بابا..

– إهدا شوية شعيب حبيبي..

هي تتحدث عربية غير مفهومة بعض الشيء..

– هو إنتِ يهمك أهدى ولّا ما أهداش.. إنتِ مش بتفكري غير في مصلحتك.

– دي مصلحتك إنت كمان شعيب ومصلحة أولادك حبيبي.. ما ينفعش نتجوز.. ومش هقدر أكتب أولادك بإسمك.. أنا ولادي ما ينفعش يبقي معروف عنهم أن أصولهم عربية.. كده خطر عليهم حبيبي.

– أومال مطلوب مني أروح دلوقتي لأمي وأقولها إن دول عيالي من الحرام.. إحنا عرب وشرقيين واللي بتحكي فيه ده كارثة.. ولادي لازم يبقوا عارفين أصلهم يا ليزا.

– شعيب حبيبي ما حدِّش قالك إعمل معايا علاقة وعيش معايا.. إنت اللي طلبت.. وأنا كلامي واضح من البداية حبيبي.. علاقة موافقة أولاد موافقة إنما جواز من عربي no

– طيب إبعتي معايا العيال يحضروا جنازة جدهم.

– ده مش جدهم شعيب.. جدهم هو بابا بتاع أنا.. بابا إنت ده مجرد رجل عربي شرقي يموت أو يعيش دي حاجات خاصة لا شأن لي بها.

– يعني إيه؟!

– يعني خد حبيبي الكوكاكين دا ظبطته بإيدي عشانك..

– أنا خدت جرعتين لحد دلوقتي كده غلط.

– عشان تروق حبيبي وتعرف تسافر.. يلا حبيبي اسمع الكلام.

أخذ شعيب جرعة الكوكايين المصفوفة على المنضدة وفي عينيه دموع تنهال على موتي أو ربما على حاله.. أما هذه العاهرة فقد وضعت يدها على شعيب ونظرت بعينيها نحوي أنا.. وتعجبت من كونها تراني لتفعل ذلك ولكن الأمر اتضح لي سريعًا.. فهي لا تنظر لي.. ولكنها

تنظر لشاب أسمر البشرة جالس خلفي.. وتتسلل إليَّ المعلومات الأكيدة أنه شاب مدمن لجسد عشيقة ابني ليزا.. وهي تفضل أن تضاجعه أكثر من شعيب.. والأغرب أن شعيب يعرف هذا كله ويتقبله.

أما عن ما تسلل إليَّ وأوجعني هو المخدرات في حياة شعيب.. فالمخدرات في حياة شعيب ليست للإدمان فقط وليست أيضًا للتجارة فقط.. إنها أساس حياته.. يعيش لها.. يروِّج لها.. شعيب الشقي الذي كنت أخاف عليه من أن يصبح إرهابيًّا أصبح يستمتع بانتشار المخدرات وكأنها شهوة بشرية لديه.. قد أصبح شعيب صاحب أكبر موقع على الإنترنت خاص بالترويج لمخدر "اليورونيوز" أو كما يسمى "الشيموس".. وهو من أنواع المخدرات التي تسمح به الحكومة الهولندية حيث تعتبر هولندا من أكثر الدول ترويجًا لأنواع كثيرة من المخدرات بشكل مقنَّن و"اليورونيوز" من ضمنها.. الموقع الخاص بشعيب مصرح به وتابع لشركة قام بفتحها دون علمي.. وتحاول السلطات في شرطة هولندا التفاوض مع شعيب لإغلاق هذا الموقع ولكن بدون فائدة.. يقوم الموقع بتحديد العملاء والوصول إليهم في كل الدول التي تتيح حكومتها تعاطي وترويج المخدرات.. ويتم توصيل المخدر للعميل حيثما ما يكون)البرتغال/ أوروجواي/ الأرجنتين/ أستراليا/ بلجيكا/ كولومبيا/ التشيك/ الإكوادور/ بيرو/ المكسيك/ الهند/ إيطاليا/ إسبانيا / سويسرا / إيران/ الولايات المتحدة الأميركية). كلها دول متمركز بها فروع لشركة شعيب وموقعها الإلكتروني.

تبًّا لك يا شعيب وما وصلت إليه.. أهذا هو المكان الذي كنت تفجر نفسك فيه كإرهابي في حياتي السابقة في حلمي.. أتصبح أنت

أقذر ما فيه الآن.. فأنت يا شعيب ميت بالفعل في نظري.. قيام شعيب بعملية انتحارية في هذا المكان في السابق وتفجير نفسه ربما أهون بكثير مما يفعله الآن.

أري قلب شعيب من الداخل وكأني كرة دم تسري داخل جسده وتتفحص قلبه كسائح في متحف للصور.. تتلاعب الأنسجة الدموية داخل قلبه.. وتهرب أنسجه أخرى من أطراف يده.. الشرايين تسحب الدم من أعلى جسده من المخ لتنزل بها لأطراف جسده وتغطي نقص الدم فيها.. وفي هذه اللحظة شعر شعيب بحالة من الغثيان شديدة.. وضع يده على وجهه ثم سقطت يداه حيث اكتشف أنه لا يستطيع التحكم بها.. ينظر أمامه بعين متسعة وكأنه لا يفهم شيئًا مما يدور حوله.. ليزا تنظر له باشمئزاز وكأنها غير معنية بالأمر.. ويتبادل معها شعيب نفس النظرة ليغمض عينه عنها ويرى في ظلمات عينه ما أراه أنا معه.. إنه عزرائيل يتحدث إلى شعيب.

قام عزرائيل سريعًا بانتشال روح شعيب من جسده فحدث هرج ومرج في القاعة.. انهال عليه أفراد الأمن الخاص به ليستكشفوا ما حدث.. وليزا في حاله صدمة طبيعية.. أما شعيب الذي جاءه الموت متكئًا على منضدة أمامه أقام بوجهه بعد الموت ونظر إليَّ وشعرت به بجانبي مباشرةً.. وبينما كنا نتابع أنا وشعيب ما يحدث حول جثته.. كان يلقي عليَّ بعض الكلمات الموجعة:

- ليه كده يا بابا؟
- ليه كده إيه؟!إنت إزاي كنت عايش كده؟
- ولما انت عارف إني ما كنتش عايش كنت سايبني ميت ليه؟

– أنا كنت معيِّشك في عز.. كنت عاملك كل حاجة ممكن أي شاب يحتاجها.

– إنت صنعت كل حاجة ممكن يحتاجها إنسان.. بس نسيت تخليني أنا إنسان.. أنا ماكنتش إنسان أصلًا.. إيه فايدة كل اللي كان حواليَّا.

– فايدته إنك تسخدمه في الخير.

– الخير محتاج إنسان وأنا ماكنتش إنسان.

– إنسان إنسان إنسان إنت بتقول إيه إنت مش مكسوف من نفسك.. إنت مش خايف.. إنت رُحت للموت وانت في أسود لحظات حياتك.. وهتكمل حياتك الأبدية وانت في الوضع ده.. إنت لازم تخاف بس.

– وانت كمان خاف..

– أنا أبوك احترمني..

– ما حدِّش هنا ليه الطاعة على حد.

– أنا أبوك.. أنا أبوك يا شعيب.

– قُلتلك هنا ماحدِّش ليه الطاعة على حد.. الكل هنا سواسية.. ما حدِّش أب لحد.. ما حدِّش ليه علاقة بحد.. وانت اللي لازم تخاف.. إنت هتتحاسب معايا على كل اللي أخطائي.

– إنت يا شعيب اللي استخدمت كل حاجة غلط.

– لا.. إنت اللي استخدمت كل حاجة غلط.

– إنت يا شعيب ما احترمش تعبي وشقاية أنا وامك.

– لا.. إنت اللي ما احترمتش تعب وشقا ألماس وأبرار.

- إنت ما قدَّرتش إنك إبني.

- لا.. إنت اللي ما قدَّرتش إنك ابن الماس.

- وانت تعرف منين؟! ألماس ده أبويا أنا..

- قولتلك هنا مفيش أبويا.. والأهم أن مفيش (أنا) إنسى بقى الأنا عشان هي اللي عملت فيك كده.

- إنت عايز إيه؟

- عايز أرجع الدنيا ولو لحظة.. وانت ما تقدرش تعمل كده.. لعنته عليك.

- سيبني في حالي يا ابني.

- سِبني إنت في حالي يا ملعون.

اختفى شعيب واختفى الملهى الليلي بكل ما فيه أو ربما أنا الذي اختفيت.. تبخر كل شيء أمامي وأصبح سرابًا وذهبت رائحة الدماء من أنفي لأستنشق راحة عطرة.. ربما رائحة كافور أو سدر.

نعم هو الكافور والسدر.. وهناك أيضًا عدد من القفازات.. خرطوم مياه.. أكثر من دلو بعضه فارغ وآخر به ماء.. كفن أبيض ناصع البياض مطبق داخل كيس أخضر اللون.. تكتمل هذه الأدوات بالأداة الأخيرة والأهم.. وهي جسدي.

أنا في غرفة غسل الميت ومعي ثلاثة رجال أغراب عني لا أعرفهم.. أدركت أن رحلة روحي الغريبة لأبنائي كانت لم تتجاوز الدقيقة حيث أنني ما زلت بنفس ملابسي التي فارقت الحياة بها.. وما زال كل شيء كما هو.. صفية ما زالت تحاول الاتصال بسليمان وهاتفه الخاص مغلق.. وهي تعرف أنه في الطائرة في طريقه للفلبين.. هاتف شعيب يعطي لها صوت الأجراس المستفز دون رد.. وصفية لا تعرف أنه لا يرد

لأنه أصبح معي في عالم الأموات وهاتفيه أصبح تحت سطوة شرطة أمستردام التي تحقق في موته المفاجئ. وبهذا لا يوجد ما هو غريب سوى ابنتي سمية! صفية لا تتصل بسمية.. وسمية ليست موجودة بجانبي جثتي.. وللأسف أنا أشعر بالازدحام في الغرفة وكأنهم يتهيأون لمراسم دفني.. سأدفن بشكل سريع.. سينعم جسدي بنعمة أن إكرام الميت دفنه.. ولكن للأسف بعد كل ما فعلته سأغسل وأدفن بدون أبنائي الثلاثة.

على العموم لا وقت لهذا الآن.. فقد بدأت عملية الغُسل.. هم يقومون بتعريتي الآن من جميع ثيابي بعد أن ستروا عورتي، ارتدى كلٌّ منهم قفازًا وبدأ أحدهم بغسل فرجي.. ثم بدأ آخر في رفع رأسي حتى اقتربت من موضع الجلوس ثم قام بعصر بطني ففرغت معدتي من الفضلات وبدأ الثالث بصبّ الماء بشكل ضخم وعشوائي على كل جسدي موجهًا جهة الماء لعورتي وفُرجي.

بدأ أحدّهم بلف خرقة من القماش حول أصابعه ووضعها بين شفتي ماسحًا أسناني بعد أن نبَّه عليه زميله بأن لا يدخل الماء لفمي وأنفي.. وبرغوة الماء بالسدر تم غسل رأسي ولحيتي وشعرت بتجهيزهم لعملية وضوئي كاستكمال لمراحل الغُسل ولكني لم أشعر بأي شيء بعد ذلك حيث أنني شعرت بروحي تطفو فوق أكتاف صفية خارج غرفة الغسل وهي تبكي لفراقي وحسرتها عليَّ وعلى ما فعلته بها.. ربما شعرت في لحظات بجسدي يغسل بالماء من ناحية اليمين ثم اليسار.. ولكني كنت كطائر الغراب يطير فوق صفية ناظرًا إليها متمنيًّا الهبوط لها ولمسها.. بين اهتمام كل العاملين بالمستشفى بصفية وبجثتي.

❊ ❊ ❊

(38)

إنه موكب السيد رئيس جمهورية مصر العربية.. سيصل بعد بضع دقائق للمقابر.. معه رئيس جمهورية تشاد وغانا وزامبيا ومعهم رئيس وزراء النرويج وأوكرانيا والسلفادور والمجر.. هناك أيضًا سفراء لدول عدة ومعهم أهم رموز الاستثمار في العالم وأغنى رجال الأرض على الإطلاق.. هم لا يعرفون أن من يسيرون في جنازته بخشوع كان مجرد حي من ملاعين الأحياء في الأرض.. ولا يدرون أنهم يوصلونني لمصير مكتظ بالعذاب الأليم مثل الذي ينتظر أغلبهم.

وفي المقابر امتلأت السماء بغربان تحلق فوق الأشجار لتخيف عصافير ضعيفة في عششها.. أما الأرض فكان بها بعض الأحياء من فئة الكلاب يسيرون بعيدًا عن أحياء آخرين في الدنيا من فئة الإنسان.. وكانت فئة ضخمة يقفون في صمت.. وهم لا يتشابهون إلا في شيء واحدٍ.. وهو النظارات الشمسية التي تسطع تحت الشمس مخبئة أسفلها نظراتهم الحقيقية وما يدور بداخلهم.. أما الفئة الأخيرة فكانت من الجان.. وكانو يهرولون أعلى قبري وكأنهم في حالة استعداد لأمر ما.

- يوه إيه التكدرية دي..
- يارب نخلص بقى..

– يادي النيلة هو لسه ده كله عشان يتدفن.

– يا ترى هقدر أكلم المسئول الفلاني وأتعرف عليه.. دا أنا هستفيد أوي.

– يا ترى شركاته هتتباع؟ ده تبقى أكبر مصلحة لو عرفت أشتري حاجة.

– يا بخت عياله ومراته.. ده هيورثوا أدّ كده.. ياترى هُمَّا فين؟

كلها أحاديث داخلية سمعتها من الإنس الحاضرين للجنازة.. أشعر بهم وكأني ما زلت حيًّا.

لم أشعر بالمراسم وطول وقتها.. أنا مركون في أحد جوانب القبر من الداخل.. حل الظلام حين أقفل باب القبر عليَّ.. بجانبي جسدٌ ما زال كاملًا.. وفي اليسار على بُعد مترين هناك عظام لرجل مات منذ سنوات.. الدود والحشرات تتعايش بين خلاياه وتبتسم لي ابتسامة مستفزة بعض الشيء.. وروح الرجل صاحب العظام تنظر لي بألم شديد حيث تسكن في ركن من أركان المقبرة مرتجفة وكأنها تشعر بالبرد.. وفي ركن آخر من أركان المقبرة كانت عظامًا كثيرة لرجال كثيرة مرتصة بغير ترتيب وكأنها جبل من الرمل.. هناك أرواح لبعض هؤلاء الرجال تدور بفرحة حول جبل العظام وكأنها سعيدة بما هي فيه.. فربما أحياء الأرض كان من بينهم صالحون منعمين بآخرة حميدة وهؤلاء من ضمنهم.

سمعت في الخارج طلاسم من جموع بشر أدركت أنها الفاتحة تُقرأ عليَّ.. ولكني لم أستطع سماعها بوضوح.. وبينما أحاول التركيز مع تلك الأصوات جاءتني سمية ابنتي.. واتضح لي أني في القبر منذ يومٍ وليس لحظات كما كنت أعتقد.. جلست سمية على باب القبر

بالخارج وعيناها خاليتان من الدموع.. ولكن اللون الأحمر ينتشر حول عينيها بشكل دائري وكأنها ارتوت من دمعوها في الأيام السابقة.

قرأت سمية الفاتحة دون أن أسمعها وبدأت الحديث إليَّ بصيغة الشكوى.. الشكوى لي ومني في وقت واحد.. وفي نفس الآن كنت أتسلل داخل القبر حتى وصلت لقطعة الرخام المكتوب عليه اسمي من الخارج.. عافرت مع صوت سمية لأرتمي خلف قطعة الرخام وأنصت لحديثها مستكينًا بعض الشيء في قبري.

– ما أعرفش إزاي عملت كده يا بابا.. إزاي وافقت.. يوسف كان عرَّفني على واحد صاحبه اسمه "باتريك" ومش عارفة إزاي حبيته.. أصله بيشتغل ممثل.. بيمثل في الأفلام البورنو.. الحاجات دي بره عادي يا بابا مش زي هنا.. المشكلة ان لقيت نفسي بتفرج على كل أفلامه.. وعشقت طريقته في النوم مع الستات في الأفلام.. لدرجة إني نسيت كل حاجة في حياتي وبقى كل همي إني أتطلق من يوسف وأتجوزه.. ومع الوقت بدأت أغير من اللي بينام معاهم في الأفلام.. وقُلتله كده.. عرضت عليه ملايين عشان يسيب الشغل ده بس مارضيش.. يا بابا ده بينام معاهم بحرفية جامدة ويجي عندي أنا ويقولي إنه لازم يوفر مجهوده!

كيف تجرؤ سمية أن تأتي إليَّ بعد هذا الغياب لتحكي لي قذارتها بكل بجاحة.. لو كانت تعلم أني أسمعها الآن لما كانت جاءت لتحكي.. كم أتمنى الآن أن تتوقف عن سرد تلك القصة القذرة.. ولكنها للأسف تكمل سردها رغمًا عني.

– ما كانش قدامي غير حل واحد.. إني أعمل معاه أفلام مصورة

عشان أحس إني زيي زيهم.. جِبت مخرج ومصورين من الشركة بتاعتنا وصورت معاه أكتر من فيلم بورنو.. أنا كان كل همي إني أشبع رغبتي بامتلاكه يا بابا مش أكتر من كده صدقني.. بس للأسف.. باتريك استغل الموضوع.. واكتشفت فجأة إن فيه إعلانات على أكبر مواقع البورنو في العالم عن سلسة الأفلام الجديدة اللي من بطولة نجم البورنو باتريك جان ونجمة المجتمع العربي "سمية ألماس" بنت أغنى أغنياء العالم روح ألماس.. ولما كلمته يا بابا اكتشفت إنه مش فارق معاه أي حاجة غير شهرته وبس.. كان واخدني سلمة يابابا مش أكتر.. ولما عرفت خبر إنك مُتّ جريت على مصر والله يابابا.. بس وقفوني في المطار واتقبض عليَّا.. أصل الأفلام كانت نزلت خلاص وجابت أعلى نسبة مشاهدة في تاريخ كل الأفلام البورنو.. إتعملي قضية آداب واتحجزت لكوني مصرية تقوم بأعمال مخلة للآداب.. ولسه خارجة دلوقتي بكفالة.. أنا جيتلك آهو يابابا.. ومش عايزاك تزعل مني.. ما ينفعش أصلًا تزعل مني يا بابا.. ما انت أصلًا اللي عملت فيَّا كده.. إنت اللي خلّتني إنسانة أنانية مستهترة عايشة بس عشان تملك كل حاجة تشوفها.. كان مطلوب منّي إيه لما أشوف راجل عنده قدرات غريبة في إشباع رغبات الستات.. كان لازم أفكر عشان شهوتي وبس.. كان لازم أنسى أي حاجة.. بابا أنا جِبت العار ليك ولاخواتي وكل عيلتي.. بس انت السبب يا بابا صدقني.. إنت اللي خلّتني أحط إسمك وإسم عيلتك في الوحل مدى الحياة.. إنت يابابا مش أنا..

تبًّا لما فعلته في نفسي.. جاءني حلم لعين في شبابي.. كابوس تعلمت منه ألا أكون سلبيًّا.. وبدلًا من أن أتحول لرجل نشيط وقوي

ويستطيع حماية أبنائه وصنع أمجادٍ لأجداده وذريته.. صنعت العار والهلاك لنفسي ولأبنائي ولكل أجدادي.. ونفس النتيجة سأدخل جنهم وبئس المصير.. ما هذا الذي فعلته بنفسي؟!

لم ألحق الحسرة على ما فعلته في حياتي سوى بتلك الدقائق التي جاءتني فيها سمية.. ومن ثم اتجهت بفكر روحي لاهتمامات أخرى تمامًا.. فقد بدأ التعفن يظهر على بطني وفرجي.. تعجبت من هذين الجزئين بالتحديد.. وهما اللذان ناضلت في حياتي لإرضائهما وسترهما.. ها هما يتعفنان.. وبعد ذلك أتى اللون الأخضر ينير القبر بالكامل حتى رأيت مصدر الضوء من مكاني فقد أصبحت معظم مناطق جسدى خضراء.. ثم تحول كل جسدي إلى لونٍ آخر لا أعرف اسمه ولم أرَه قَط.

سقط الزمان منّي فعدت لا أميز الوقت.. ولكني كنت أميز أعضاء جسدي بتمكن شديد وكأن لدي علم بأدق التفاصيل في جسدي التي كان من المحال أن يعرفها أعظم أطباء العالم.. فهناك الطحال.. الكبد.. الرئة.. الأمعاء.. هم ما كانت تتلذذ بعض الحشرات في أكلهم.. وكأنهم يأكلون ليس لإشباع بطونهم وإنما لتنفيذ عقابٍ فيَّ فقط.

اختفت السيولة من دمي تمامًا.. وأخذت الهرمونات تنهي عملها وتبتعد كالتلاميذ حين يهرولون تاركين الفصل هاربين لفناء المدرسة بعد سماع جرس الفسحة. سقطت بعد الجينات الوراثية وسقطت معها كل خصال شعري.. ولسبب غير واضح فتحت عينيَّ لتنتفخ ومن بعدها انتفخ خدَّاي ولساني.

انتبهت لذباب أزرق اللون يلتفت إليَّ من على بُعد أميال لينقض

نحوي.. وبوصوله إليّ كان معه عدد قليل من الدود غطى كل جسدي.. أصبحت كالأسير لديهم لا يرأفون بحالي حتى انتهى كل شيء وأصبحت مجرد هيكل عظمي.. وجدت هيكلي العظمي ينكمش ليتحول إلى بذرة تحمل داخلها قطعا من العظم الصغير.. أنا روح ابن أبرار ولست روح بن ألماس بن عبدالحي.. أنا البذرة من طين ولست مَلكًا على الناس في الأرض.

❊ ❊ ❊

(39)

تكدُّس ضخم لكون هزيل كحبات رمل بين قبضة يدي.. أحياء من الأنس والجن يتناثرون في أرجاء الكون.. رأيتهم من سموات تسطو فوق المجارات الكونية.. النباتات تتألم خوفًا من الله وأخرى تلهو فرحًا بحبه لهم.. طفيليات أسفل المحيطات مكنونة داخل قواقع تتأمل ما يدور.. انحنت للمولي كل الصفائح التكتونية داخل ذرات الحمم البركانية فهربت كل البراكين لمركز الأرض.

الرمال، الطباشير، الملح الصخري، فحم الخث، بقايا النباتات، الرخام، الصلصال، الحجر الكسلي.. فروا جميعًا هاربين من سكناتهم في تكوين الجبال فانكمشت الجبال لتختفي تحت طبقات القشرة الأرضية.

قامت الكروموسومات بحالة من الهرج والمرج فتركت الإنطاف (الحيوانات المنوية) أجساد البشر وعرجت من الأرض حتى استقرت في الغلاف الجوي بين طبقة الستراتوسفير وطبقة الميسوسفير وبدأت في النظر للكرة الأرضية من بعيد مهللين بالنصر. قلت سرعة الصوت تدريجيًّا حتى توقف وأصبح عاجزًا عن الحركة. ارتفع الغبار وصولًا للشمس لتكف الشمس عن إرسال النور إلى كافة الكواكب في مجموعتها.. تفرقت جزيئات الضوء وبدأت كل منها في الرقص تمجيدًا للعرض.

إنهم أبناء آدم يعودون للحياة على الأرض بعد أن عادت التفاحة لمسكنها في الشجرة قبل أن يأكل آدم منها.. مشادة كلامية بين حواء وأبليس بعض أن رفضت وسوسته بالضغط على آدم للأكل من التفاحة.. تعود حواء لضلع آدم ويهرول كل الموتى عائدين للحياة من جديد.. قابيل يعاتب هابيل على فعلته وشيث يقوم برسالته.. يحكي إسحق قصة أخيه إسماعيل مع أبيه إبراهيم إلى ابنه يعقوب.. وكان يعقوب مشتاقًا ليوسف ويوسف كان سجينًا في مصر.. رصد الهدهد ما يدور في مملكة سبأ وعاد ليخبر سليمان. وصاح جاليليو في الناس بأن الأرض تدور حول نفسها.. وأحبت كليوباترا أنطونيو من جديد وأخفى المصريون القدماء أسرار التحنيط. قام عمر بن الخطاب بعزل سيف الله المسلول من قيادة جيش المسلمين وجاء القعقاع بن عمرو لنصر الإسلام والخلافة، تنعَّم قارون مغرورًا في سلطانه.. وأتى الأكراد بصلاح الدين، سكن الأفارقة القدامى الكهوف على حدود قرطاج وعاش الأمازيغ في شمال أفريقيا.. وزاد كريستوفر كولومبوس من مساحة العالم بعد أن أضاف أمريكا للخريطة.. واخترع جون ووكر علبة الكبريت،

حاول "الأخوان رايت" ابتكار أول طائرة بينما كان إديسون يضع أسس استخدام الكهرباء.. وأسس فلاديمير لينين حزبه لتبدأ الثورة البلشيفية، صنع جون هولاند أول غواصة.. وبدأء بليز باسكال الجمع والطرح على أول آلة حاسبة في التاريخ.. قاوم مارتن لوثر كينج العنصرية بين الأبيض والأسود في أمريكا.. وبدأ أرنستو جيفارا دراسته قبل الدخول لحياته الثورية.. وثبت عمر المختار قدميه فلم تخرج روحه أثناء شنقه من جنود موسيليني.. جاء للدنيا إنريكو فيرمي بالمفاعل

النووي.. واخترع ألكسندر رولان طفاية الحريق، أبدع بارتولوميو كريستوفوري في اختراع البيانو.. وصمم لايسلاو جوزيف بيرو القلم الجاف فصاحت أم كلثوم بحنجرتها الجهورة على المسرح وراحت آثار التعذيب من جسد جميلة بوحريد.. أخذ أنور السادات نفسًا عميقًا من سيجاره الكوبي ليتخذ قرار الحرب بكل حسم.. وصنعت اليابان كوكبًا خاصًا من جديد وسار الشيخ زايد في صناعة مجد الإمارات.. تحاول جدتي منع العجول من السقوط في الترعة وسأل جدي عبد الحي الواد محمود عن أسعار ألماس.. نام ألماس أبي ليلته الأولى في خرابة الحاج عوض وعادت أبرار طفلة تشع نورًا من على عربة جدي سليم "الكارو".

كل بشري سيخرج من رحم أمه للحياة حتى قيام الساعة قد سبق أوانه وحضر .. وكل بشري جاء للحياة منذ بداية الخليقة عاد للحياة من جديد بكل تفاصيل حياته اليومية.. فهناك ديناصور يهاجم إنسانًا حجريًّا يحمل عصا في آخرها شعلة من النار.. وفي نفس المكان هناك رجل آلي يخطط لبناء منزل إلكتروني فوق السحاب على حاسوب مكون من الهواء.. ومعهم في نفس المكان رجل يتحدث لحبيبته عبر الواتساب مستمتعًا بأكل حبات المارشميلو .. أنا أتابعهم جميعًا في آنٍ واحدٍ بل إني أسمع كل ما يدور بداخلهم.. وكان أهمهم بالنسبة لي هم أحفادي وذُريتي المستقبليون! أراهم بتمعن شديد.. أعداد مهولة من الأحياء وكلهم من نسلي.. جميعهم يتحدثون إليَّ في صوتٍ واحدٍ.. بالرغم من كونهم لم يأتوا للدنيا حتى الآن إلا أني أشعر وكأني وصلت الرحم بهم منذ سنوات. أصابني خلل سمعي من تغلغل الأصوات بداخلي حتى جاءني شعور قوي كنت على يقين من أني مررت به من

قبل.. نعم لقد مررت بهذا من قبل.. فكياني يتخبط من الداخل وشيء ما ينتفضه من الخارج وكأنها يد عم بدر تهزني..

– قوم يا روح.. قومي يا ابني ما ينفعش كده !

– ما ينفعش إيه؟

– خليك مؤمن بالله يا حبيبي وقوم من حضنك أمك.. أمك فارقت الدنيا خلاص يا ابني وبقي حرام عليك تنام في حضنها كده.. سيب أمك لخالقها وقوم معايا نشوف هندفن أمك وأبوك إزاي؟

إن هذه الكلمات أيضًا قد سمعتها من قبل! انتفضت من مكاني ليختفي كل شيء كنت أراه.. كل شيء كان وهمًا.. كان كل هذا حلمًا؟ أم مجرد هلاوس لابن اعتكف في أحضان أمه الميتة؟

لا إله إلا الله محمد رسول الله.. لا حول ولا قوة إلا بالله.. أنا في غرفتنا الخشبية أسفل السلم.. نائم في أحضان أمي "أبرار" وهي جسدٌ بلا روح.. نعم لم أمُت.. نعم.. أنا لم أمُت.. بل إني ما زلت شابًا كما أنا.. إنه يوم وفاة أمي وأبي حيث حضن أبرار.. أكل هذا كان حلمًا؟ لا إنه كابوس؟ أم إنه رؤية! أنا لا أستوعب شيئًا.. نظرت لبدر وسألته وأنا أحاول أن أتماسك خوفًا من انهيار كامل:

– فيه إيه يا بدر؟

– إنت نايم في حضن أمك يا حبيبي.. بس كده حرام.. أمك ميتة يا ابني وإكرام الميت دفنه.

– يعني أنا مش ميت؟

– ميت إيه بس؟

– طيب أنا مش عجوز؟!

– عجوز إيه يا ابني إنت في عز شبابك ربنا يحرصك ويحميك يا ابني.. قوم يا ابني من جنب أمك.. هي ميتة من إمتى.. دا الفجر بيأذن يا حبيبي.

– وانت عايش يا بدر.. أنا افتكرت مُتّ خلاص؟ !

أمسك بدر بيدي وقبَّل جبهتي وتحدث بهدوء:

– قوم يا ابني الله يباركلك.. إشرب بس شوية مَيَّه واهدا.

انهرت من البكاء لدقائق فقط حتى شعرت وكأن جسدي استهلك من الدموع وأيضًا من ذلك الحلم الغريب الذي عشت فيه عمرين كاملين في بضع ساعات.

حتى لفت نظري الورقة المقطوعة من كتاب عم بدر التي تركتها لي أمي.. فسألت عم بدر:

– الورقة دي بتاعتك يا عم بدر.

– ما أنا عارف بس إيه اللي جابها هنا؟

– أمي..

– هممممم..

– إنت زعلان منها ولا إيه.. ما كانتش تقصد سرقة والله دي بس كانت...

قاطعني "عم بدر":

– أكيد مش زعلان يا ابني بالعكس.. بس لازم تقرأها وتستفيد بيها.

– إن شاء الله يا عم بدر.. إن شاء الله.. بس ندفن أمي وأبويا بس وربنا يسهل.

ولم أستطع أن أؤجل قراءة تلك الورقة التي كانت تعتبر كنزًا وحيدا أرثه من أبي وأمي .

وبالفعل قرأتها عدة مرات.. ربما فهمت كل ما جاء فيها ولكني شعرت بصعوبة تنفيذه.. وكأن ما بتلك الورقة أذكى من قدرتي العقلية.. ولكني احتفظت بها لأعود إليها بعد مراسم دفن والديَّ..

❊ ❊ ❊

(40)

قمت بدفن أبي وأمي.. ألماس مات.. وماتت معه أبرار.. كان المتوقع للجميع أن أكون في حالة من الانهيار الكامل.. وعلى العكس تمامًا.. كنت في حالة من السكون الداخلي لم أمرّ بها قَط.. كانت السعادة تصنع بهجة على وجهي تثير علامة استفهام للجميع.

- الباقية في حياتك يا ابني.
- في حياتك الباقية.
- شِد حيلك يابني.
- الشدة على الله.
- ربنا معاك يا ابني.
- كله علي الله..
- ربنا أخدهم في مكان أحسن يا روح.
- ونعم بالله..

مجرد كلمات ليس لها أي فائدة في نظري سوى ذِكر اسم الله.. ولكي أنسى حالة الإرهاق التي كنت بها أوهمت نفسي بأنني لا أقف في عزاء والديَّ.. بل إني أسبِّح بذكر الله.. أصبحت أرد على تعازي الناس فقط لأقوم بذِكر الله في ردودي فأنعم بسَكينة التسبيح.. وبينما

كنت أرد على الناس بدأت أتعمق في التفكير لمخاطبة نفسي: أنا في فترة فاصلة في حياتي.

أيوه الناس دي معظمهم بيحبوا أبويا وأمي.. ألماس كانت الناس بتقرف منه ويمكن تبقى أمي كانت فعلًا مجرد شحاتة.. بس فيه حب واضح عند الناس وده منتهى النجاح.. كانت الجموع كثيرة، كان من غير المتوقع أن تحضر عزاء رجل بسيط وزوجته.. أنا أعرف ما يدور بداخل كل منهم.. وربما عزاء ألماس وأبرار يعتبر حالة شاذة حيث يشعر كل المعزيين بأن أولئك كانوا حقًّا عظماء يعيشيون بينهم.

تركني الجميع ومعهم تعجُّبهم من سباتي وهدوئي والبهجة المرسومة على وجهي.. وأنا لا أستطيع أن أفسر لهم السبب.. فمن منهم سيعقل أنه في يوم حرماني من أبي وأمي رزقني الله بحلم أتيقن منه أن القمامة في حياة أبي كانت شرفًا، وأن تسول أمي في آخر أيام حياتها لتقف بجانب والدي في مرضه، كان أعظم ما يمكن أن تفعله امرأة في العالم.. وأنه حقًّا أمر يدعو للفخر.. مَن منهم سيعقل أنني لست في عزاء أبي بل في احتفالٍ بانتصارهما على الحياة.. فمَن سيصدق أنني كنت أعيش في حياتين كاملتين قبل أن أقف أمامهم شابًا ناضجًا يستقبل منهم العزاء.

في الصباح كنت أشعر بالنشاط، كنت مستعدًا لترتيب حياتي من جديد بنفس النهج الذي تعودت عليه.. وهو شرح وضعي الحالي لنفسي لأحدد الطرق الصحيحة التي يجب أن أقوم بها: أنا روح ألماس عبد الحي.. ألماس العظيم المكافح.. ابن أبرار العظيمة المكافحة.. ابن عائلة عبد الحي التي صنعت الكثير من المواقف المشرِّفة التي

يجب أن يتعلم منها جموع الناس.. وحتى وإن نبذَ بعض الجاحدين أصحاب القلوب السوداء منهم.. فلهم شأنهم.. ولي أنا حياتي أعيشها بعظمة وكفاح كما عاش فيها أبي وأجدادي.

أنا الموظف الذي يعمل على تاكسي بعد أوقات عمله الرسمية.. ويجب أن أجتهد أكثر وأكثر في عملي وحياتي.. ويجب أن أجتهد أكثر وأكثر في حب الله لأنعم بحياتي.. فماذا يفرح إنسان أكثر من حب الله له؟

تفهمت ما أريده من حياتي ولكني لم أكن أعرف كيف أقوم بتحقيقه.. وتركت الموضوع للوقت.. فمن المؤكد أن لي جلسة مع "عم بدر" أسأله فيها عن كل ما بداخلي وآخذ منه النصيحة.. فحتى وإن كان لدي الآن خبرة عظيمة أخذتها من حياتين كاملتين عِشتهما بكل تفاصيلهما ومشاكلهما إلا أنني يجب أن أعترف بأنني مجرد شاب ويجب عليَّ أخذ النصيحة.. وليس هناك من أثق به سوى "عم بدر".

وقررت الرجوع لحياتي كما كانت دون أن أرهق نفسي بأي تفكير بشكل مؤقت.. وبالفعل عُدت إلى عملي صباحًا في الهيئة.. ولعملي كسائق للتاكسي بعد الظهر.. أعود لمنزلنا الخشبي الصغير لأنام في المكان الذي ولدت فيه وماتت فيه أبرار.. وهو أيضًا المكان الذي تركنا ألماس فيه.. ومع الوقت رجع لي ثباتي الفكرى من جديد وتعودت على حياتي قبل كل ما مررت به في الأيام السابقة سواء الحلم أو موت والديَّ.. وجلست مع "عم بدر" وحكيت له حلمي بكل بتفاصيله وسألته عن كل ما يدور بداخلي وبدأ الحوار معه.

– إنت متردد يا روح يا ابني مش عارف إنت عايز تعمل إيه.. بقيت مشوَّش.

– فعلًا.

– بس ده طبيعي لأي شاب في سنك طبيعي يمر بالمرحلة دي.. وانت كمان ظروفك كانت أصعب من الطبيعي بكتير.

– أيوة يعني أنا أمشي في الدنيا ازاي.. أعيش في الحلم بتاعي وأكمل فيه وأحاول أرضي ربنا وبس ولّا أسيب العبادة وأركِّز مع الناس؟.. أفكر في الموت بس؟ ولّا أنسى الموت خالص وكأنه مش موجود؟ الحلم ده شكله هيتعبني بقية عمري يا عم بدر.

– هههههه بالعكس ده حلمك ده نعمة من ربنا زي ما انت قُلت لي في الأول.. طيب عارف.. حلمك ده بيفكرني بحكاية كده غريبة شوية.. هي ممكن تكون كوميدية.. بس فيها شرح لكل حلمك.

– إيه هي؟

– أقولك يا سيدي.. كان فيه مجموعة أصحاب كل واحد فيهم ليه طريقة تفكير مختلفة عن التاني.. متدين متزمت وقافل أوي ومتدين ومتفتح شوية وواحد مش متدين أصلًا وبايعها.. واحد غني وواحد بيحب الفلوس بس فقير.. واحد جاحد وواحد بيكره الفلوس أصلًا.. دكتور ونجار وعواطلي بلطجي ورسام وشيخ زاوية وتاجر مخدرات.

– تمام..

– وفي يوم وهُمّا قاعدين مع بعض بالليل جَت لواحد فيهم فكرة وقالهم عليها واتفقوا كلهم إنهم ينفذوها.. كل واحد منهم يعتبر إن بكرة هو آخر يوم ليه في الدنيا.. بكرة بالليل الكل هيموت.. كل واحد فيهم يعيش آخر يوم في حياته أو بمعنى أصح آخر أيام في حياته.

– إشمعنى يعني؟

– عادي، كانوا حاسين إنها مجرد تجربة وأكيد هيستفيدوا حاجة من نتيجتها.. هتبقى سهلة؟ هتبقى صعبة؟ هيحسوا بإيه؟ هيعملوا إيه؟.. مجرد تجربة.. أو فراغ.. حاجة يتكلموا فيها وعنها بعد كده.. المهم.. سابوا بعض وكل واحد راح لبيته بعد ما أكدوا على بعض أن ماحدِّش يكلم حد لحد تاني يوم بالليل لما اليوم يخلص.

– ها وبعدين؟

– ولا قبلين.. تاني يوم بالليل كل ما حد منهم يكلم التاني ويقوله:عملت إيه؟ يلاقيه بيقوله عادي زي كل يوم.

– زي كل يوم إيه؟

– آه زي كل يوم..

– يعني إيه؟!

– يعني ما حدِّش فيهم عِرِف يعيش التجربة أصلًا.. ما حدِّش منهم قِدِر يتخيل إنه خلاص هيموت بعد ساعات.. التجربة نفسها كانت مستحيلة.. وما حدِّش كان متخيل صعوبتها غير لما عاش فيها.

– وبعدين؟

– خلاص مفيش وبعدين الحدوتة خلصت.

– !!!

– الفكرة من الحدوتة دي يا روح إن كل واحد فينا مهما كانت درجة إيمانه وحبه لربنا أو حتى درجة عصيانه وحبه للدنيا لازم يبقى عامل مساحة كبيرة بينه وبين الموت.. لازم يبقى شايف الموت قريب

لكل الناس ما عادا هو.. كل واحد حتى لو كان كافر بيبقى عارف ومتأكد إن الموت ممكن يجي في أي وقت.. ومع ذلك لما يفكر في وصول الموت ليه هو.. بيقول بينه وبين نفسه: معقولة أنا؟ والسؤال ده يا روح دايمًا الشيطان بيبقى وراه.. زَيه زي أي أسئلة تانية الشيطان برضو بيبقي وراها.

– أسئلة إيه؟

– يااااه كتير.. ما تعدِّش.. معقولة أنا ممكن يبقى عندي سرطان؟.. معقولة أنا أبقى مكان الطفل اللي بيتعذب في بورما ده؟.. معقوله أنا أبقى مكان الأب اللي ابنه مات ده؟.. معقوله أنا أبقى مش لاقي أكل وجعان لدرجة إني أعيش في مجاعة زي الناس دي؟.. معقولة أنا أترفد من الشغل وأبقى في ورطة كبيرة؟.. معقولة أنا أبقى عجوز مسن مرمي في بيت لوحدي وعيالي سيباني لوحدي؟ معقولة أنا أب....

– مممممم..

– لا.. مش مممم وخلاص.. الأسئلة دي كتير ومش بتخلص بس فيه أهم واحد منهم

– إيه هو ؟

– معقولة أنا أخش جهنم وأتعذب؟

– اااه فهمت

– طول ما إحنا عايشين يا روح الشيطان بيضحك علينا ويخلينا نسأل الأسئلة دي ونحط في أولها كلمة.. معقول؟ عشان يبعدنا عن الإنسانية والإحساس بنفسنا وبالناس.. وأهم سؤال منهم هو اللي

حكيتلك عليه "معقولة أنا هموت؟" وفعلا ممكن أخش جهنم؟. إنت بقي يا روح ربنا كرمك وخلاك تعيش من غير ما تسأل السؤال ده.. لأنك عِشت خلاص جُوَّه الموت فعلًا.

– طيب والناس يا عم بدر.. أعمل فيهم إيه؟

– تعمل فيهم إيه إزاي؟

– يعني أعمل إيه في إيد ألماس اللي كان بيقرف منها الناس لما تلمسهم عشان زبال؟.. إيد أبرار اللي كانت بترش ميه علي الخضار عشان الناس تتقبل بس فكرة إنهم ياخدوا الخضار منها؟ أنا المفروض إني أعيش بالإيد دي؟ دي هي هي الناس.. هو هو تفكيرهم وحياتهم.. أتقي شرهم إزاي.. أتقي إزاي اشمئزازهم مني لمجرد إني نضيف.. أحمي نفسي منهم إزاي يا عم بدر؟ وحتى لو هعرف أحمي نفسي منهم.. ازاي هعرف أعيش بينهم؟.. أنا عمري ما هعجب حد.. وحتى مراتي لما أتجوز وعيالي لما أخلف عمري ما هعجبهم ؟ وازاي أصلًا أعمل أسرة وبيت وأنا في ظروفي دي.. معقولة أجيب عيال عشان بس أتعبهم!

– تتعبهم بس!! هاهاها ده حتى الحكمة اللي ورثتها من أبوك وأمك بتتكلم عن نقطة الميه.. أقل وأضعف الحاجات في حياتنا.. خليك زيها يا أخي.

– والناس تفضل شايفاها مجرد نقطة ميه.. مجرد "مافيش"! مافيش وبس

– تجاهل أي صراع بين الخير والشر زي ما مكتوب في الوصية اللي معاك.

– أيوه ازاي بقى؟!

– يعني تبقى ناجح قدام نفسك وده الأهم.. راجع نفسك وعاتب نفسك وحاسب نفسك.. وبعد ما تتأكد إنك صح.. يبقى كل اللي عليك إنك تستريح.. تستريح وبس.. تبقى معجب بنفسك وفخور بيها.. بلاش تبقى عايز تتحط في مكان تاني غير مكانك.. اللي بيهرب من الواقع بتاعه بيتوه يا روح.

– ولو ماهربتش وعملت زي ما قولتلي مش هتوه..

– لا.. بس هتعمل زي النصيحة: تخترق المشاكل.. تحضن المبادئ.. تبقى واثق إنك مع ربنا في طريقك ليه وربنا معاك في طريقك.. والناس دي أخر حاجة تفكر فيها.. الناس اللي ماكنش عاجبها إيد أبوك هي هي اللي منهم ناس بتخش الحمام وتخرج من غير ماتغسل إيدها.. اللي مش عاجبهم الخضار من إيد أمك هُمَّا هُمَّا اللي بيسيبوا عيالهم يلعبوا على الأرض ويحطوا في بوقهم حاجات مش نضيفة "عشان مكسلين يهتموا بولادهم".. كل واحد بيبقى عايز ينجح عشان بس يبقى أحسن من اللي حواليه.. عايز ينجح عشان يرضي غروره أو جحوده أو الكراهية في قلبه.. عايز ينجح عشان دايمًا الشيطان بيخليه يحط نفسه في مقارنة مع كل اللي حواليه.. ده غير بقى النوع التاني.. ده كارثة لوحده.. بيبقى ولا عايز ينجح ولا نيلة! مش عايز يطلع لفوق! هو بيستسهل على نفسه وبيحاول يشد اللي حواليه لتحت.. أو على الأقل يتمنى لهم الفشل.. عايز يبقى الأحسن وبس.. ولو ماعرفش يشد حد لتحت بيدوَّر على أي حد تحت عشان يفرح بنفسه شوية.. عشان كده بتلاقيه دايمًا قلبه بيتقبض من نجاح أي

حد قريب منه.. يعمل نفسه صعبان عليه حد في ضيقة وهو من جواه مبسوط.. يطلع أي عيوب وهمية على أي حد يشوفه أحسن منه.. أمراض نفسية يا ابني أدّ كده! خلاص بقينا في زمن نكران النفس.

– نكران النفس ازاي؟

– يعني خلاص كل واحد مهما كان عنده حاجات حلوه بيبقى شايف نفسه ناقص من جُوه .. كل واحد عايز يبقي واحد تاني غير نفسه.. أي حد! أي حد غير نفسه! فاهمني يا ابني؟

– واللي عايز يبقي نفسه؟

– بيبقى عايش منور وسط الناس.. ثقته في نفسه بتبقى ظاهرة للكل.. بيبقى عايز ينجح عشان يحقق نفسه ويرضي ربه لما يبقى مفيد لنفسه وللناس.. وعشان كده الكل بيتكلم عنه.

– يتكلموا عنه حلو طبعًا؟

– هاهاهاها.. حلو هاهاهاها

– إيه؟ هاهاهاها اللي عايز يبقى نفسه بيتكلموا عليه وحش.

– لا مش وحش ومش حلو.. بس بيتقال عليه مجرم أو مجنون.

قالها عم بدر بابتسامة جميلة أدخلت التفاؤل لحياتي من جديد.

❊ ❊ ❊

(41)

بعد ما رجعت الدنيا بكام شهر استفدت كثيرًا من كل أحداث حياتي.. وربما هذا نوعٌ مهمٌ من أنواع النجاح.. تيقنت أيضًا أن ما مررت به سيظل يفيدني أكثر وأكثر كلما طالت حياتي الحقيقية.. أنا أملك الكثير أستقوي به على الدنيا وأحيائها من البشر.. فقد عشت في حلم حياةً كاملة جعلتني رجلًا عجوزًا في جسد شاب في ريعان شبابه.. وقبل الحلم كنت في حياة الكفاح مع أبي وأمي رحمهما الله وأسكنهم فسيح جناته.

أما عن الاستفادة المادية التي تحققت بالفعل.. فهي أنني أصبحت خفيف الظل والجميع يبتهج بمجرد أن يراني.. والسبب ليس قدرتي على الإضحاك.. بل بسبب ما أرويه على كل من يجالسني.. جمل وحكايات وتفاصيل عن أشياء تبدو للجميع بأنها مجرد خرافات من كاذب أو مختل عقليًّا.. بعضهم يتقبلها بضحك وسخرية والآخرون يتقبلونها بتعجب وشفقة عليَّ

"أنا عِشت مرتين قبل كده أصلًا."

"طيب عارف إن أنا كان عندي مؤسسة كبيرة أوي."

"ده الياماشتا ده أنا كان المفروض إني عرفت مكانه بس النصيب بقى."

"انا روحت مرة المؤتمر الدولي لرجال الأعمال وإتعرفت هناك علي ناس كتير أوي."

"رئيس وزراء اليابان! ده حبيبي.. ده راجل ذوق ذوق ذوق."

"بيع البيرة مش حاجة سهلة دي محتاجة فقاقة وتفتيح مخ.. بس الحمد لله انا ربنا تاب عليَّا من بيعها."

"يا سلاااااام.. أنا كنت بمسك الأرض من هنا.. وأربع خمس شهور بالكتير تبقى طلعت عمارة وبعتها كلها."

"مصنع الأجهزة الطبية ده كان محتاج تراخيص دولية كتير أوي.. بس بصراحة جابلي شوية فلوس زي الرز.. أياااام."

كل هذا الكلام وأكثر.. كنت مختلًا أو مهرجًا في نظر الجميع بسببه.. وحتى زبائني من راكبي التاكسي.. كنت أضيع أوقات الزحمة في تلاوة الحكايات عليهم وأيضًا بنفس رد الفعل الذي تعودت عليه.

حتى جاءتني المفاجأة التي لم تكن في الحسبان.. فقد ركب معي زبون من نفق أحمد بدوي يود الذهاب لميدان صلاح الدين بحي مصر الجديدة.. ولأنه حكى لي عن ضيقه لفراق حبيبته وخداعها له.. وجدت نفسي أحكي له عن صفية حبيبتي السابقة.. لأحمسه على عدم الندم.. فإن كانت حبيبته لها عُشر ما كانت تمتلكه صفية ما كانت خدعته أبدًا أو حتى جعلته يحزن بسببها ولو لحظات.

وحين كنت أتلو عليه تأثرت أنا بشكل كامل.. فقد شعرت الوحشة والفراق تجاه صفية.. الخسارة الوحيدة في حياتي.. أين أجدها وهي من بلاد الأحلام.. كيف أحب وأعشق غيرها.. فهل هناك من يستحق العشق غيرها.. إنها حقًّا مأساة سأعيش حاملًا لها طيلة عمري..

وما أخرجني أنا وزبوني من جو البؤس الذي اندمجنا فيه هو أنني أثناء الحكي عن صفية ذكرت أنها كانت تهون عليَّ بعد أبنائنا عنَّا.. سليمان وشعيب وسمية.. وهنا سألني الزبون:

– معلش سؤال بسيط بس.. إنت شكلك يادوب حاجة وعشرين سنة! إزاي مخلف 3 عيال.

– أاااه هاهاها..

– أيوه حاجة غريبة شوية هاهاهاها وكمان كبار وبعدوا عنك! إنت اتجوزت وانت عندك أربع سنين ولّا إيه هاهاها..

– لأ ده كان في الحلم يا معلم.. هي اللي زي صفية دي هيبقى فيه زيها اليومين دول.

– في الحلم هاهاهاها هو انت ده كله بتحكي عن حلم هاهاهاها..

– أاااه هاهاهاها..

– والله إنت اللي مفيش زيك يا اسطى هاهاهاها.. ده إنت عايش في الحلاوة هاهاهاها عمومًا كويس إننا وصلنا خلاص.

كنا في ميدان صلاح الدين حيث محلات الصاغة والملابس والأحذية وجو الكوربة المعتاد.. وهذا الميدان بالتحديد قد عشقته وسيصبح المعلَم السياحي في حياتي.. فقد نزل الزبون وودَّعني بعد أن دعا لي بأن يرزقني الله بحبٍّ كحب صفية وأن يكرمني في حياتي.. ودعوته كانت مستجابة.. فمن كرم الله لي أن ركبت معي زبونة من نفس مكان نزوله بعدما سألتني عن موافقتي في توصليها لميدان السبع عمارات ووافقت.. وفي الطريق جاءت سعادة الدنيا لقلبي حينما نظرت في المرآة الأمامية.. فقد رأيتها! نعم إنها هي! إنها صفية!.. تخللت

أصوات كلاكسات العربيات ومشادات سائقي السيارات من حولي.. فاكتشفت أني تركت السيارة على نفس سرعتها للحظات ولم أنتبه للطريق إثر صدمة ما رأيته.

رفعت يدي من شباك السيارة معتذرًا للجميع وأنا تحت تأثير الصدمة وصففت السيارة لتتعجب عشيقتي صفية بالخلف.

– فيه إيه يا أسطى إنت وقفت ليه؟

– إنتِ إسمك صفية؟

– اسمي صفية آه حضرتك تعرفني؟

– إلا أعرفك..

– معلش أنا آسفة مش واخدة بالي.. مين حضرتك؟

– أنا روح يا صفية.. أنا حبيبك وعشيقك وجوزك وكل حياتك.. ولازم تعرفي كل حاجة عني بسرعة.

– نعم.. إنت بتقول إيه حضرتك؟

– متقوليش حضرتك.. قوليلي يا روح يا حبيب قلبي يا مغلبني.

– ممكن تحترم نفسك شوية عشان ما أعملكش مشكلة؟ وبعد إذنك نزلني على جنب حالًا

– إنتِ زعلانة ولّا إيه.. أنا اتعلمت خلاص من اللي فات.. إنسي أي حاجة خلاااص.

– إنت بتقول إيه يا جدع إنت! .. وقف العربية دي حالًا.

– بقولك خلاص يا صفية.. لما هنتجوز المرة دي مش هتعيشي معايا غير اللي نِفسك تعيشي فيه وبس.. إنتي عارفة كويس أنا بعشقك أدّ إيه.. وعمري ما هفكر في حاجة تاني غير إني أرضي ربنا وأرضيكِ

وبس.. بعشقك يا صفية.. بموت فيكي يا بت.. حنية روحك وجسمك وحشوني.. دانتي جنتي عالأرض يا ص...

– روح إيه وجسم إيه! إنت بتقول إيه يا حيوان إنت، يا قليل الأدب ده أنا هطلّ...

****

انتهى!.. قررت إيقاف كتابة مذكراتي عند هذه اللحظة.. وأظن أن هذا هو الأفيد لكم.. فتلك هي أجمل وأسعد لحظات حياتي وهي أيضًا اللحظات الوحيدة التي شعرت فيها بالأمل في قدرتي علي خوض طريقي الصحيح في الحياة.. فقد عِشت عمرين كاملين في حضن أبرار "ميتة".. وعشت سنين أصعب قبل ذلك الحضن بين كفاح أبرار مع ألماس.. والحصيلة من هذا هي أني رأيت من الدنيا أكثر من مائة عام كاملة.. صنعت فيها حسنات لا يمكن لأي منكم أن يدخر مثلها.. وارتكبت أيضًا الكثير من السيئات التي يصعب على أيٍّ منكم ارتكابها.

فمعكم في مذكراتي خبرة من كان سلبيًّا مدفونًا داخل الحائط خائفًا من البشر وشيطانهم، وخبرة من قام بهدم الحائط فوق كل البشر وكل الشياطين، خبرة الناجح في عيون الناس وفي داخله إنسان فاشل، وخبرة الفاشل في عيون الناس كما كان فاشل أيضًا في داخله، لديكم في مذكراتي نجاحات أبي ألماس وعائلتي.. ولديكم "أبرار" المثال الحي للحبيبة المكافحة الصبورة التي يظن أكثركم بأنها ليست موجودة في الحياة، لديكم اجتهاد أسرة وطموح لهدف مشروع.. ولديكم كل التفاصيل لذلك الهدف الذي كاد أن يتحقق ثم مات بفعل مجتمع لا يأخذ من التقدم سوى ما يرضي رغباته ولا يأخذ من الدين سوى ما يستطيع أن يتعايش به، لديكم من خاف الشيطان فعاش مدفونًا تحت

الأرض.. ثم عاد ليحارب الشيطان ببسالة فسار شيطانًا مثله وربما ألعن منه، لديكم كبوات تعبر ومشاكل تخترق.. ولديكم في النهاية أمل يسكنه عمرٌ جديدٌ فيه المعرفة للطريق الصحيح وفيه صفية تعيش بجانبي من جديد.

وهذا يكفي ليستفيد منه من سيقرأ منكم تلك المذكرات.. أما ما حدث بعد ذلك فلن يأتي إليكم بنفعٍ.. وربما يكون سببًا في إحباطكم.. ولذلك سأبوح به لعم بدر وحده.. كما كنت أفعل في السابق.

إمضاء روح الله ألماس عبد الحي

❊ ❊ ❊

(42)

غاب عني روح بضع ليالٍ كنت لا أعرف عنه أي شيء سوى أنه معتكف تحت السلم ولا يريد الحديث لأحد.. وهي المرة الأولى التي ينعزل فيها روح عن كل الناس وبما فيهم أنا "عمه بدر" حبيبه وأبوه الروحي وكاتم أسراره ومستشاره ومساعده.

وعاد بعد تلك العزلة ليعطيني تلك المذكرات.. فوجئت به يجلس بجانبي في الجامع كما كان يفعل طيلة عمره.. كان في حالة من التعاسة لم أرَه فيها من قبل.. أعطى إليَّ تلك المذكرات وأعطاني معها جوابًا.. ثم أحكم قبضة يده على كيس من البلاستيك الأسود كان يحتضنه.. وبدأ الحديث بيننا بعدما تبدلت ملامح التعاسة من وجهه لملامح تبلد ولامبالاة:

– شُفت واحدة زي صفية بالظبط.. لا ده هي صفية فعلًا.

– طيب كويس.. أومال مالك فيه إيه؟

– طلع ماينفعش؟

– هو إيه اللي ماينفعش؟

– ماينفعش أعيش في الطريق الصح.. أي حد ممكن يعيش فيه بكل بساطة إلا أنا.. وعشان كده أنا كتبتلك مذكراتي أهي.. بقالي أيام بكتب فيها.

– عشان كده كنت مختفي؟

– أيوه.

– وليه مذكراتك يعني.. عايز تبقى كاتب حضرتك؟

قلتها بلطف لأداعبه وأهون عليه حالته السيئة.. ولكنه لم يهتم لتلك المداعبة وأكمل حديثه بنفس سمات التبلد واللامبالاة التي بدأ بها.

– لا مش كده.. بس يمكن الناس تستفيد من السنين الكتير اللي عِشتها.. أجدادي وأبويا وأمي وعمري لحد العشرينات.. وعمري بين العشرين والستينات اللي عِشته مرتين.. أنا عايز الناس تستفيد من السنين دي يا عم بدر.. عشان عالأقل ما أبقاش رُحت هدر.

– والجواب ده إيه؟

– لا ده إقراه بعد ما أمشي.

– إشمعنى؟

– عادي بقى يا عم بدر خلينا قاعدين أحسن نتكلم شوية عشان عايز أحكيلك.

– طيب كملي يا سيدي مالك بقى.. وإيه اللي ماينفعش بالظبط.. وعملت إيه مع البنت اللي شبه صفية اللي شُفتها دي؟

– مافيش طلع ماينفعش زي ما قولتلك.

– أيوه إيه اللي ماينفعش؟!

– ماينفعش أعيش من جديد.. خلاص كفاية عليا كده.. كنت فاكر إني هبدأ وهوصل وهكمل حياتي وهحقق أحلامي وأحلام أبويا وأمي..

كنت فاكر إن صفية هتحط إيدها على كتفي وتبقى النور اللي أمشي بيه.

– ها وإيه اللي حصل؟ إوعى تقولي أبوها رفضك..

– ياريت هاهاها.. تخيل.. هي اللي رفضتني هاهاها

– رفضتك ليه هي طلعت غنية ولا إيه؟

– ولا غنية ولا نيلة.. وكانت بدأت تحس أنا أدّ إيه بحبها وكانت هتديني خلاص رقم تليفونها.. بس أول ما قولتلها ظروفي كل حاجة اتغيرت.. عاملتني على إني واحد صعبان عليها.. وحاولت بكل رقة توضحلي إني بصيت لفوق لما فكرت أكلمها من الأول.

– ليه كده.. لا حول ولا قوة الا بالله .

– عادي بقى.. عشان أنا ابن بتاعة الخضار اللي شحتت عشان تصرف على جوزها التعبان.. مش مهم إني مجتهد ومن أسرة مجتهدة وقدرنا نحقق حلم صعب واتخرجت من كلية الهندسة.. المهم إني عار على إني أبقى مهندس.. مش مهم إن ألماس قِدِر يخش كلية الاقتصاد والعلوم السياسية.. المهم إن أمه ماتت وضحت بروحها عشان تنقذ روح عجل يتباع أضحيه في العيد.. مش مهم جدي الفلاح البسيط عافر وتعب وربى أبويا.. الأهم إنه لما اتجوز كان عاجز عن إنه يجيب حاجة دهب لحبيبته وبنت عمه.. والأهم كمان إنه كان مايعرفش إن الألماس أغلى بكتير من الدهب.

– معلش يا ابني إنت هتنجح وهتحقق كل أحلامك وأحلام عيلتك.. أنت خلاص بقيت قوي وعندك خبرة بكل حاجة.. وزي ما انت قُلت.. ده انت عِشت عمرين على بعض.. مين دلوقتي عنده خبرتك دي يا عم..

– المشكلة يا عم بدر ماكانتش إزاي أمشي في الطريق الصح وأبعد عن الطريق الغلط.. كل الطرق مهما كانت صح ممكن تبقى غلط.. وكل الطرق الغلط ممكن نمشي فيها صح.. من الآخر كده المشكلة مش إني أعيش جنب الحيط ولا جوه الحيط ولا حتى أهد الحيط.. المشكلة الحقيقية يا "عم بدر" في الحيطة نفسها.. الحيطة اللي بنبني فيها لحد ما نحتار فيها ونعتبرها مشكلة.. مشكلة بنعملها بنفسنا ونعيش بقيت عمرنا ندور على حل ليها.. أقولك على حاجة يا "عم بدر".. أنا همشي أحسن دلوقتي وأشوفك بعدين في ظروف أحسن من كده.

– طيب ما تخليك شوية

لم يعطِ روح أي اهتمام لرغبتي ونهض من مكانه وتركني.. ولم أهتم بكتاب مذكراته حيث أني متوقع أني على علم بكل ما فيه.. ولكن اهتمامي كان بالجواب الذي كنت أستشعر الريبة منذ أن رأيته.. ولذلك فتحت الخطاب وقرأته:

بسم الله الرحمن الرحيم

عم بدر.. لما كنت ميت زمان ماكنتش عارف أنا وصلت المستشفى الحكومي إزاي! أنا عِشت لحد اللحظة دي بسأل نفسي جتني راحت هناك إزاي ومُتّ إمتى؟ ولما عرفت الإجابة لقيت فيها الحل لكل إللي أنا فيه دلوقتي.. أنا لميت شوية أكل بايظ أوي من الزبالة اللي في خرابة الحاج عوض.. حطيته في كيس بلاستك وأخدته معايا.. وسيبتلك بطاقتي وكل ورقي في الصندوق الخشب اللي في بيتنا.. أو أقصد في عشتنا تحت السلم.. وانت يا عم بدر رجِّع التاكسي لعم راشد واشكره .. وابقى اعمل محضر كمان كام يوم إني من المفقدوين..

قولهم: ذهبَ ولم يعد. وأنا هلفّ في أرض الله زي ما ألماس أبويا لف من سنين قبل ما يوصل الخرابة.. هاكل من كيس الزبالة.. يمكن أموت مسموم في الشارع وأرجع لمصيري اللي حلمت بيه.. أترمي في مستشفى حكومي لحد ما ياخدوا من جسمي عينات وقطع غيار بشرية وبعد كده أتدفن في مقابر المفقودين.. وماتخافش يا عم بدر أنا كده مش هبقى انتحرت.. وكمان أنا ممكن ما أموتش ولا حاجة ويبقى مكتوبلي أعيش.. ولو عِشت أوعدك إني هحاول أفتكرك وأنفذ وصيتك ويمكن أعرف أعيش على أدي أو أبدأ حياة جديدة بسيطة.. ويمكن كمان أقدر أحقق مستقبل شكله حلو.

أنا عارف إنك زعلان دلوقتي وبتقول لنفسك: "ليه يا روح يا ابني كده ده انت ولا كأنك اتجننت".. وأنا عايز أقولك إني ممكن أبقى اتجننت فعلًا.. ماتنساش إن اللي شُفته مش قليل يا عم بدر.. خلاص.. ما أظنش هيبقى ليا من الدنيا حاجة غير شوية هلاوس روح.

والسلام ختام يا عم بدر.. لا إله إلا الله

كان هذا خطاب روح الذي أصابني بالذهول مما يحدث.. فبالرغم من كوني "عم بدر" الذي يقصده الناس لأخذ آرائه وتوقعاته إلا أني لم أكن أتوقع يومًا أني سأعيش تلك الصدمة وتفاصيلها.. فأنا الآن لا أستطيع أن أفسر أي شيء مما يدور في ذهني بشكل سليم.. افتقدت القدرة على ترتيب أفكاري أو حتى التعبير عنها.. بدأت أشعر أن روح وأسرته كانوا كفأرٍ للتجارب نستفيد منه في تجربتنا القذرة في الدنيا.. أحقًّا يموت روح محسوبًا على المفقودين اللقطاء؟! أم سيعيش ويستطيع أن يحقق أحلامه وأحلام عائلته ويصل لما كان يريد.. أم أنه حقًّا سيصبح مشردًا في الشوارع؟!

كل هذه الأسئلة يمكن أن أجيب عليها بنعم،

نعم.. هناك احتمال أن يكون روح جثه مهملة في إحدى المستشفيات أو ملقاة في أحد النعوش التي تسير وراءها متهافتًا على أخذ بعض الحسنات من حملها على الأكتاف أو الهتاف بصوتٍ جسور " الله يا دايم هو الدايم ولا دايم غير الله".. وربما يكون روح هو جثة تبيت ليلتها الأولى في قبرها بينما تستعد أنت للذهاب لحضور العزاء فقط لأجل "تقضية الواجب".

نعم.. هناك احتمال أن يكون روح هو من يرتدي حذاء "ترابي" اللون من أثر السير به لفترات طويلة.. وربما روح هو محصل فواتير الكهرباء الذي يصيح باسمك أول كل شهر.. وربما يكون روح هو موظف الكول سنتر الذي تحدثه حين الاتصال من أجل أمرٍ ما.

نعم.. هناك احتمال أن يكون روح هو الرجل البراق المغلف بملابس أنيقة متعطرًا داخل سيارته وسط الزحام ووقف مشيرًا لك بيده بكل وقارٍ واحترامٍ ليخبرك أنه سيتوقف بسيارته حتى تمر من أمامه وتعبر الطريق في أمان.. وربما روح هو الوزير الذي تستمع له على شاشة التلفاز وهو يحكي عن إنجازاته بعد توليه الوزارة موضحًا أن أي سلبيات لوزارته لم تكن في عهدة وكانت في عهودٍ سابقة.. وربما روح هو الممثل السينمائي الذي تحبه أو مطربك المفضل أو إمام الجامع الذي تصلي فيه.

نعم.. هناك احتمال أن يكون روح هو المشرد الذي يدغدغ مشاعرك حين رأيت صورًا له على مواقع التواصل الاجتماعي ومعها نداء بأن تأويه إحدى الجمعيات الخيرية.. وربما روح هو المختل عقليا الذي يجلس بجانب صندوق القمامة في الشوارع موجهًا لك السباب دون

أن تمسه بسوء.. وربما هو الجالس على أحد الأرصفه أسفل خصلات شعره المحملة بالديدان.. وحين تمر من أمامه ينظر إليك بعطف قائلًا: "هات حاجة يا كابتن أجيب بيها لقمة أنا ماكلتش من إمبارح وربنا"

والمؤكد من كل هذا أن روح موجود في كل مكان.. نراه في الناس وفي أنفسنا.. روح هو نحن جميعًا.. روح هو أنا أو أنت أو أنتِ.. وربما يكن روح هو من سيقرأ تلك المذكرات بتمعن فيهرب من حقيقة أنه هو روح ويحاول إقناع نفسه أنه مجرد قارئ ولا يمتّ لروح بأي صلة. وأن كل ما يحدث له من صدمات إثر التشابه بين حياته وحياة "روح" هي فقط.. مجرد "هلاوس روح".

النهاية

❊ ❊ ❊

هلاوس روح

دارك
للنشر والتوزيع

0224832669 - 01027251915
info@darak-egy.com
https://www.facebook.com/darak.publishing

هلاوس روح
رواية
إسلام يعقوب التحيوي
دارك